BANKERS
بانكرز
رواية
أحمد فوزي طاحون
ساحر الكتب

رواية

بانكـرز

Bankers

الطبعة الأولى
1442 هـ
2020 م

اسم الكتاب: بانكرز
التأليف: أحمد فوزي طاحون
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 256 صفحة
عدد الملازم: 16 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2020 / 22990
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 840 - 8

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

رواية

بانكرز

Bankers

أحمد فوزي طاحون

دار البشير للثقافة والعلوم

إهداء

أهدي كتابي هذا لك عزيزي القارئ وأنت الذي كنت دومًا نُصبَ عيني وأنا أسطر أحرف روايتي... التي أعدت قراءتها كثيرًا متقمصًا دورك باختلاف ثقافاتك محاولًا الوصول لسر الحبكة التي تجعل من روايتي تلك استثمارًا لوقتك لا مضيعة له.

سأتلاعب بكم جميعًا، سأستغلّ انقطاع أواصر الودّ بينكم، وأزرعُ الفتنة، كلّ ما أتلوه على مسامعكم ليس كذبًا مطلقًا، سأكسوه بغُلافِ الصدق، أعرفُ كيف أدسّ بعضَ الحقائق المعروفة لديكم في سياق أكاذيبي، فينطلي عليكم خداعي. سأتأمّل نظراتِكم بعضِكم البعض، وأعرفُ نسبة نجاحي في تنفيذ ما رميت إليه. أتدرون؟! أتدرون أنّ كلّ ما عليكم فعله هو أن تتحدّثوا بما أوغرته في صدوركم. حينها، وحينها فقط، سأنطفئ؛ لكنْ هيهات، تحتاجون دهرًا لكشف طبيعتي، وحينما تكتشفون ستكونون بلا أيّ نفع لدي، سأنتقلُ للّعبِ في مسرحٍ أكبر، أبطالُه ورُغم أنّهم يفوقونكم فيما خُوّل إليهم من سلطات، وفيما اكتسبوه من خبرات في كشف أمثالي؛ إلّا أنّ اللعبَ معهم سريعًا ما يؤتي أكُله. أرجوكم ألّا تنسوا أنْ ترفعوا لي قُبعاتكم لأُوليكم حينها بعضًا من نظراتي.

(١)

مصر الجديدة، «يناير ٢٠١٤»

لقد عزمتُ أن أكتب روايتي الأولى، قرأت المزيدَ من الروايات المختلفة، أحضرت أدواتي، أصبح لديّ شغف في إخراج عملٍ يؤثّر فيّ أولًا قبل أن يؤثر في القراء، عزاءَ أستخرج به كلّ الشخصيات القابعة بداخلي، وألقي بها على صفحات من ورق، أشاهدها تتنازع.. تتصارع.. تلقي النكات.. تجري مرحًا.. تبكي.. تتخذ من الصّرامة عنوانًا لها، ومن معرفة كلّ الناس ستارًا اجتماعيًّا لوحدةٍ أستمتع بدقائقها في سكون الليل.. تنطق بكلّ اللغات، تسافر.. تعود لزمن سحيق، ثمّ في زمرة الأحداث «تنتشي بانتصارٍ مزيّف ينتزعني من داخلي».

فجأة، سمعتُ صراخًا يأتي من الشّقة المجاورة، علّه الشجار الدائم بين الجيران. فتحت الباب، اقتربت قليلًا لأجد تلك المعركة التي تدور رحاها بين الزوجين. في كلّ مرّة يحدث هذا الشجار أستدعي ذكريات سيئة حملها عقلي الباطن طيلة حياتي.

نشأتُ في بيت لا يكاد يخلو من المشاكل، رغم أنّ الأب جلال؛ هذا الرجل الوقور الذي يحظى بتقدير الجميع، إلا أنه لم يكن كذلك مع أمّي وداد السيدة البسيطة التي تكرّس حياتها لزوجها وولدها، والتي أكلتها نارُ الغيرة عندما علمت بزواج زوجها ووضْعها أمام الأمر الواقع، وأنها ستصبح

شريكةً لزوجها مع تلك الزوجة الأرملة الحسناء ميرفت، فآثرت اقتراحه الثاني بالطلاق في هدوء، وأن يتكفّل هو بمصاريف البيت وتعليمي.

استمرّ على عهده سنوات، ثمّ بدأ ينقطع تدريجيًّا، ذكريات سيئة تؤجّج شرارتها تلك المشاجرة التي تحدثُ على فترات متباعدة تؤرّقني وتعكر صفو يومي.

عُدتُ أدراجي وأنا ألومُ نفسي على سماع ذاك الحوار الذي عكّر مزاجي، فطويت الورقَ ونحّيت القلم، وبدأت أمارس طقوسي اليومية.

أخذتُ مفاتيح السيارة وحقيبتي السوداء، استدعيت المصعد، وغادرت البناية ملقيًا السلام على الحارس الذي ردّ بكلّ حبّ أستشعره في عينيه جرّاء حسن المعاملة التي يلقاها منّي، يتردّد صدى دعائه في أذُني طيلةَ مسيرتي إلى عملي في البنك:

– صحبتك السلامة يا أستاذ رشاد، جعل الله لك في كلّ خطوةٍ سلامة.

***

البنك

دخل رشاد البنك، يتمتّع بحبّ الجميع، ويظهر ذلك جليًّا، فهو المحور، هو الملاذُ لأيّ مشتكٍ، العملاء أيضًا يحبّونه منذ أن كانَ في قسم «تكنولوجيا المعلومات» أو «IT» قبل أن يُغير مساره ثمّ يترقى ويصبح نائبًا للمدير.

ألقى التحية على زملائه ومرؤوسيه، بادر الجميع بردّ التحية، وعلى رأسهم حسن الذي يعمل في قسم العلاقات المصرفية، يظهر على قسمات وجه حسن أنّه تهمّه هائمة، ويعتريه حزنٌ شديد، لمح ذلك رشاد في عينيه، فاقترب منه قائلًا:

– هل هاتفك من جديد؟

أجابه حسن:

– نعم، لقد اتصل مجددًا.

سأله رشاد:

– وهل عاود طلب المال؟

أجاب حسن بأسى:

– كمية المال التي يطلبها في تزايد مستمر.

ختم رشاد حديثه قائلًا:

– كم من أناس كان بلاؤها متمثّلًا في أخ أو أب أو ابن، لم يكن لهم سندٌ في شيء، بل كان هو سبب شقائهم وتعاستهم.

هكذا كان حوارهم المقتضب عن توأم حسن الذي يُدعَى سلامة، يشارك حسن همومَه مع رشاد، حكى له الكثيرَ منذ أن توفّي والداه في حادث سيْر مُروّع، وتلك الأموال الحرام التي جناها أخوه من المتاجرة في العقاقير الطبية المحرّمة، مستغلا عملَه في مجال الأدوية، وكيف أنه بعد أنْ حامت حوله الشكوك وقبل أن تشوبه شائبه؛ قرّر مغادرة البلاد، ولم يكن معه ما يكفي من المال لملائمة وضعه الجديد الذي وضعه كلّه في شراء ڤيلا، ممّا أثقل كاهل حسن في تدبير تكاليف إقامة توأمه بالخارج حتى يتسنى له الحصول على عمل على حدّ قوله.

***

وداد

في كلّ مرة أذهب لقرية «كُتامة» في طنطا أجدُ روحي ثانية، منذ أن انتقلت للقاهرة وأنا أفتقد قريتي، أفتقد شغفي للحياة، أفتقد تلك السويعات التي أسترجع فيها ذكريات جميلة مضت، تقتل الحزن الذي يعتريني.

كثيرًا ما أجلسُ وحدي محدّثة نفسي عن إهداري لجلال، حبي وحب عمري، بتسلّطي عليه؛ غلّفت له المشاكل وتبلورت إلى أنْ رآه الجميع رغم عدله ظالمًا لي.

لم يُشعرني في مرّة من المرات أنّي لست بسيدة المكان والزمان، لم يسلبني أيًّا من حقوقي، بالغ في تدليلي على قدر استطاعته، لكني أريده لي.. ولي فقط، أستنكر عليه برَّه بأهله إن آثرهم علي.. ولو بالقليل، أستنكر عليه أن يخرج دوني، أن يجلس في البيت وألّا أكون شغله الشاغل، وأمام الناس أنا السيدة الطيبة التي تدفعه إلى الخير والبر.

أعرف كيف أخرجه عن شعوره رغمَ رباطة جأشه ورزانته، إلّا أن طبيعته تخونه في بعض الأحيان مُلقيًا قليلًا من الكلماتِ اللاذعة التي أضخّمها بالبكاء والعويل على مسمع من الجميع، فيظهر أنّي أعيش حياةً مكدرة، هكذا أريد دومًا أن أعيش في دوّر المظلومةِ دائمًا، أعرف نفسي كما لا يعرفها سواي.

ضاق ذرعًا، فهو في النهاية رجل، وجدته ذاتَ مرّة يأتي على استحياء قائلًا:

– لقد هممت بالزواج بأخرى، بل بالأحرى لقد تزوجت.

أصابتني الصدمة، أنا غالبًا مَن أستدعي شرارة المشاكل وأُعكر الهدوء، كنت كمن تلقى طعنة، بل قل طعنات. تمنيت أن يكون كابوسًا أحياه، وأن يستردّ دعابته الحمقاء، وعاهدت نفسي أن أتقبلها كدُعابة رغم مرارتها.

استأنف كلامه قائلًا:

– ميرفت، تلك الأرملة، كنت قد قابلتيها في إحدى المرّات، أحسست أنّي أميل إليها بعد كَمّ الكدر والهمّ الذي أحياه. كم جلست معك لمرّات ذاكرًا لغضبات أقتلها في مهدها، لم ولنْ أذكرك بسوء، لكنّي إنسان لي من الاحتياجات التي افتقدتها في حضرتك، لكَمْ سألتك أن تَكُفّي عنّي أذاك، وألّا تضيعيني من بين يديكِ.

كلماتُه كانت صدقًا، أخرستني، ألجمتني، كنت أتوقّع أن يفعل ذلك؛ فأنا المُقصرة في حقوقه كلّها، وهو المستقبل لكلّ زلّاتي المُجمّل لصورتي. أحيانًا فقط يثور ليُهدّئ من روعي، وأن يترك لي رسالةً فحواها «ألّا أتجاوز للحدّ الذي يُفقده رجولته».

لكمْ تمنيت الآن أنه لو كان قد زاد الحد، وصفع الخّد؛ حتى أفيق من سيطرةٍ لم أتجرع مرارتها إلّا بعد أن استيقظت على تلك الفاجعة، نطقت شذرًا بكلمة واحدة:

– طلّقها.

– لا، لن أفعل.

– إذًا، طلقني أنا.

الطَيْف

يتشتّت ذهن رشاد فيظهرُ هذا الطيف، يلمحه وحده، يحاول أن يستشفّ ماهيته لكنه يفشل.

كلّ يوم تقتله الهواجس، فيجد نفسه في حوارٍ مسموع مع النفس، فيتوارى عن الأنظار.

يراه فينتفضُ من جديد، يمنع نفسه في الكثير من الأحيان من الوقوع في هذا التخيل المميت الذي يلازمه ويكتمه عن الجميع.

لم يعرض نفسه على طبيب فيرشده إلى طريقة للخلاص، ينجح أحيانًا في وأد هذا الشعور في مهده، ويفشل أحايين أخرى.

يرقبه من بعيد، ويضيع تركيزُه سدًى في تفسير حركة شفتيه قبل أن ينزوي ناطقًا بكلمات بسيطة يصعب عليه تفسيرها.

يشعر بشيء غريب عندما يلمّ به هذا الشعور، ورغم محاولاته الدؤوب للتخلص من تلك الهواجس، إلّا أنّ تلك المرات التي يفشل فيها يكون هو نفسُه له يدٌ فيها؛ فهو حينها يشعر بالرغبة المكبوتة في رؤية هذا الطيف الذي يشعر معه بشيء غريب حيث يتمنّى لو يراه طويلًا.. لو يحدثه.. لو يعانقه.

في الآونة الأخيرة، حزن رشاد كثيرًا عندما انتشرت علاماتُ الشيخوخة في معظم قسمات وجه هذا الطيف، وهو الذي كان دائمًا يبدو شبابًا نضرًا.

(٢)

رشاد

في بيت بسيط جميلٍ مكوّن من ثلاثة طوابق بمنطقة «السيدة زينب» وسط القاهرة، كان الحاج يسرٍي أقدمُ عمّال الأمن بالبنك يعيش هو وزوجته وابنته وابنه.

يسري أحدُ مَن يعتبرهم رشاد بمثابة أبيه، يفهم يسري طبيعة شخصية رشاد المتقلبة المزاج، يعرف أنّ لديه من المعارف والصداقات ما لا يستطيع حصرها، وفي الوقت ذاته يعرف مدى الوحدة التي يعاني منها رغم كلّ ما يملكه من صداقات وطيدة لفترات كبيرة، والتي غالبًا ما يخبو ظلّها فجأة، فلا يفهم يسري لا أسباب التقارب، ولا أسباب التباعد، ولا يسأل ما لم يُسأل.

رغمَ الصّداقة التي بينهما؛ إلّا أنّ يسري لا يفهم الكثيرَ من جوانب شخصية رشاد، فمِن وجهة نظره أنّه ينتمي للغموض، بل هو الغموض ذاته.

رغمَ شخصية رشاد القوية، والفارق الوظيفي بينهما، إلّا أنّ تلك الشخصية تخور مع يسري، الذي يُعوّض دور الأبِ المفقود في حياته.

يعتقدُ يسري أنّ حبّه لرشاد يفرض عليه ذلك.. فيختار الوقت الذي يقوم فيه بذلك الدور، يقسو عليه أحيانًا، يحتضنه أحيانًا أخرى.

يظهر رشاد أمامه أحيانًا بوجه طفولي، كالذي يحكي متباهيًا «لقد فعلت كذا وكذا حينما كنت طفلا، فعرف أبي، فأبرحني ضربًا»، تلك الأفعال الصبيانية التي يرويها الأطفال أنّهم ارتادوها صغارًا، وكان جزاؤهم العقاب من الأب، فيفخرون بذلك العقاب الذي طالهم وقتَ إتيانهم بها، ويتذكرونها في شبابهم ورجولتهم، وفي لحظات الودّ مع آبائهم يُذكّرونهم بتلك الوقائع، وبكمّ العقاب الذي نالوه، ويتوعّدون- ضاحكين- بفعل المثل مع أولادهم.

أعتقد أننا وإنِ اتّفقنا على أنّ ضرب الأطفال له آثاره السلبية، إلا أن بعضًا منا وحينما يتذكر خطأً فادحًا ارتكبه صغيرًا ولم يلازمه كبيرًا نتيجة تلقّيه عقابًا من أبيه؛ فإنه يتذكر هذا العقاب بِحُبٍّ لأبيه؛، لأنّه ورُغم مرارة اللحظة إلّا أن هذا العقاب نابع من حبٍّ غريزي، يبغي الأب من خلاله لابنه أن يُدرك الصواب ويبتعد عن الخطأ.

هكذا هو حالُ رشاد عندما يكون مخطئًا، ينهره يسري في جلساتهم الفردية، بعيدًا عن أعين الجميع؛ إلّا أنّ رشاد يتقبل أيّ نقدٍ من يسري ومن يسري فقط.

غالبًا يشبُ الاختلاف بينهما حينما يتحدّث رشاد عن أبيه ومدى انقباضه عند ذكره، ومدى الوحشة التي ستحدث إن فقد أمه.

أمّه وداد، والتي كان لغيابها الحالي في تلك الزيارة المؤقتة لقريتهم في كُتامة سببٌ مقنعٌ في إثبات المخاوف التي يتبناها. يمنّي رشاد دائما نفسه لو فارق الحياة قبلها.

اعتاد رشاد أن يصطحب يسري بعد انتهاء وقت العمل من الحين للآخر في جولة يصفّي فيها عقله، ويتحدّث معه كما لم يتحدّث مع أحد سواه.

بعدما خرج رشاد هائما من البنك، شعر أنه يودّ أن يزوره في بيته، زيارات رشاد ليسري في منزله قليلة، ولا يمكث معه فيها سوى ساعة على الأكثر، كان محتاجًا إلى تلك الزيارة وبشدّة، خاصّة في غياب أمّه.

أزاح رشاد عن صدره الكثير، وكان على وشك أن يحكي ليسري أمرَ هذا الطيف الذي يراه، لكنّه أمسك لسانه هامسًا لنفسه «يكفيه هذا الحدّ من الأسرار».

***

دمياط

في مدينة دمياط، التي تعتبر عاصمة المحافظة المُسمّاة باسمها؛ حيث تقع في الشمال الأقصى لجمهورية مصر العربية، وقبل أن يصبّ فرع نهر النيل المسمى بدمياط أيضًا في مياه البحر الأبيض المتوسط بخمسة عشر كيلومترًا تقريبًا، وفي هذا الحي الهادئ البعيد عن الصخب، الذي يتمتع بجمال خلاب وشوارع نظيفة وأشجار تزين طرقاته، جماله يثيرُ في النفس السكون، ويشجّع العقل على الخيال.

دخل جلال البيت وقد طاب محيّاه، وانفرجت أساريره؛ فاليوم معرض الأثاث الذي يمتلكه قد حقّق ربحًا عظيمًا، وكعادته في مثل تلك الظّروف أن يجلب الهدايا لابنتيه؛ سمر وسها، اللّتين أدركتا ذلك، فبادرته سمر قائلة:

– أرى علامات السعادة على وجهك يا أبي، أدامها الله عليك.

الحمدُ سمتُه، والرضا عنوان بيته، هكذا هو دومًا، ارتشف الماء ثمّ قال:

– الحمد لله، كرمُ الله عليّ كبير، يرزقني من حيث لا أحتسب، وبتلك المناسبة أحضرت لكما فستانين تحضرَا بهما حفل الزفاف، وأتمنّى أن ينالا إعجابكما.

فرحتْ ابنته الصغرى سها، وصرّحت بنيّتها:

– شكرًا يا أبي، سيكون ذلك الفستان هو الثاني، بالإضافة للفستان الذي أحضرناه منذُ يومين، كم هو رائعٌ أن تحضر حفلًا وترتدي فستانين فيه، أيّهما سنرتدي أولًا يا سمر؟

أجابت سمر:

– لا، أنا فقط سأكتفي بهذا الفستان، والفستان الآخر سأرتديه ونحن ذاهبون إلى خالي صفوت.

أخذت البنات ترتدين الفساتين، أثنت سها كثيرًا على جمال سمر.

تعجز الكلمات عنْ وصف هذا الجمال، وإن تكوّنت الكلمات تعثرت الحروف بداخلها إن لم تتهاوى من وقْع سحرها، رقتها تسحر النفس، وجمالها يروق لأعين ناظريها، رغم خجلها الظّاهر باحمرار وجنتيها من أقلّ كلمات الإطراء إن لاقت استحسانها، أو حتّى هذا الخجل الذي تخالطه ابتسامة تقتلع القلوب وتأسر العقول؛ إلّا أنّ هذا الحُسن الأخّاذ لم يطغَ أبدًا على طهارة قلبها، أو نقاء سريرتها، حُسن خلقِها زادها جمالًا فوقَ جمالها، جمال الروح وجمال الجسد صنعَا منها أفروديت بصبغة عربية.

ذهبَ جلال ليردّ على هاتفه الجوال مباركًا لابن عمّه صلاح على زفاف نجله، وأنّه سيأتي غدًا قبل الحفل بيومين كاملين، ولوْلا ارتباطات خاصّة بالمعرض في دمياط لمكثَ هو والبنات أسبوعًا كاملًا قبل هذا الحفل في قرية «كتامة».

انفصلَ جلال عن وداد، وترك منزله لها في «كتامة» بطنطا، ثمّ انتقل إلى دمياط بصحبة ميرفت، التي لم يمرّ عام زواجها الرابع منه إلّا وكان الموتُ مصيرها.

كلّ ما يربطه بقريةِ كتامة هو أبناء عمومته صلاح وعبد المجيد وأختهم الأرملة سعاد، جميعهم يقطنون في بيت واسعٍ متعدّد الشقق، له قطعة أرض

زراعية صغيرة تحت رعايتهم، يطلق أبناءُ عمومته عليه جميعًا لقب «الباشا» منذ نعومة أظفاره لتوقيرهم له.

تفرح البنات «سمر وسها» بالذّهاب إلى القرية، حيث أن الأفراح هي السبيل لذهابهم إليها.

اعتدن بَيْنَ الْفَيْنَةِ وَالأُخْرَى أن يكون هناك حفلُ زفاف في العائلة المليئة بالبنين والبنات في سنّ الزواج.

يطبنَ عشقًا بالجلوس مع ابنة عمّ أبيهم سعاد وابنتها فادية.

فادية التي تكبرهنّ بكثير، ولديها أولاد يكبرهنّ أيضًا، إلّا أنّهم عند الجلوس معها لا يبرحُ الضحك مجلسهن.

يتمتّعن بالقرية وأجوائها رغمَ بساطتها، جميع ذكرياتهم معها منذ نعومة أظفارهنّ مرتبطة بالسعادة والأفراح.

***

يسري

غادر رشاد– كعادته– بيت يسري سريعًا. بعد مغادرته، جلس يسري في حديث مع النفس.

أخذ يسري يحمدُ الله على أنّ أبناءه في كنفه، ثمّ تساءل:

– هل تشفع لي تربيتي لهم أن أظلّ أبد الدهر في قلوبهم؟ بنتي حنان بألف رجل، صحيح أني أعاني قليلًا مع آدم، إلّا أنّي لم أقسُ على أيّ منهم.

تحرّك، أخذته الغبطة، رغم حزنه على حال رشاد، إلّا أنه اقتنعَ أن تدليله لأولاده سيضمنُ مكانة ثابتة له في قلوبهم مع تفشّي عقوق الوالدين.

حدّث نفسه في المرآة متباهيًا:

– قطعًا سيفتقدونني حالَ رحيلي، فأعمالي تشهد على ذلك، لم أكن ذاك القاسي أو الجاحد معهم، كم لنْتُ لهم، كم دفنت غضبًا توهّج في صدري، ليس إلّا من أجل أن أحتفظ بتلك الصورة المثالية التي لطالما علقت في أذهانهم.

كان يساورني عنْ إسدائي لأي جميل، تلك اللحظة التي سيحدث فيها الفراق، والدموع التي ستنهمر، والحزن الذي سيعم، عند إدراكهم أنّي رحلت.

عدل من جلسته موليًا ظهره للمرآة، ثمّ أدرك أنّنا جبلنا على النسيان فقال:

– سيتذكرونني، لكنّ ذلك لن يكون الحدث الغالب عليهم.. سيتضرعون بالدعاء لي، لكنه سيقلّ تدريجيًّا إلى أن يتلاشى.

استرجع ذكرياته معَ رسالته التي أدّاها مع أولاده، وهل أحسنَ أم خاب ظنه؟! أمسك بصورةٍ تجمع ابنه آدم وابنته حنان بين يديه قائلًا:

– حنان وآدم ثروتي الحقيقية في الحياة، أنكر طريقة آدم في تفكيره وتخطيطه، كلّ أفعاله يهدف من خلالها أن يدرك الثراء السريع في لمح البصر، دون أن ينمّي موهبة، أو يعزّز مهارة اكتسبها. المعهد الذي يذهب إليه، لا أدرى إن كان يصدقني أم يخدعني في أيّ مرحلة هو. أرى في نفسي أنّي قد ساهمت فيما هو فيه، جاريته في أحلامه البعيدة غير المبنية على أي أساس صحيح، أو أيّ تضحيات. أمّا حنان، فوصفها من اسمها، هي أمّ لي ولأمّها قبل أن تكون لأخيها، أحيانًا تقسو على آدم بكلامها كما لم أتجرأ أنا، لكنه يحبها ويتمنّى رضاها، هي جدار الأمان العازل بين ابني وبين الضياع الذي لم أعدْ أملك مجابهته.

أخرج ألبومَ الذكريات الذي يحتفظ فيه بمخططاتهم، شهادات النجاح، صور الطفولة، إبداعات من رسوم وأشعار ومذكرات خطوها بصباهم. وقعت عيناه على صور شهادة تخرج حنان من كلية آداب قسم علم نفس، وما تلاها من شهادات التمهيدي والماجستير والدكتوراه في نفس التخصص؛ فازداد فخرًا بها.

***

(٣)

كايرو فستيفال

بكايرو فستيفال سيتي مول بالتجمع الخامس، وباستخدام نظام المياه المتراقصة على موسيقى أمّ كلثوم؛ أخذت النافورة الراقصة تتمايل، تعلو وتهبط، تجسد ألحانًا وأنغامًا. وفي أحد المطاعم المحيطة جلس رشاد وحسن، فبادر رشاد بتقديم اعتذاره لحسن:

– آسف يا مستر حسن، لم أتمكّن من الاسترسال معك اليوم.

أجابه حسن، وعلاماتُ الارتباك تظهر عليه بوضوح:

– تفهَّمت ذلك يا بشمهندس، يكفيني أنّك ومنذ قرابة الشهر وأنت الملاذ لشكواي، لا أدري ماذا سيكون حالي بدون مساعدتك، تعرف مدى انطوائي على نفسي، ليس لي من الأصدقاء مَن أثق فيهم وأشاركهم همومي، كان سلامة هو كلّ دنياي.

استمرّ في الحديث وكأنّه يريد أن يزيح ما في صدره:

– لم يكن سلامة هذا المجرم العتي الذي لا يترك خلفه أيّ أثر، إلّا صديق درب، وأخي الذي قاسمت معه كلّ الذكريات.

كان يفوقني أدبًا وعلمًا، صدمةً تلقاها في الثانوية العامة أطاحت بأحلامه في أن يصبح مهندسًا، صادفها موت أبي وأمي في نفس العام.

دخل معهدًا فنيًّا تجاريًّا لينتهي من التعليم، كان قد كره الكتب وكره رائحتها، إرادته تلاشت، دخل هذا المعهد وخلال تلك المدّة كان يعمل في مجال توزيع الأدوية، لا أنكر أنه أحيانًا كثيرة كان يتكفّل بالمصاريف الخاصة بي أثناء دراستي بالجامعة.

من هنا كانت نقطة التحول، رأيت بوادرَ الثراء تظهر عليه، اطمأننت عليه حين أخبرني أنه فهمَ كيف تُدار تلك التجارة، وأنه يأخذ عمولات كثيرة، وعن مدى اجتهاده.. لم أتخيل ولم يخطرْ لي على بال يومًا أنّه انجرف إلى طريق الضلال.

ذاتَ ليلة، أقنعني أنه عثرَ على عرض لفيلّا جميلة، ويريد أن أشترك معه في شرائها، لا أدري من أين امتلك تلك الثقة في أنّي أملك من المال ما يمكّنني من مشاركته! هاجس دحضه بقوله:

«أعلمُ يا حسن أنك لا تمتلك الكثير، سأدفع عوضًا عنك، وقمْ أنت بدفع ما تيسّر لك كلّ شهر».

لم يكن لديّ طموح في أن أمتلك مكانًا راقيًا، ولا أريد أن أثقل نفسي بديون.

قرأ ذلك سلامة في عيني، وكأنّه يقبع في تفكيري، فربّت على كتفي قائلًا:

«لن أثقلك بأيّ دين، كلّ المديونيات ستكون باسمي أنا».

ظلّت الغمامة على عيني إلى أن جاء ذات يوم وصارحني بعد أن حامت حولَه الشبهات، وخوفًا من أن يزجّ به أحدهم ككبش فداء فهو أضعف حلقات تلك السلسلة التي لا يعرفها.

غادر، وكلّ شيء باسمه والفيلّا عليها مديونيات وهو يريد المال.

أعاني من أجل إخراج تلك الأموال دون أن تظهر وجهتها ومتلقيها، أعتقد أنّي مُراقبٌ لأجل ذلك، ناهيك عن كيفية تدبير تلك الأموال، لا أعرف كيف أتصرّف في المستقبل.

أمسكَ حسن بكوبٍ بين يديه، كاد يعتصره، وقال غاضبًا:

– كان لا بدّ أن أكون قويًّا حين حلّ به اليأس وتملكه الإحباط؛ حتى لا يضلّ الطريق.

كنت لا بدّ أن أكون أكثر حدّة معه تجاه أخطائه، أرشده للطريق الصحيح، لا أنتظرُ حتى تُعكر سيرته. في كلّ مرّة كنت أتحدث معه أستحلفه بالأيمان المغلّظة أنه على طريق الهدى، ولم تزلّ قدمه من جديد، لكنه دائمًا ما يسقط في براثن الطمع وشهوة المال.

توقّف حسن عن كلامه، وتحشرجت الكلمات في صدره، وانهالت زَخَّات الدموع من عينيه.

– هدّئ من روعك. (قال رشاد).

أدرك رشاد أنّ حسن تكلم كثيرًا، وزاد نحيبه، فحاول أن يغيّر مجريات الحوار قائلًا:

– أتدري.. اليوم استيقظت مبكرًا كعادتي، افتقدت أمّي في المنزل، ذهبت للتهنئة في مناسبة لأحد أقاربنا، أحبّ الجلوس معها قبل الذهاب للعمل، نفطر سويًّا ونتبادل الحديث.

– ماذا عن والدك، هل هو مسافر؟ (سأله حسن الذي ارتبك، وأحسّ بتسرع في طرح سؤاله).

ارتبك رشاد، ثمّ أجاب مع رسم ابتسامة مصطنعة:

– لا، إنّه موجود، لكنه يستيقظ متأخرًا، فوجدتها فرصة لأنفذ شيئًا من خططي المؤجّلة. أريد أن أكتب قصة قصيرة، رواية، ديوان شعر. أريد أن أكتب شيئًا ما أخرج فيه ما في نفسي على لسان أبطالي، أتحدث معهم.. أتمنى.. أضع الخطط.. أحيك المؤامرات.. أسافر.. أحب.. أكره.. أموت.

ثمّ أسهب في الضحك، وقال:

– أتدري، أريد أن أكتب شيئًا يغلب عليه الطابع الساخر، لكن عليّ أولًا أن أتخلّص من جلساتك لأنها ستضفي عليه طابعًا مأساويًّا.

ابتسما سويًّا حتى ظهرت نواجذهما، فعقّب رشاد قائلًا:

– أو أن تكون رواية بوليسية ونسطو على البنك فتمتلك الكثير من المال، ثمّ تعود لحنان فتتزوّج وتزيد همومك.

توقّف حسن عن الضحك، ولمعت عيناه، ونكس رأسه.

***

حنان

جبلٌ أنا، أنتمي لهؤلاء القلة الذين تُرمى في أحضانهم هموم من حولهم، تارةً أخففها، وتارةً أمتصّها، وتارة أطرح الحلول وأرسم درب الخلاص.

أبي يسري، يصبّ ألمه في جعبتي، وجعبتي أنا فقط، يمرح.. ينصح.. يُجرح بين أحضاني.

أمّي هدى؛ الطيبة الحنون، أخي آدم المتمرّد على واقعه، أصدقائي، جميع مَن حولي.. بينما أنا، الجبل الذي لا يتوقع أحدٌ أن يُكسر أو تخور قواه، مهْما وجّهت له من سهام الدنيا الغادرة، أدفن همومي وأحزاني بداخلي.

لا أنكر أنّ أبي وأمي أو حتى أخي يسعون للتخفيف عنّي إذا ما هَّم بي شيء آلمني؛ لكنْ أنا مَن أريد ألّا أزيد أعباءهم بهمومي، فأدخل البيت نافضةً عنّي غبار أي حزن اعتراني.

ألم تمرّ بكم حالة من أمثالي؟! حالة لم تعهدوا عليها شكوى قط، حالة تُظهر الجانب السّعيد في حياتها، وتئدُ هذا الآخر المسمّى بالحزن؟ «ها أنذا».

واحدٌ.. وواحد فقط مَن كنت أظهر أمامه كما أنا، أحكي، أبكى، أستخرج حنان؛ الطفلة المدللة، كنت أتمنّى أن تمرّ الشهور الفاصلة بين الخطبة والزواج ليجمعني بحسن بيتٌ واحد.

منذُ سنة، جاء حسن إلى زيارتنا، عيني تلاقت بعينيه، لا أدري سرّ انجذابي إليهما، ويكأنّ سحرًا خرج منهما ليأسرني، عجّلت الخُطى لأحتمي منهما داخل غرفتي، لكن لم أكنْ أعلم أنّ سحرهما نافذ، وأنّ ضيّ عينيه لازمني

وملك كياني.

زيارته الثانية هو وأخوه التي أبلغنا بها أبي، اختلطت فيها مشاعري، تلك المشاعر السعيدة التي ملكها سحر عينيه، ووثقت صحتها بطلب للزيارة في غضون أيام قليلة على غير العادة، صحيح أنه لم يحدّد الهدف، لكن المبشرات السعيدة توحي بذلك، وتلك المتشكّكة التي صورت الأمر على أنّ سحر عينيه لربما لم يقصد أن يصيبني، وأنّ وجهته لبيتنا ليست إلّا لزيارة أبي.

إلى أن قرع الباب، ووجدته يأتي مصطحبًا أخاه سلامة، ويكأنّه أخرج من مرآته هذا الشخص وأتى به.

التّشابه بينهما لا تكاد تلاحظه بعينك المجردة، تشابه حدّ التطابق، غير أنّي ميزتهم من عينين أصبحتا ملء حياتي.

لكنّ تلك الزيارة لم تكن كسابقتها، كانت بالفعل انتصارًا للجانب المتفائل بداخلي، فقد جاء طالبًا للزواج منّي.

المُضحك في الأمر، أن أبي لم يتعرف على زميله في العمل إلّا بعد أن عرف نفسه، ولوْلا أنهما لم يبرحا مكانهما لاستمرّ أبي في حيرته طوال الجلسة، لاحظت ذلك عن كثب، لا أدري إن كانت حيرة أم انبهارًا.

أبي عزيزُ النفس، هل لا يستوعب أن واحدًا من الموظفين أتى ليخطب ابنة عامل الأمن؟! لن أسامحه إذا تسرّب اليه هذا الإحساس.

تمّت الخطبة، وعرفت عن حسن، وعن صفاته الكثير.

إنسان طيب، على سجيته، لم تعكّره الدنيا بملوثاتها؛ لكنّي شعرت بسلبية واضحة تجاه تصرّفات توأمه سلامة، وكأن سلامة هو مَن يدير الدفة.

أسئلة بسيطة سألتها، كانت الحيرة هي الحاضرة في إجاباتها:

– ما خططك في المستقبل؟

– هل سأستمرّ في عملي؟

– أين هو مسكننا؟

السؤال الأخير هو القشّة التي قصمت ظهر البعير. لا أنكر أنّي كرّرته مرارًا في زياراته القليلة جدًّا، ومحادثاتنا الهاتفية الأقل؛ لكن أليس من حقي أن أعرف أين سأعيش حتى يتأهّب أبي بما تيسر له من مالٍ ادّخره خصيصًا لي ولأخي لمثل تلك المناسبة.

فقط، الإجابة كانت في إحدى المحادثات الهاتفية، صدمةٌ لم ولنْ أغفرها، لامست الجزء الذي لطالما نهرتُ مَن اقترب من المساس به.

– تسألين عن العيش في فيلّا التجمع، وكأنّك لم تبرحي الفلل منذ الصغر!

أخذني الذهول، استرجعته "ماذا تقول؟" علّها أن تكون مقولةً عابرة، ويقدّم اعتذارًا فوريًّا لن يمحو ما اقترف؛ لكنّ القلب الذي سيموت إن لم تدركه بتلك الصاعقة سيتوقف عن النبض، وسيكون اعتذاره لي كالصاعقة بمبررات وأعذار واهية، لكنها ستحيي القلب مؤقتًا، وسيمكث الجرح كثيرًا إلى أن يلتئم.

على عكس ما توقّعت، استمرّ في قذفاته:

– مللتُ السؤال، سأتدبّر حالي، على أية حال، لن يكون الشارع بيتنا.

أعطيته فرصة لم أمنحها لأعزّ صديقاتي، وأطولهنّ عِشرة معي حين خاضت فيما خاض، لكنه لم يستغلها، بكلّ كبرياء وثبات قلت له:

– الإجابة مقتضبة، انتهى ما بيننا، لا تحاول زيارة البيت وإلّا طردتك. أبي لن يعرف شيئًا حفاظًا على ما بينكما. «انتهى».

(٤)

عمر

لن أنكر أنّ لديّ طموح يناطح عنان السماء؛ لكن بعد تخرجي من كلية الهندسة وقضائي للخدمة العسكرية، باتت أحلامي الحالية بسيطة، تتمثل في وظيفة ثابتة ذات دخل ثابت فحسب.

دافعي لإخماد طموحي مؤقتًا، هو أن أمتلك دخلًا ماديًّا يحقق لي الارتباط بحبيبة عمري، ويكفل لي حياة كريمة.

لكنّي والحمد لله، التحقت للعمل بأحد البنوك الخاصّة المرموقة، أصبح دافعي الآن أن أثبتَ جدارتي، لكن قبل كلّ شيء «أرتبط بسمر».

جدّتي سعاد هي قدوتي في الحياة، تلك الأرملة التي تحملت الصعاب في حياتها، كانت بمثابة الأمّ لأخويها، المحافظة المدلّلة لابنتها «أمّي فادية» الطيبة الحنون.

أبي المسالم الهادئ الذي يعمل في أحد المصانع في بورسعيد، يغيب عنا عشرين يومًا كاملة، ثمّ يأتي عشرة أيام أجازة قصيرة بمنزلنا في «شبرا». تمرّ تلك الأيام مرورَ الريح، يحتوينا أنا وأخي مصطفى، يغرس فينا الرّجولة وحب الخير، ويحصد البرّ، وصداقة أبنائه.

جدّتي كانت تأتينا محمّلةً بالخيرات، تؤنسُ وحدتنا في أيام معدودات، غالبًا تلك الزيارات ما تكون في غياب أبي الذي يعشقها، لكنها لا تحب أن

تكون ضيفًا ثقيلًا، على الأكثر يومًا واحدًا في وجوده إن حدث، حتى تترك له الحرية في بيته على حدّ قولها، ونحن وكأنّنا لا يحق لنا أن يجتمع الحسنيَين معًا (أبي وجدتي).

انتظرت لسنوات حتى يأتي حفلُ زفاف كي أرى سمر ابنة جدي الباشا.

منذ الحفل الماضي وأنا أرسم شجرة عائلة جدّتي المليئة بالأخوال والخالات الذين تتداخل عندي أسماؤهم.

منذ ما يقرب السنتين، جلست مع جدّتي في إحدى زياراتها، وأحضرت الألوان وكراسة الرسم، وقلت لها:

– لنْ أتركك حتى أعرف تلك التشعّبات العديدة في أخوتك وأولاد عمومتك، حتى يتسنى لي تذكّرهم، وألا أقع في هذا الخطأ الدائم عند زيارتهم.

أخذتْ في تفنيدهم لي، هذا فلان وتلك فلانة، وأنا كمحقّق هدفي واحد وأسئلتي تصبّ نحو هذا الهدف.

«مَن منهم أو منهنّ على مشارف سنّ الزواج، حتى تقام الأفراح وأقابل سمر من جديد؟!»

من المعلومات التي استقيتها عرفتُ أنّ العرس القادم سيكون بعد سنتين على حسب السنّ المعهود والمتوقّع لديهم في الزواج. سنتين لن أراها، كم هم كُثر!

الآن، وبعد مرور هاتين السنتين، بات الأملُ ينتظرني على الأبواب، فما هي إلّا أيام وأراها من جديد.

منذ آخر حفل والحفلات السابقة منذ الصغر، وأنا أتَحيَّن الفرصة تلو الأخرى لرؤيتها. أتمنّى أن أراها ليل نهار، وأن تطول أيام الفرح وتصبح شهورًا. وفي الحفل التّالي الذي يليه، أرى بنتًا أخرى ليست كسابقتها، الطفلة تكبر وتصبح بنتًا وأنا قلبي يزداد ولعًا وشوقًا.

في تلك اللقطات التي أراها فيها كلّ مرة، تزداد تألقًا في عيني. أخزن كلّ تلك الصّور في ذاكرتي لجميع مراحلها السنية، وأعيش على الذكريات حتى أعاود رؤيتها من جديد.

حتى وقت قريب، وقبل زيارتي المُختلقة أنا وأخي مصطفى لهم بدمياط، لم يكن لي علاقة مباشرة بجدّي الباشا، كان يراني ضمنَ زمرة الأطفال الكثيرين الموجودين، لكنّه لا يعرفني شخصيًّا. لم يختصنا بزيارة أو نختصه نحن، فقط ألتقيه في المناسبات التي كنّا فيها كأطفال أكثر من حلوى الْفَرَح.

لم أصرّح أو حتى ألمّح لسمر بما يختلج به صدري؛ لكنّي في هذا الحفل لن أتركها حتّى أخبرها بأني أحبّها، أو على الأقل أكلف مَن يفعل ذلك، لا سيّما أنني بتّ الآن أمتلك وظيفة وقدرة إلى حدّ كبير على إتمام الزواج.

لم يشفع لي تقديري العالي وحده للعمل داخل البنك، كان لا بدّ من تدخل تلك الواسطة اللعينة لتدعمني.

تولّت جدتي ذلك عندما ذهبت لخالي رشاد ووالدته في إحدى زياراتها لنا في القاهرة، وطلبت منها أن يتدخل خالي رشاد لتوظيفي.

لم تجمعني بخالي مناسبة واحدة، بالكاد كنت أعرفه، فدرجة القرابة بعيدة إلى حدّ ما، لكنّي صرت محبًّا له، حاملا لجميله، أتساءل.. هل لو واتتني الفرصة أنتهزها وأطلب يدَ سمر؟! أم يفهم حينها أنّي طلبت الوظيفة ثمّ النّسب الآن، وأكون في نظره انتهازيًّا؟!

فليكن ما يكون، إذا لمحت في عينيها فقط القبول، فهنيئًا لي كلّ الألقاب في قربها حتى وإن ساءت.

***

الطريق إلى قرية كُتامة

طيلةَ الطريق من دمياط إلى قرية كتامة بطنطا، وسمر وسها يتسامران، يسترجعان ذكرياتهم مع العائلة. وفي خضمّ حديثهم قالت سها لأبيها:

– سنبدأ أوّلًا بزيارة خالي صفوت.

أبدتْ سمر توافقها مع رغبة أختها، بينما بدت علامات الانزعاج على جلال الذي أجابهم بحدّة:

– فلنجعل زيارة خالكم في طريق عودتنا من كتامة، بالفعل نحن متأخرون عليهم.

تداركتْ سمر غضب أبيها النادر، فلطفت من الأجواء قائلة:

– أصبت يا أبي، خالي سيتفهّم ذلك، وسيفرح حين ندخل عليه بالكعك الذي حتمًا ستمدّنا به طنط سعاد.

وقعت كلمة أبي وقعَ المرارة في الحلق لجلال، ربط مدى الشعور الذي يوليه لسمر ومدى التجهّم والمنغّصات التي دائمًا ما يلقاها من خالهم صفوت.

تزوّجَ جلال ميرفت، وكان بحوزتها بنتٌ لها من زوجها السابق هي سمر.

كانت سمر لا تزال تحبو حينما تزوّج جلال أمّها، احتضنها واعتبرها بمثابة ابنته التي لم ينجبها، حتى عندما رزقه الله بسها لم يتغير شعوره نحوها.

بعدَ موت ميرفت، كان جلال بمثابة الأب والأمّ لها ولأختها، عكف على تربيتهما ونسي الارتباط، اللهم إلّا مرّة واحدة، حاول فيها الرجوع لوداد بعد نصيحة سعاد ابنة عمّه له بأن يحتضن البنتين ورشاد في بيت واحد؛ إلّا أن وداد رفضت وبشدة، بعدها قرّر أن يكون أولاده هم شغله الشاغل، وأنه لا حاجة له بالزواج.

لم يوافق يومًا صفوت على زيجة أخته من جلال، ساق من العراقيل ما يحول بينهما وبين إتمامهم للزواج.

بعدَ موت ميرفت حاول صفوت أن يأخذ سمر لتعيش في كنفه وتعوّضه عن عقمه، إلّا أنّ جلال أصرّ أن تعيش معه، وكانت وصية ميرفت ورغبة سمر سندًا لجلال في إبقائها معه، منذ ذلك الحين- وعوضًا عن بعدهم عنه- يرسلهم جلال في زيارات قصيرة في أوقات فراغهم لخالهم صفوت.

لا يسلم جلال حينما يذهبُ لإحضارهم من الكلمات المستترة الجارحة من صفوت، التي يستقيها من قناعاتٍ لديه بكرهٍ تامّ لشخص جلال، تارةً يُلمح إلى أن ثروته الحالية هي ملكٌ لبنت أخته، وتارةً يتّهمه بالضعف، وأخرى يذكّره ببعد ابنه عنه، وأنّ عقمه أهون عليه من ذلك.

آخر تُرَّهاته أنّ سمر قد كَبُرت، وأنه من الواجب أن يفصل بينهم، فلم يعدْ من الجائز أنْ تعيش مع جلال في بيت واحد، فإمّا أن تأتي لتعيش معه أو أن تتزوج من ابن أخت زوجته الطبيب الذي ينتظره مستقبل مشرق.

سرحَ جلال بخياله في ماضيه، بينما كانت سها وسمر يتأمّلان الطريق، النساء في التّرع وهنّ يغسلن الأواني، الرجال يجلسون على رؤوس الأراضي

وأكواب الشاي في أيديهم يستظلّون بظلّ الشجر، نسمات الهواء الصافية والحياة البسيطة الهادئة التي ينعم بها الريف المصري، هذا الطريق غير الممهّد الذي يجبر السيارة على الهدوء، فيستزدن ويرسمن جمالَ ما يرون في مُخيّلتهن.

***

على جانبٍ آخر، وبعد انتهاء ساعات العمل الرسمية ليوم الأربعاء في البنك، اتفق رشاد مع عمر أن يصحبه معه إلى كُتامة.

لم يكن رشاد ينوي الذهاب إلى القرية، كان قد اتفق على سيارة تُقلّ أمّه وتعود بها إلى القاهرة بعد أن تحضر تلك المناسبة التي أصرّت على الذهاب لها كعادتها في تلبيتها لدعوة أقاربه.

عَدَلَ رشاد عن قراره بعدما جاءه عمر مستأذنًا أنه سيتغيّب غدًا لحضور تلك المناسبة، فوافق له رشاد وأخبره بأنها فرصة ليذهبَا سويًّا.

في الطريق، تخلّى رشاد عن طبيعته الجادة في العمل، وأبدى عمر سعادته بتلك الصحبة مع خاله رشاد، وأخذ يشاركه الذكريات السعيدة التي تربطه بالقرية ومدى عشقه لها.

تحدّث عمر كثيرًا، بينما رشاد غارق في تفكيره، يُسقط كلام عمر على نفسه، ليجد أنّ السعادة التي يحياها عمر عندما يتحدّث عن القرية، ما هي إلّا كوابيس بالنسبة له.

ذكرياتٌ سيئة جمعته بتلك القرية، عاش فيها مرغمًا، إلى أن سنحت الفرصة ليخرج من جحيم ذكرياتها.

خرجَ منها ولا يحبّ العودة إليها، رغم علاقته الطيبة بأعمامه؛ إلّا أنه دائمًا ما يسوق الأعذار في مناسباتهم، حتى لا يلتقي والده ولو صدفة.

رشاد حريصٌ على ألّا يعرف أحدٌ من زملائه في العمل شيئًا عن حياته الشخصية، يعرف جيدًا كيفية إبعاد سهام النقد أن تنال منه؛ لكنه في الوقت نفسه يتألم من ذاك الاختزال لمآسيه وكتمها في صدره.

آلَمه حديث عمر عندما ظلّ يُعدّد في صفات أبيه قائلا:

– جدّو الباشا يتمتع بقلبٍ نقيّ وطيبة واضحة، أرى أنك ورثت منه الكثير في طيبتك ودماثة أخلاقك.

يزداد ألمُ رشاد ويَنْقُم أكثر على أبيه الذي حرمَه أن يعرف صفاته كما يعرفها سواه، يُلقي اللوم كله عليه.. وعليه فقط.

أمّا عمر فقد أمسك لسانه أكثر من مرّة عن التحدث بشأن سمر، إلى الآن لم يعرف أنّ سمر ليست بأختٍ لرشاد، سقطت تلك المعلومة في استجواباته لجدته سعاد التي لم تُخبره بأنّ سمر ابنة زوجة جلال وليست بابنته، لم يطرأ له هذا السؤال على بال.

أمّا دافعه الحالي في عدم الخوض في نيته، وانتهاز فرصةٍ ندرَ وجودها بالتواجد عن قرب من خاله رشاد في التحدّث خارج أُطر العمل؛ هو عدم تأكده من مشاعرها تجاهه، وتفضيله أن يأخذ بوادرَ القبول منها أوّلًا، ثمّ ليُحَدّث أخاها وأباها وجدها في قبره.

***

مُجمع الصدقة الجارية

في مكان شعبيّ في وسط القاهرة، كان هذا المجمع الطبي، الثقافي الرياضي، شامخًا وسطَ المباني المجاورة.

هذا الصرحُ الذي تبرّع به مجموعة من رجال الأعمال ويتولى الإشراف عليه لواء متقاعد سيد حنيش، والذي يتولى أمر قيادة هذا الكم الهائل من الأنشطة في شتى المجالات.

حنان تعمل في العيادات الطبية بقسم التخاطب وتعديل السلوك.

طبيعة تخصّصها في مجال الطب النفسي والدورات المختلفة التي حصلت عليها بعد التخرج في شتى المجالات، والتي أهّلتها لأن تتولى الإشراف الإداري الكامل على العيادات.

يشيد اللواء سيد بمجهودها المضني، وانعكاس ذلك على العيادات التي تشهد انضباطًا وربحًا يفوق باقي خدمات المجمع، رغم أن قيمة الكشف رمزية جدًّا، وفي بعض الأحيان مجانية.

كلّما مرّت حنان في مرورها المتكرر لتتفقد طبيعة العمل وشكوى المرضى ومحاولة تذليلها والحرص على النظام التّام، تواجه- وبصدفة مقصودة- الطبيب محمود الذي يأتي متطوّعًا في يومين أسبوعيًّا للكشف في المجمع بأجر رمزي.

يُوليها محمود نظراتِ الإعجاب؛ إلّا أنّ حنان لم تكن تعافت من صدمة حسن بعد.

تدركُ حنان ماهية تلك النّظرات والإعجاب الظاهر الجلي إلى أن تحدث معها محمود مباشرة في هذا الأمر، فكان الرفض المهذّب، والردّ السريع هو الإجابة التي تلقّاها محمود في أسرع ردّ فعل واجهه في هذا الصدد.

آلَمَ محمود رفضُ حنان السريع، لكنّه تقبّل رغبتها وتعامل معها كأنّ شيئًا لم يكن.

لكنّ فاتن- السيدة الخمسينيّة، وخالة محمود، التي تعتبر مديرة الأنشطة الثقافية والرياضية، والتي عندما علمتْ من محمود خطوته المتسرعة دون طلب مشورتها وصدّ حنان السريع له- زادَ حنقها على حنان، فما من فرصة أمامها لتوجّه لها نقدًا إلّا وفعلت.

ظلّت حنان ترفض كلّ مَن يتقدمون لخطبتها، والذين بدأ يقلّ عددهم تدريجيًّا حتى تلاشت تلك الزيارات الحمقاء على حدّ قولها، فأصبحت تُكرس حياتها لعملها فقط.

***

(٥)

حفل زفاف

مسرح الأحداث، ستتلاقى وجوه، وتعاد ذكريات سعيدة لبعضهم مؤلمة لآخرين، ستتولّد شرارة الحبّ في قلوبٍ ظنّت أنها سُكِّرت، ولن تقترف من الحب منهله، ستنهش الحيرة قلوبًا أخرى وتضعُها في اختيار بين واقع لا بدّ من احترام قواعده وحلم بلا قانون أو قيود.

ذهب رشاد إلى أمّه واحتضنها كأنها غابت عنه لشهور ليس لليالٍ معدودة. فرحت برؤيته، وما هي إلّا ساعة اتّخذ من مخدعه القديم راحة لجسده جرّاء عناء السفر، إلا وكانت قد حاوطته بما لذّ وطاب من الطعام، ثمّ قالت له:

– عمّتك سعاد جاءت لي من يومين بعدما علمت أنّي قد وصلت، لتؤكد على حضوري لحفل الزفاف غدًا، وألّا أكتفى بالتواجد اليوم فقط، وأبدت أنها ستحزنُ إن لم أفعل ذلك، لا سيّما وأنها قد وجّهت الدعوة لي مرتين، مرة حين حضرت لنا خصيصًا في القاهرة ومرة هنا.

– وهل ستذهبين؟! (سألها رشاد).

– تردّدت قبل مجيئك، عقدت النية أن أذهب لدقائق الليلة في الحنة مودعة مظروفًا ماليًّا ثمّ أغادر سريعًا متحجّجة بأنّ السيارة التي ستنقلني إلى القاهرة في انتظاري.

- والآن!!

بأسلوب استنكاري حثّها رشاد على الدخول في صُلب الموضوع، فأزاحت رغبة مكبوتةً في صدرها قائلة:

- أريدك أن تأتى معي!

- أتعلمين يا أمّي، قرأت ذلك في عينيك ونحن في القاهرة، تمنيت لو كان باستطاعتي تحقيق رغبتك آنذاك، لكنْ بعد أن جاءني عمر ابن فادية طالبًا الإذنَ منّي للتغيب عن البنك لحضور الحفل، إلّا وقد أحسست بأن رغبتك تفرض نفسها لتلبيتها.

فرحتْ وداد، لكمْ تمنّت أن تطوف بابنها ذي المركز المرموق "نائب المدير" جنبات القرية، تتباهى به وسط أقاربها وجيرانها، تنعتُه "بشمهندس رشاد"، تُصدِّر رسالة للجميع عن حُسن تربيتها وجزاء صبرها، تُري جلال أنّها حافظت على البيت، وهو مَن هدمه، وهذا هو ثمرة تضحيتها.

***

في البيتِ الكبير الذي يجتمع فيه القاصي والداني، كان جلال وابنتاه كالجوهرة وسط عقد الحاضرين، الجميع يبتغي رضاهم. سمر وسها جُلّ وقتهم مع فادية التي جاءت هي وزوجها وابنها مصطفى منذ خمسة أيام، تاركةً ابنها عمر الأكثر شوقًا للحضور والذي سيأتي الليلة، حيث حالت ظروفُ عمله في البنك بينه وبين رغبته الجامحة في الحضور مبكرًا. تُعتبر فادية بمثابة اليدِ اليمنى لأمّها سعاد في تنظيم كلّ شيء.

كعادتها سمر أن تنفردَ بنفسها، تمرّ بالحديقة الشاهدة على مراحلها العمرية في زياراتها لهذا البيت، كلّ شجرة أو نبتة منها لها حديث خاصّ معها، هذه النخلة الصّغيرة والتي أسمتها على اسمها، ورغمَ قصرها كانت ومازالت عامرة بالبلح. مازال المكان يتمتّع بصفائه، يحتفظ بشواهده على الماضي من تلك الساقية التي مازالت تدور ويتدفّق الماء خلالها إلى ماكينة الماء التي تُصدر صوتًا يبعث على الحياة، مرورًا بهذا البيت القديم المجاور للبيت الكبير الذي مازال موجودًا محتفظًا بكنوزه من فرن بلدي وغيّة للحمام، ودور ثانٍ من الطوب اللبن مليء بالأرانب في محبسها الحديدي.

طافت على البيت وما يحوي، تفقدت محتوياته كلّها وكأنّهم أملاكها، تتفحصهم بعناية وتنْقم إن وجدت تَبَدُّلا أو نقصًا.

ما إنْ جاء عمر إلّا وقد أخذَ يبحث عن سمر بين خضم الموجودين.

أثبتَ حضوره لدى أجداده وأقاربه أولًا، ثمّ ذهب ليستدلّ على مكان سمر، بالطبع جدّته سعاد محرّك البحث الأعظم لديه هي مَن أرشدته إلى مكانها. علم أن والدته والبنات والأطفال يجلسون على سطح المنزل يستمتعون بسكون الليل بلا أي وسيلة من مُلهيات العصر، أسدلوا ستارًا على التلفزيونات، وأُغلقت الهواتف الجوالة، واستدعوا كلّ ألعاب التسلية القديمة، هذا هو أكثر مظاهر الجمال التي ينتظرها الجميع.

ارتقى درجات سلّم البيت بطوابقه الثلاث قفزًا في خطوات معدودة، وما إن أصبح على مرأى من الجميع، حتى نال الخجلُ منه، فتلقفته كلمات أمّه الجالسة:

– حمدًا لله على السلامة يا عمر.

أنقذته كلمات أمّه من ارتباكه الجلي، حين تلاقت عيناه بسمر الجالسة.

آهٍ.. ثلاث سنوات كاملة لم يرها، حتى في تلك الزيارة المُختلقة التي خطط لها هو وأخوه مصطفى لزيارتهم في دمياط لم تُسفر له عن رؤيتها، حظه العَسر أجلسه أربعَ ساعات كاملة مع جدّه الباشا في انتظار سمر التي طال غيابها، فغادر دون أن ينال رؤيتها.

الآن، هو أمامها وجهًا لوجه، بل هو محطّ انتباه الجميع.

زادَ ارتباكه حين تلقّت مسامعه كلمات مباركة من سمر له على عمله الجديد، واعتذرت لتأخر تلك التهنئة.

لو كان مُخططًا للقاء أن يكون في مثل تلك الأجواء الرومانسية العائلية، لَما تهيأت له الظّروف هكذا. أخذ يسرد ويلفت انتباهها قدرَ ما استطاع حتى انقضت الليلة.

***

صباح اليوم التالي استيقظ عمر مبكرًا، استطاع أن يختلس أمّه من جدته سيدة البيت الأولى، والتي نُصبت لدور القيادة من قِبل زوجتي أخيها واتخذت من ابنتها فادية ساعدًا أيمنَ لها، وما كانت لتتركها إلّا ليلًا.

أقنع عمر جدّتَه أنه يريد أمّه لدقائق معدودة، وما إن أصبحَا في معزل عن الجميع حتى فاجأها قائلًا:

– أمّي، حان الوقت لأخبرك أنّي أريد أن أتزوّج، وأنت كصديقة ليس كأمّ أول مَن أخبرها بذلك، كنت على وشك أن أحدّث أخاها أمس، لكنّي أردت أن أتأكّد من مشاعرها أوّلًا.

– تتزوّج! وتحدّث أخاها دون أن تخبرنا، ثمّ مَن يدريك، عسى ألّا تنال إعجابنا.

– لا تُعجبكم!! ها.. ها، وإن كانت سمر ابنة جدّي الباشا لا تنال إعجابكم فمَن عساها أن تنال؟!

– سمر! ومن أخوها الذي تقصده؟

– خالي رشاد.

– خالك رشاد! خالك رشاد ليس بأخيها، هي في الأصل ليست بنتًا لجدّك الباشا، هي ابنة زوجته ميرفت رحمها الله.

انعقد حاجبَا عمر، واختلطت أفكاره وتشوّشت، اقتربت أمّه وسألته:

– ألم تكن تعلمُ مسبقًا؟! أراكَ قد انزعجت، هل ستُغير تلك المعلومة من حساباتك؟!

– لا يا أمّي، فقط معلومة جديدة لكنها لن تؤثر في شيء، تذكرت فقط حواري مع خالي رشاد وحمدتُ الله أنّي لم أناقش معه هذا الأمر، والذي لربما كان يسبّب له بعض الحرج؛ أرجو منك يا أمّي أن تستطلعين رأيها بحُكم صداقتكما.

***

أسدل الليلُ أستاره، وتعالى الصّخب، وملأت الأضواء معظم أنحاء القرية.

دخل رشاد مُمسكًا بيد أمّه إلى هذا الفناء الواسع الذي افترشت أرضيته بالسجاد في كلّ موضع، وحين كان لزامًا عليها تحية السيدات وأن تترك رشاد، تحقّقت وداد من موضع جلال حتى يكون تحت مِجْهَرها.

دخل رشاد ملقيًا السلامَ على الجميع بمَن فيهم أبيه الذي احتضنه، لكنه الحضن الفاتر الخالي من المشاعر، لو رأى أحدهم افتعالها لظنّ أنّ العلاقة بينهما لا تشوبها شائبة، فجلال لا يشكو حتى لابنتيه، ورشاد يحكي قليلا ممّا في صدره ليسري فقط، هذا اللقاء تظلّ آثاره السلبية قابعة في النفوس لا تتخلص منها بسهولة.

جلسَ رشاد في أحد أركان الخيمة، وأخذ يهمس في نفسه:

– كان بالإمكان إرضاء أمّي بغير ذلك، لا أحب هذا الشعور.

أخذَ يجلد نفسه على موافقته أمّه في طلبها، ويلعن الظروف التي قادته إلى هذا المكان. لكنّ رأيه تغير فجأة، فبمجيء أخته سها مصطحبة سمر معها، تغير كلّ شيء.

مرّات قليلة هي تلك التي رأى فيها سها عندما كان يصحبها جلال معه في المناسبات السابقة، ويطلب من سعاد الوساطة لدى وداد لرؤيته، فيأتي رشاد على مضض، كلّ ما يربطه بسها بعد ذلك هي بعض المكالمات التي عادة ما يُجريها بعيدًا عن أمّه.

تقدّمت نحوه سها، ومعها سمر، خفق قلبه كما لم يخفق من قبل، أهو الحب من النّظرة الأولى؟! أهنا تُكسر أقفالٌ وصّدت وتخلق دافعًا للحياة

من جديد؟! قُطع إسهابه في رسم خطوط المستقبل بصوت أخته سها التي قالت:

– أقدّم لك سمر أختي، وهذا يا سمر أخي رشاد.

اختلجتِ المشاعر لدى سمر، اللحظات تمرّ عليها كالدهر، ما كانت سمر لتوافق على موقف مثل هذا لوْلا أنّ سها خدعتها بأنّها تريدها في شيء هام، وما لبثت إلّا أنْ رأت نفسها وجهًا لوجهٍ أمام رشاد، ثمّ فجأة وبدون مقدمات تحرّك قلبها ناحيته.

أمّا رشاد فقد أخذته الصدمة، فضربت مئات المعادلات اللوغاريتمية في رأسه لو فكّر بالارتباط بسمر، ووصلت لنتيجة واحدة «صدام قوي مع أمّه»، لكنه لم يستطع أنْ يجابه هذا السيل الجارف من المشاعر الذي اقتحم سدود قلبه، وأرداها أرضًا.

المكان يُشعّ بجمالها الذي أنار ظلمة الليل، هل لو كان قد رآها في القاهرة بين من هُم على نفس درجة جمالها سيكون ذهولُه هكذا؟! أم لأنّ المعركة هنا خالية فلا منافسات لها؛ فانتصرت.

لكنّ كلماتها البسيطة المليئة بالثقة في النفس، مع الحياء غير المصطنع، أجاب على سؤاله.

لم تجذبه واحدةٌ من قبْل كما فعلت سمر، خفق قلبه وحلق في الأفق.

استأذنت سمر، ثمّ انصرفت، ولحقتها سها التي حققت مُرادها.

تريد سها بتصرّفها هذا أن تقترب أكثرَ من أخيها، وطمأنة أبيها في كبره بلمّ شمل العائلة، وراحة تحسب السبيلَ إليها أن تمتزج العائلة بهذا الارتباط التي رأت بوادر لحدوثه من أول لقاء.

نهرتْها سمر على فعلتها تلك، ثمّ تركتها.

كلامُ النقد الصادر من سمر يخرج مغايرًا لما ينبض به قلبها، لأوّل مرّة تتملكها تلك المشاعر وتُلقي بها في شاطئ العشاق، يرسمن أحلامًا على الرمال يمحوها ماء البحر، فيعاودوا رسمها من جديد بدون زجر أو ملل.

أرادت سمر أن تشارك ما تشعر به مع أحد، وبالطبع ليس لديها أقرب من أختها سها، لكنها تذكرت ما فعلته، فقالت لنفسها:

– تبًّا لك يا سها، لن أُشعرك بنجاح خطتك في ليلتها الأولى.

وهي في خضمّ تفكيرها جاءتها فادية؛ فرحتْ سمر برؤيتها، وهمست لنفسها قائلة:

– من الممكن أن تكون طنط فادية هي صاحبة هذا السبق، لكن كيف لي أن أخبرها؟!

امتدحت فادية سمر قائلة:

– أنتِ مثل القمر الليلة يا سمر، محظوظ هو مَن ستكونين أميرةً لمملكته.

أجابتها سمر:

– لا تبالغي يا طنط، أنتِ فقط من تمتلكين عينين جميلتين ترى كلّ شيء جميلًا.

– سمر، لا أحبّ التلاعب ولا أتقنه، الحقيقة أرسلني عمر ابني ليتحقق من مشاعرك، حتى يتسنّى له التقدم لخطبتك بشكل رسمي.

– عمر!! (بأسلوب استنكاري نطقت سمر).

أسهبت سمر في لحظاتٍ من التفكير، همست لنفسها خلالهم قائلة:

– أهكذا لم تمنحيني الفرصة أنتِ الأخرى يا طنط لأُشاركك مشاعري الأولى، عمر!! لم أنظر إليه يومًا كزوج.

دارتْ كلّ تلك الأفكار في رأس سمر قبل أن تجيب على فادية بقولها:

– لقد فُوجئت بعرضِك يا طنط، أريد وقتًا أبلغك فيه بجوابي.

***

الانفجار بعد الكتمان

سأنفجرُ يومًا ما مُلقيًا بهمومي في أحضان أوّل مَن يهمّه أمري، سأتخلى عن ذاك الجمود، وأطلق العنانَ لدموعي أن تنطلق من محبسها، وللساني أن يشكو ويتكلم، ولقلبي أن يئنّ، سأفعلها ولو لمرّةٍ واحدة ثمّ أعود لتصنّعي وجمودي، سأُحرك ساكنًا وأتألم، وأدعُ جرحي ينزف ولن أداويه بنفسي، سأفقد تلك الهيبة، وأرثى حالي وأتقبّل العزاء.

انتهى العرس، وذهب كلّ إلى مخدعه.

دخلَ جلال غرفته باكيًا، نجحت وداد في أن تجلده بسوطها من جديد، وصلته فحوى رسالتها «ابنه ذو الخمسة والثلاثين ربيعًا يقابله كالأغراب»، يسمع نصيحة من حوله بأنّه لا بدّ من البحث له عن عروس، وهو آخر مَن يجرؤ أن يتحدث في ذلك.

ابنُه يحتضنه بجسده، ويهرب من أن تلتقي أعينهما، فقلبُه غائب، قاس عليه كقسوة الأيام.

دقّ الباب برفق لتدخل سمر، أرادت أن تستلهمَ منه دربًا من دروب حكمته.

دخلتْ لتجده في حالٍ لم تشهده من قبل، يزفّ الدموع منكسرًا، ربّتت على كتفه، سألته عن سببِ بكائه.

انطلقت منه الكلمات بغزارة سيلٍ عَرم، أخذ يُخرج ما حدثته به نفسه وأمسك لسانه عن النطق به.

انتفضَ الطفل بداخله لمّا تراءت أمام عينيه، دغدغت بصوتها السرمدي ذرات الخجل المتناثرة على وجنتيه، فسرد وبكى، فتح قلبه وحكي، ويكأنّ الثقة قد انفرط عقدها، وتجمّعت في أذنيها، يصبّ شكواه لَمن كانت له بنتًا بقلب بريء طاهر انتزع جمال الدنيا من داخله.

سبّ وداد مئات المرات، وتمنّى أن لم يكن بينهما لقاء. كَمْ تحمل سخافاتها، حتى بعد الطلاق، نجحت في وأد أيّ خيط بينه وبين ابنه، حتى جعلت منه جامدًا كالصخر في جفاء مشاعره.

لعنَ نفسه وسلبيته وخنوعَه لكلّ ما تبغاه مستمرًّا في تلبية رغباتها حتى بعد انفصالهما.

لعنَ هذا المكان الذي كان يرتاده لرؤية ابنه، وكم أنّ تلك الساعات رُغم انتظاره لها، تمرّ بطيئًا كجبل جاثم على صدره يتهدل برفق.

لعنَ خنوعه وتفريطه في حقوقه، وكيف أنه لم يحرّك ساكنًا في إرادتها، إلى أن وصلَ لهذا الجمود الذي يراه في عيني ابنه.

لعنَ ابنه، لم يُريه شرًّا قط؛ لكنّ أمّه رسمت له كيف تكون هي حبه الأوحد.

جلستْ سمر، أراحت وجهها بين كفيها، وحدثت نفسها: أهكذا تكون الدنيا وقسوتها؟! أفي أول يوم يخفقُ فيه قلبي، تباغتني بلعناتها!

ثمّ نطقت بكلماتٍ بسيطة تُهدّئ فيها من روْع جلال، تعلم أنّ كثرة الكلمات لا يحتاجها، بل هو يريد فقط من يُصغي لشكواه.

***

في جوف الليل، لم يستطع رشاد أن ينمْ ليلته دون أن يخرج ما في صدره، لا يدري سرّ انجذابه السريع ناحية سمر، تذكر أمّه وحديثها عن السحر الذي فعلته أمها لأبيه.

هل وقع في براثن حبّها بسحر نافذ؟!

أمسك جوّاله، أخذ يعزف على شاشته كلّ ما خالجه من مشاعر في ليلة ولادتها، اختار المرسل إليه «سها»:

– "أهديتني الليلة هديةَ العمر، الطهر الذي يسري في مجراه، أضاء لي الكون بعدَ ظلمة الليل، جعلني أتنفّس طعم السعادة الحقيقية، ويستنكر عليّ أن أعيش سواها، استطلعي رأيها في أن أكون فارسًا لأحلامها»

ضغطَ على زرّ الإرسال، ثمّ نام ليلته ضاربًا عرض الحائط بأيّ هاجس سلبي يُعكر صفوه.

***

(٦)

آدم

ما هذا الهمّ الذي بداخلي؟ لا أنجرف نحو الخطيئة فحسب، بل أهيّئ لها دربَ تمكّنها منّي.

أهذه هي الحياة التي أنشدها؟! أهذه هي القيم التي غرسها أبي بداخلي؟! أشعر بأني أزداد تفككًا، فقدت السيطرةَ على رغباتي فتشوّشت، ولم يعدْ يشغلني بأي طريقة سأحقّقها. رغباتي الدنيئة تلك، أبعدها اللهُ عنّي، لكنّي لا أملك مجابهة نفسي الضّعيفة، فأفتش عنها بكلّ ما أُوتيت من قوة.

مضى شهرٌ كامل على اختفاء سلامة، فانقطعت السبلُ نحو ما رسمته من أحلام، وأملٍ كبير في تحقيق أهدافي في ضوء الدخل العالي الذي كان يدرّه عملي معه.

ما كان يوكله لي من مهامّ رغم غُموضها، إلّا أنها كانت بسيطة وينحصر كلّ المجهود الذي أبذله فقط في الذّهاب والعودة إلى دمياط، وفى مكان ما بدمياط، أقابل أشخاصًا أسلمهم ما بحوزتي من أدويةٍ وأستلم ما لديهم، في كلّ مرّة يكون المندوب الذي أقابله غير الآخر، ولا يظهر من سمتهم أيّ بوادر سيئة.

قلّة حيلتي واعتيادي على مصدر دخلٍ من تلك الزيارات منعَا عقلي من التفكير في طبيعة تلك الأدوية، ثمّ ساورني الشك «ما طبيعة هذا الشيء

الذي أوصله وأتقاضى لأجله الكثير؟!»، اتّضح لي بعد فترة أنّها ما هي إلّا أدوية عادية، ثمّ عرفت لاحقًا أنّي تحت مجهر سلامة، يختبرني ويرى قدراتي وإمكانياتي إلى أن يتيقن من صلاحيتي لهذا العمل. سألني ذات مرّة:

– هل تجري معك الأمور على ما يرام؟

فأجبته:

– الموضوع بسيط للغاية.

فقال لي:

– لكنّه لم يعد كذلك.

وجدتُ الحديث تلك المرّة يختلف عن طبيعة حواراتنا السابقة؛ حيث كان الحوار يملؤه الجدية ونوعٌ من المكاشفة.

– ولِمَ؟ (سألته مستفسرًا).

– أحسست أنك سريع البديهة عن ذلك، لولا أنّي بحاجة إلى أن تحتاط أكثر لَما أخبرتك.

– ماذا تريد أن تقول؟

– انتبه لنفسك فقط، وأنت ...

– وأنا ماذا؟! هل الدواء الذي أنقله ممنوعٌ تداوله؟ (قاطعته، قبل أن يُتم كلامه).

– نعم، شيء من هذا القبيل.

– كثيرًا ما فكرت في ذلك، كان حريّ بك أن تخبرني من البداية حتى أحتاط.

– مازلنا في بداية الأمر، والقرار بيديك.

– قرار! عن أيّ قرار تتحدث؟ هل تتخيل أن أجد عملًا يعطيني نفس الراتب الذي أتقاضاه معك؟! لقد رتّبت كلّ أموري على ذلك، كان يساورني الشك، لكنْ لم أتخيّل يومًا أنك وبما أكنّه لك من احترام، وبما ظهر لي من دماثة خلقك؛ أن يكون هذا هو مصدر رزقك.

– أرجوك، لا داعي للتجاوز، الترامادول ما هو إلّا عقار طبّي مسكن للألم، فهو علاجٌ ضروري للعديد من الأمراض، أهمّها أورام الجهاز الهضمي وكسور العظام الشديدة والسرطان والانزلاق الغضروفي، والكثير من الأمراض التي لا يصلح معها سوى هذا المسكّن القوى، بل علاج لا بديل عنه في بعض الأحيان.

– إذًا لماذا تُحذرني؟!

– نتيجة أنّ بعضًا من منعدمي الضمير أساؤوا استخدامه؛ فتعرض كلّ من يعمل في هذا المجال لنظرة مشينة من المجتمع.

– ولِمَ تُعرض نفسك لتلك النظرة؟!

– لست بصدد الدفاع عن نفسي، فنحن فنّدنا كلّ تلك التساؤلات قبل إقدامنا على هذا العمل.

- نحنُ! على مَن تعود كلمة نحن؟

تردّد كثيرًا قبل أن يُلقي بمعلومة لست أدرى مغزي إخباري بها.

- حسن معنا.

- حسن!!

***

حنان

لم يشغل حنان كلّ ما يجري في حياتها من أحداث كانشغالها بحالة ياسين.

طفلٌ يبلغ من العمر تسع سنوات، هو من المتردّدين عليها في العيادات لتفحص حالته، عقله يفوق عمرَه بكثير، يتلعثم في بعض الحروف، يُصاب بتشنجات حرارية لم يقف لها الأطباء على سبب واضح حتى الآن.

جاءت أمّه في زيارتها الأسبوعية، انفردت حنان بالطفل كعادتها، ثمّ لاطفته بقولها:

– ياسين، كيف هو حالنا اليوم؟

انتظرَته حتى يجيب؛ لكنّ ياسين لم يتفوّه بكلمة. أخرجتْ هدية كانت قد أحضرتها له خصيصًا، تقبّلها بصعوبة، حالته في تلك الزيارة أشدّ صعوبة من أي مرة مضت، أصعب حتّى من تلك الزيارات التي كانت في بدايات تفحصها لحالته.

فتحتْ له الهدية والتي كانت عبارة عن لعبة صغيرة تسمى يوسى ماس لتنمية مهارات التعلم والحساب الذهني لدى الأطفال، أخذ يقلبها بين يديه ثمّ قالت له:

– سأخرج فقط خمس دقائق أقضي أمرًا ما بالخارج، ثمّ أعود ريثما تُخمن طريقة استخدامها.

اتجهت حنان صوب أمّه قائلة:

– حالة ياسين اليوم مختلفة، ماذا حدث له الأسبوع الماضي؟

أجابت أمّه:

– لقد عاودته التشنجات الحرارية، ذهبْتُ به مسرعة نحو طبيب المخ والأعصاب المتابع لحالته، زاد له في الجرعة التي يجب أن يتناولها، وطلب بعض الأشعة والتحاليل، وأن يتمّ حجزه في المستشفى يومًا واحدًا.

في هذا اليوم جاء أبوه لزيارته، فحدثت مشادة بيني وبينه وقعت مسامعه على بعض منها.

سحبت حنان مقعدًا ثمّ جلست عليه والألم يعتصر كلّ جزء فيها، لم تشعر بنفسها وهي تُلقي باللوم الجارف على أمّ ياسين بقولها:

– ما ذنب الطفل في أن يكون ضحية لأب وأمّ لا يُقدرا قيمة امتلاكهما لجوهرة ثمينة بين أيديهما؟! ما ذنب طفل كهذا أن تشوّها حياته بأفعالكما؟! ما ذنبه في انفصالكما وأن يتحمل هو تبعات هذا الانفصال؟!

أخذت حنان تسترسل في صبّ جام غضبها على والدة ياسين، والتي رغم قوة شخصيتها، تقبّلت هذا النقد اللاذع. هدأت حنان ثمّ دخلت إلى ياسين، لتجده مازال ممسكًا باللعبة بين يديه كما أسلمته إياها.

بدأت حنان في عرض فيديوهات له عن بعض الطلبة من الصين وجنسيات أخرى برعوا في استخدام تلك اللعبة، وسرعة إجاباتهم عن بعض العمليات الحسابية الكبيرة. هنا بدأ ياسين ينجذب تدريجيًّا ويزداد تركيزه مع حنان، والتي لم تصرّ عليه في متابعة الفيديوهات، فبدأ ياسين في فتح اللعبة، وأخيرًا تحدث قائلًا:

– أريد أن أتعلمها.

(٧)

الربيبة

انقضتِ الليلة العامرة بما تحمله من أحداث صاخبة، وكلام بين السطور، كلام وجدَ من صدور أبطاله مخبئًا له، بعضهم لم يتحمله علىً غير عادته، مُلقيًا به على آذان صغتْ بعناية لكلّ حرف فيه، رغم أن تلك الآذان هُيّأت للنّقيض تمامًا. وبعضهم عاد به الزمان لمراحل تخطّاها لينغمس في ملذاتها.

في اليوم التالي للعُرس، وفي الصباح الباكر حيث ولادة فجر جديد بنسمات رائعة وبسكون يخيّم على المكان. هَمَّ جلال أن يغادر، استوقفه ابن عمّه عبد الحميد طالبًا منه أن يظلّ معهم ولو لليلةٍ إضافية، لكنه رفض متعلّلًا بأعماله في دمياط، وأنه مازال ينتظره زيارة لخال البنات.

لم تكنْ سمر وهم في طريقهم لزيارة خالها بقرية «نجريج» المجاورة لقرية «كتامة» بنفس السعادة التي كانت عليها حال مجيئها لكتامة.

هي الآن في صراعٍ نفسي رهيب، بين اختيار بين رجلين، وفي نفس الليلة.. أفكار اختلطت فيها مشاعرها.

عمر الذي عاصرته في كلّ مراحله السنية؛ طفلًا، فشابًّا، فرجلًّا في لقائهما الأخير، وحبّه لها الذي لم تظهر لها بوادره طيلة عمرها.

ورسالة من رشاد نقلتها لها سها فورَ وقوع عيناها على هاتفها. رشاد الذي خططت سها في لحظات لهذا اللقاء، ونجحت في استدراجها لهذا الحب، تعرف سها صفات رجلِ أحلامها، ومَن عساه أن يعرف غيرها؟ لو أنّها أعلمتها بخطتها لأزاحت عن صدرها، وشاركت معها حيرتها، لكنّها لا تزال غاضبة من مفاجأتها.

جالَ بخاطرها أنها سِيقت كبضاعة لتجذب أنظارَ المُشتري، الذي ما لبث أن لمعت عيناه في غضون ساعات. وفي نفس الوقت تخيلت أنها سندريلّا، والتقت الأمير، ليفوزَا معًا بالحياة الهانئة.

لكنْ مَن هذا الأمير؟!

رشاد! هذا الرجل المكتمل المصحوب بهيبةِ واحترام الجميع.

لم تدخل يومًا في تفاصيل علاقة جلال بابنه، ولم تسأل عن ذلك؛ لكن هذا الابن وبلا شواهدَ مسبقة، أصبح بطلًا لليلة المصير، ليلة من أصعب لياليها على الإطلاق، فكان لقاؤه بها بمثابة صدمةٍ لقلبها بتدبير من أختها، وكان أيضًا محلّ شكوى ولومٍ جارف ودموع سالتْ من أبيها لجفائه.

ثمّ جاء دورُ العقل ليُلقي بما يملك من منغّصات على هيئة أسئلة:

- ما شعور أمّه وداد نحوها؟!

- هل ستتقبلها كزوجة ابن؟!

- هل ترى فيها صورة لأمّها؟!

القلبُ يسأل، والعقل يجيب بسهولة وأدلّة دامغة. ثمّ تتبدل الكرة، فيسأل العقل؛ لكن هنا يتغافل القلبُ ويهرب من الأسئلة التي تمزقه.

انتقلَ تفكيرها لعمر، أكانت كلّ تلك النظرات منذ الطفولة حبًّا لها؟!

تذكّرته حين اقتحم جلستهم أوّل أمس، ومدى الارتباك الذي أصابه، أكان ذلك بسببها؟!

هنا، لم يستطع العقلُ أن يغابن القلب، فكان لكل سؤالٍ من أسئلته جوابًا.

هدأ تفكير سمر رويدًا عندما أشرفت السيارة على الاقتراب من منزل خالها صفوت.

التّرحابُ يملأ المكان، خالها وزوجة خالها وكلبهم بولمان، كانوا على أهبة الاستعداد لاستقبالهم والحفاوة بهم، كلّ على طريقته.

كلّ أنواع الطعام لم تنقطع منذُ وصولهم، هكذا عوّدهم خالهم، حتى في تلك الأيام التي تأتي سمر وسها للإقامة بمفردِهما ليومين أو ثلاثة.

أحيانًا كثيرة تلمحُ سمر في عيني خالها أنّه يريدهما أن يبقيا معه دائمًا، ويكون إلحاحُه أكثر بالنسبة لها، كون أنّ سها لا بدّ أن تبقى مع أبيها، وأن تكون هي بوجودها في بيته روحًا تُحيي المكانَ الخالي من الحياة؛ هكذا كان تفسيرها، فخالها الرجل الغني الذي يمتلك أراضٍ وعقارات بالإضافة لفيلّا رائعة بالقاهرة لم يُرزق بالأولاد.

أسئلة دارتْ بخلدها بدون جواب واضح، لعلّ هذا هو سبب ضيق جلال من زيارته لخالها.

التفّوا جميعًا حول كلّ أنواع المكسرات، وهذا البرنامج الساخر، ووسط بعض الضّحكات التي غطت على مشاعر مدفونة، قال صفوت:

– سننتقل للإقامة الدائمة في القاهرة، لم تعدِ الإقامة هنا مرغوبة منّي ولا من زوجةِ خالكم، كما أنه لا بدّ أن نعيش في تلك الفيلا التي قاربنا أن نموت دون أنْ نسكن بها إلا لأيام قليلة، أظنّ يا جلال أنّه من الواجب أن تأتي سمر لتعيش معنا، سينتفي سبب رفضك بأنّنا في قرية، كما أن الأصول والشرع يقولا ذلك.

واصل جلال انتفاضته، وكأنه كُتب عليه أن يغيّر طبيعته الساكنة، كما أن أحداث ليلة أمس ألقتْ بظلالها عليه، فقال غاضبًا:

– لم أتخيل أنك ستثير الأمرَ مجددًا، وتلمّح لسخافاتك أمامها، سمر ابنتي، ربّيتها كما لم يفعل غيري، باشرت نموّها يومًا بيوم، ابنتي مثلها مثل سها وأكثر، لن تفارقني إلّا لبيت زوجها.

أخرج أوراقًا من حقيبة يده، وألقى بها على الطاولة ثمّ قال:

– اقرأ تلك الفتوى لعلّها تدفن سمومك.

فتوى بعنوان: الجنايات والحدود والكبائر[١]

السؤال: ماتت زوجتي ولي بنتٌ منها، ولها بنت راشدة من زوج سابق، ما حكم أن تعيش بنت زوجتي معنا في نفس البيت؟

الإجابة: لا حرج في عيش بنت زوجتك معكم فأنت محْرم لها، بشرط أمن الفتنة، فالرّبيبة في اللغة: هي ابنة امرأة الرجل من غيره مشتقّة من الرب، وهو الإصلاح؛ لأنّه يقوم بأمورها ويصلح أحوالها، والجمع ربائب. وفي اصطلاح الفقهاء: الربيبة: بنت الزوجة، وبنت ابنها، وبنت بنتها وإن سفلَا من نسب أو رضاع وارثة أو غير وارثة. والابن ربيب. والربيبة من المحرمات بشرط دخول الرجل بأمها، فإذا دخل الرجل بزوجته حرمت عليه ربيبتُه، سواء كانت في حجره أم لم تكن في قول عامّة الفقهاء.

امتقع وجه صفوت بعد قراءته للفتوى، ثمّ قال:

- وأنت تريدها كربيبة أم كمُدرة للمال؟!

خارت قوى جلال، لم يعدْ له من الطاقة ما يواجه كلّ هذا في ساعات قليلة.. هنا تدخّلت سمر قائلة:

- خالي، أرجوك، لم أكنْ أنتظر أن أسمع هذا الكلام ومنك أنت يا خالي، أبي جلال الذي لم أرَ في حنانه، أبي الذي لم أشعر بتفضيله حتى لأختي وابنته من صلبه يومًا.

---

(١) الفتوى صادرة من دار الإفتاء المصرية

نهضَ صفوت معتذرًا:

– هدّئي من روْعك يا سمر، هناك الكثير لأقوله في هذا الصدد، كلّ ما أريده أن تكوني معي، تُؤنسي وحدتنا، قد أكون أخطأت في تفنيدي للأسباب التي استقيتها لتحقيق رغبتي.. على أية حال، آسف يا جلال.

أجابه جلال:

– وأنا لن أتقبّل اعتذارك إلا بعد أن تُفسّر ما قلت وتعطي أدلة عليه.

هنا، تدخّلت سمر لتحتوي جلال من جديد قائلة:

– يا أبي، خالي صفوت لا يقصد شيئًا.

قال جلال غاضبًا:

– هذه ليست المرّة الأولى التي يُلقي فيها بمثل تلك الاتهامات، لقد قالها لي ولأمّك– رحمها الله– من قبل. خالك يا سمر يتّهمنا أننا استولينا على مال أبيك.

أدركَ صفوت أنه لم يكن موفّقًا في اختيار التوقيت الذي يتكلم فيه، فاعتذر ثانية لجلال، الذي أحسّ بحرج، وقَبل اعتذاره على مضض.

تدخّلت زوجة خال سمر ملطفةً من الأجواء قائلة:

– معتصم ابن أختي، هو صاحب اقتراح انتقالنا إلى القاهرة، سينتقل هو الآخر بعيادته إلى هناك، ينتظره مستقبل باهر. أتدرين يا سمر، لقد تحدث كثيرًا بشأنِ الارتباط بك، وأظنّ أن خالك تكلم معك من قبل!

تزاحمتِ الأفكار في رأس سمر، كان خالها بالفعل قد تحدّث معها في هذا الصدد، باتَ عليها أن تُلقي إجابة؛ رفضًا أو قبولًا أو فرصة في التفكير. لم تشعر بنفسها إلّا وهي تنتصر لأبيها وتقول:

– للأسف يا خالي، كنت سأبلّغكم أنّ هناك مَن ينوي أن يتقدم لخطبتي.

تعالتْ أنفاس سها، وفي قرارة نفسها تتمنّى أن تنطق سمر اسم أخيها؛ لكن سمر أردفت قائلة:

– طنط فادية حدّثتني ليلة أمس عن رغبة عمر في الارتباط بي.

حلّت الصدمة بالجميع، سها كانت أكثرهم ذهولًا، ظنت أن سمر ستنطق باسم رشاد، فتنتشي بخطتها وتفرح لانتصار كرامة أبيها التي خاض فيها خالها منذ قليل. انفردت بسمر قائلة:

– تعجّلتِ يا سمر، لمْ تعطِ لنفسك فرصة لتفكري في أخي.

أجابت سمر:

– سها، أخوك رشاد لا يمكن رفضه، لكنْ بالنسبة لي فأسباب رفضه عديدة، فهو يكبُرني بأكثر من عشر سنوات، كما أن المشاكل لن تبرحني سواء من خالي أو من أمّه، أنسيتِ مَن نكون بالنسبة لها؟! ثمّ أيضًا من ناحية أبينا، ألم تلحظي علاقته برشاد؟! أرجوكِ ردّي عليه رسالته بأنّي مرتبطة.

جلستْ سمر وحدثت نفسها:

– قرار أخذته على عَجل، تُراني صائبة أم لا؟!

– لَمَ لَمْ أمنح نفسي وقتًا كافيًا للتروي والتفكير؟!

– هل سأظلم عمر بتفضيلي له في ظروف كتلك؟!

– لو كانت طنط فادية أخبرتني أول أمس عن طلبه؛ لربما كانت قد انتهت حيرتي، واخترته وسكرت قلبي عليه دون سواه.

– كان أبي محقًّا في تخوّفه من تلك الزيارة.

"العقل الراجح اغتال ثورةَ القلب في أولى هتافاتها"

***

الصدمة

في اليوم التالي للحفل، وأثناء العودة إلى القاهرة، أخذ رشاد أمّه وعرج على أحدِ المطاعم، وما إنْ قاموا بطلب الطعام حتى قال رشاد:

- أتدرين يا أمّي، لقد رأيت أختي سها بالأمس!

كان كمَن نزع الفتيل بكلماته، امتعضت وقالت:

- أختك!

قال رشاد في قرارة نفسه: تقول ذلك على أختي، إذًا ماذا ستقول على سمر؟!

استجمع رشاد قواه، وقبل وصولهم البيت بدقائق، فَجَّر مفاجأته لها قائلًا:

- أمّي، لقد رأيت في الحفل ليلة أمس الزوجةَ التي أحلم بها، تحوم حولها المشاكل، لكنّي مُدرك تمامًا أنك على قدرٍ كبير من الإنصاف، ولن يُؤاخذ أحدٌ بوزر الآخر.

"مَن أريدها هي سمر ابنة زوجة أبي»

***

مساءً، جلس رشاد هائمًا، علم أنّه سيخوض غمارًا من المفاوضات مع أمّه، لكنه متأكّد من قدرته على إقناعها.

هو ليس من النوع الذي يجدُ معضلة في أيّ شيء، وأبدًا لا يحل اليأس به، وفي وسط تخطيطه جاءته رسالة سها:

«سمر منشغلة بشخص آخر، وعلى وشك الارتباط الرسمي»

بينما كان رشاد يفكّر في طريقة إقناع وداد، إذا به يتلقّى تلك الرسالة الصادمة التي تحطّمت على عتبتها كلّ أفكاره.

كانت وداد في غرفتها متدثّرة تتمنّى أن تعود بها اللحظة التي قرّرت فيها أن تطلب من رشاد المجيء معها إلى ذاك الحفل، ثمّ تكتم فاهَا، وتنتزع تلك الثورة بداخلها لتحقيق انتصارٍ على جلال من جذورها، وتقوم بوأدها في باطن الأرض.

حدّثت نفسها لتستخرج منها المبرّرات المقنعة لإخماد ثورة ضميرها:

– يتزوّج! تشاركني فيه أخرى، هل يضيع العمر سدًى؟! أنا من أضعت عمري كلّه له، أنا من أفنيت زهرة شبابي تحت قدميه، هو كلّ عمري. فليفعلها حين أصبح رمادًا، حين أصبح هباء منثورًا، لكن لن أتحمل أن تأخذه منّي أخرى.

استمرّت في تفكيرها:

– هل كلّ كلامي معه لم يُثنه عن التفكير في الزواج؟! تكلمت معه عن الزواج ومساوئه، وجمال امتلاكه للدنيا بدون ضجيج امرأة تنوح يومًا وتبكي شهرًا، تنقم من وضعها، تحتاج أن تكون هي الهدف الأعلى له في الحياة.

تكلّمت معه عن طبيعة المرأة التي اختلفت لتصبح هي الآمرة الناهية، هي التي تُطوع زوجها أنّى شاءت وكيفما أرادت، وأنّ الزوجات المثاليات انقرضن، وإنْ وُجدن فسيكون العثور عليهنّ من قبيل الصدفة البحتة.

أقنعته أنّه سيسلك دروبًا معالمها غيرُ واضحة، يتحمل الثرثرة والغيرة الزائفة وعدم الرضا، وسيضيع كلّ صبره وانصياعه أدراج الرياح في أول مشاجرة؛ لتصيح في وجهه قائلة «ما رأيت منك خيرًا قط».

ثمّ مَن يريد أن يتزوج، ألتلك الدرجة أصبحت في نظره بلهاء.

انتفضتْ حين خالجها هذا الشعور، لتدقّ عليه باب غرفته، دخلت عليه والدمع يغالبها:

– ألهذه الدرجة أنا بلهاءُ في نظرك؟! كيف امتلكت الشجاعة أن تُصرح لي بأن مَن تريدها هي ابنة مختطفة أبيك؟! السببُ الرئيسي في حرمانك منه، ابنة المرأة التي ضربت بكلّ أعراف القرية عرض الحائط واختطفت زوجًا مستقرًّا في بيته من أحضان زوجته.

نكسَ رأسه أكثر، بينما استمرّت هي في استجلاب الماضي بمآسيه:

– أتدري كم نسجت من الخيوط لتُقيد أباك تحت قدميها؟! استغلّت كلّ ما أُوتيت من مال لتهُدّ بيتًا حافظتُ عليه أنا ومنعته من الانهيار، وأنت تشهد على ذلك.

صرختْ فيه:

– يا ليتني فقدتك جنينًا بين أحشائي.

هنا، نهض رشاد ليحتضنها، ويضمّها بين ذراعيه.

اتجهت وداد صوبَ غرفتها، اعتصرها الألم، بكت بكاءً مريرًا، وبدأت حديثًا مع النفس:

– هل هو الآخر ظلمته؟! سؤال يتردّد في رأسي، يقتلني، لقد داومت على ظلمه منذ أن كان جنينًا.

بالرّغم من حبي الجارف لجلال؛ إلّا أنّي نقمت أيّما نقمة حينما علمت أن نبتًا ينمو بداخلي في شهور زواجي الأولى، لم أستمتع بالحياة بعد، سأدخل في دوّامة الحمل، وما يتبعها من قتل لأحلام وخططٍ رسمتها قبل الزواج، سأتدبّر أمر دخلنا البسيط وأطوعه وأدّخر منه ما يطوف بي وبجلال في كلّ مكان، على الأقل ثلاث سنوات، ثمّ أفكر في الحمل والولادة، وما يتبعهم من مسئوليات.

نجحتُ بما لديّ من دلال وسطوةٍ على جلال في إقناعه بذلك، رغم أنّي أرى في عينيه حبه للأطفال.

يوم أنْ علمت بحملي، ألقيتُ باللوم كلّه على جلال، ضاربةً عرض الحائط بدوري في ذلك. وجّهت له أصابع الاتهام «أنت مَن يريد الطفل».

هذيت بكلامٍ لا أدري صحته، وظللت طيلة حملي برشاد ناقمة عليه، غاضبة من احتوائه بداخلي، ويزيد سخطي عندما أرى تبعاتِ الحمل من تغير لمعالم الجسد وتأثيره على القوام والرشاقة حتى وصلت في بعض الأحيان لكرهه.

تغيّر شعوري بعدما رأيته بين يدي؛ فقد صرت أحبّه، لكنّي أيضًا أريد أن أنطلق، أعوّض تلك الشهور التي حبسني إياها.

أودعتُه في كثير من الأحيان عند أمّي وعند أختي. عندما اشتد عوده وفي أوقات الخلاف بيني وبين أبيه كنت أستنصر به ليكون عونًا لي رغم صغر سنّه، غير مكترثة بالتأثير النفسي عليه، والذي عانيت من تبعاته فيما بعد، لم أكنْ لأبالي بأيّ شيء سوى أن يراني مغلوبة على أمري.

بعدَ الطلاق كرَّست حياتي كلها له وله فقط، أصبح كلّ دنياي. كلّ يوم يمرّ يزداد تمسكي وتعلقي به وخوفي من أن يتسرّب من بين يدي، أعطيته من الحنان ما لم يعطه أب وأمّ مجتمعين.

لكنّ مسحة الحزن لا تزال موجودةً في جبينه رغم قدرته على إظهار عكس ما يضمر. لم أكنْ لأطيق أن يأخذه أبوه بعيدًا عنّي ويأسره بحنانه، كنت أضع من العراقيل ما يحول بينه وبين أبيه. أنا أمّه، أنا أبوه، أنا الحياة بأسرها بالنسبة له.

حالت كلّ السبل بين جلال وبين رؤية ابنه، فقد كان كلّ مَن يأتي ليتدخل في هذا الصدد مثل سعاد وغيرها، يلتمس لي العذر، فكيف لزوج لم يروا أبدًا تقصيرًا من ناحيتي تجاهه أن يكون هذا هو جزائي!

سؤال واحد أسأله لمَن تأتيني لتقريب وجهات النظر بيني وبين جلال «ضعي نفسك مكاني!» فتجد نفسها ستفعل ذلك وأكثر.

يريد أن يتزوج، وينعم بزوجة أخرى، ويربّي بنتًا ليست ابنته، وفوق ذلك كلّه لا يفقد ابنه، ويراه بشكل طبيعي دونما أيّة منغصات، فلأذهب حينها أنا للجحيم.

لجأ إلى القضاء لأستسلمَ للحكم منفّذةً إياه بحذافيره، كنت أذهب إلى هذا المكان مصطحبة لابني، أبكي عندما أتركه، أُشعره بثقل الوقت الذي يقضيه معَ أبيه وهو ابن الحادية عشرة، أستشعر فيه عدم الرغبة والخجل من وجوده في هذا المكان المليء بالمآسي والخلافات، وفي بعض الأحيان النزاعات الأسرية.

ترسَّخ الشعور داخل رشاد بأن هذا المكان يكرهه، وصرّح في كثير من الأحيان بذلك، بل زاد ذات مرّة وقال «إنّه يكره أباه» نهرتُه وقلبي يبارك مقولته، ثمّ بعد فترة حاول جلال مرّة أخرى أن يستضيف ابنه عوضًا عن تلك الزيارة الأسبوعية لكنّي رفضت وبشدة؛ ليقرر أنه لن يعذب ابنه في هذا المكان مجدّدًا، وبالطبع لم أذكر لرشاد أنّ سبب الإلغاء هو عدم قدرة أبيه على تعذيبه، بل كان استمرارًا لحلقات ترسيخ جفاء أبيه.

في السنتين التاليتين، عانيتُ مع رشاد أيّما معاناة، لم أفهم التغير الواضح في سلوكه وأفعاله.

نصحني الكثيرون بأن أجعل لأبيه منه نصيبًا؛ فوافقت. لم أوافق فحسب بل أقنعت رشاد أنْ يوافق هو الآخر، وكان السبيل لإقناعه أنه شارف على عامه الثالث عشر، ومن حقّ أبيه أن يضمّه إلى حضانته، وبالطبع رشاد لا يريد أن يتركني.

كان لقاؤهما يتمّ بالتنسيق مع سعاد في بيت العائلة على فترات، ورضخت أنا لهذا الأمر.

في كلّ مرة يرجع رشاد من زيارة أبيه يكون في حالٍ لا يرثى له، فقنوات الاتصال بينهما أصابها العطبُ، واسترداد أواصر الودّ تحتاج إلى وسيط.

(٨)

سمر

انقضت الزيارتان على أسوأ ما يكون، لم أكنْ لأعلم أن ثلاثة أيام سوف تحمل لي كلّ تلك الأحداث، حبّ من الوهلة الأولى رفضته بمنطق العقل، وحبّ آخر لا أدري إن كنت قد تسرّعت في قبوله أم لا.

قرّر أبي ألّا نمكث في بيت خالي، وأن نغادر فور دخول الليل، لم يعترض خالي ولم يصرّ عليه كعادته.

في طريق عودتنا، وجدت مهاتفة من طنط فادية فحواها:

«لقد أخطأت حين تحدّثت معك بشأن الارتباط بعمر، لم يكن ذلك لائقًا منّي، كان لزامًا عليَّ ألّا أنساق لتسرعه ورغبته الجامحة، وأن أقدّر خالي الباشا وأتبع الأصول في مثل تلك الأمور. على أية حال سيتواصل زوجي مع خالي الباشا ويطلب زيارتكم غدًا؛ زيارة لطلب الزواج بشكل رسمي، ولن يكون رأيك- أيًّا كان- سببًا في تغيير قناعتنا بالنسبة لك».

لم أهتمّ كثيرًا بمبرراتها التي ساقتها، فهي لم ترتكب جُرمًا، لكنّي أحسست أيضًا بتقدير مبالَغ، وحفاوة تنتظرني في تلك العائلة، كلّ شيء يحدث يؤكد لي أنه لربما عمر هو العريس الأنسب، لم أفكر فيه من قبل وأكسبه تلك الصفة، لكنه أيضًا فيه من الصفات البسيطة التي أعرفها ما تجعلني أنجذب إليه، لو لم يكن رشاد تدخل لكان من الممكن أن يكون تفكيري في مسارٍ آخر، ومن أول وهلة.

بالفعل وجدتُ أبي يخبرني صباحًا أن زيارة منتظرة في طريقها إلينا، ودار بيننا حوار بسيط:

– هل أنت مرتبطة به منذ فترة؟

– لا، عمر ما هو إلّا أخ وصديق، وكان طلب أمّه مفاجأة لي في حفل الزفاف.

– أرجوك ألّا يكون رفضُك لقريبك هذا سببًا في عجلتك، واتخاذ قرار على نحو سريع!

– بالفعل يا أبي، أحتاج وقتًا للتفكير.

– إذًا، سيكون هذا جوابي مساءً.

***

عمر

لأوّل مرةٍ سأدخل منزل جدي الباشا وسمر فيه، لن أدخله فحسب؛ بل سأحظى بمقابلتها والجلوس معها منفردًا حتى ولو لدقائق. سيكون بمقدوري الآن أن أُخرج كلّ ما في قلبي لها من حبّ وآمال ضخمة في أن أوفر لها السعادة الكاملة، وكيف أنّ قلبي لم يفتح أبوابه من قبْل لسواها، وأنّها هي الحبّ الوحيد الذي شغل قلبي طيلة عمري.

سأُظهر لها طموحي في الحياة الذي يمثّل وجودها فيها سوادَه الأعظم. تكفيني تلك الجلسة حتى وإنْ رُفضت، يكفيني أن أكون محور اهتمامها في ذاك اليوم وتلك الدقائق، بالطبع أريدها أن توافق وسيكون أتعس أيامى إن حدث عكس ذلك، لكن هذا هو شعوري الآن.

بعد الترحاب والاعتذار عن تلك الزيارة المفاجئة، وتقديم أبي الرائع الذي أتقن صياغة ما لُقن إيّاه من أخي مصطفى، وجدّتي سعاد، طيلة طريقنا من كُتامة إلى دمياط. أخذ الجميعُ في تبادل أطراف الحديث إلى أن جاءت سمر تحمل المشروبات.. ما هي إلا دقائق حتى بدأ الجميع في المغادرة بعدما قالت جدتي سعاد لجدّي الباشا:

– ما رأيك أن تأتي يا جلال لتُرينا ما استحدثته في منزلك؟

كانت تلك الكلمات كفيلة بأن تُخلي لنا صالة المنزل، جلسنا سويًّا دون النطق ببنت شفة لمدّة خمس دقائق، ثمّ تحركت سمر كاسرة حاجز الصمت وقالت:

– هل تسمح لي بشرب الماء.

فأجبتها:

– بالطبع نعم.

أحسستُ أنّ كلّ الكلام قد طار من عقلي، ليس أبي من كان يحتاج إلى التلقين والمراجعة، لكن سرعان ما أدركت أنّي أضيّع الفرصة، وأنّ الوقت ينقضي دون أن أخبرها بأيّ شيء، على الفور تحدثت:

– سمر، كنت قد أعددتُ الكثير من الكلام لأقوله لكنّي نسيته كله الآن، كلّ ما أتذكره أني أحبّك منذ نعومة أظافري وأقسم لك أنّي لم أحب سواك.

كستْ حمرة الخجل وجهها بعدما كانت تقف ندًّا إلى ند، وكأن التصرف على طبيعتي أكسبني القوّة والغلبة، فوجدتها تجيبني:

– أنا أيضًا يا عمر كنت قد أعددتُ الكثير من الأسئلة، لكن كلماتك تلك النابعة من القلب أذابتها، ومع ذلك لا أظنّ أنّ جلسة كتلك ستكون سببًا في ارتباطنا، أنت ومنذُ الصغر أخ لي، إن قُدر لنا الارتباط ستكون فترة خطوبتنا سبيلًا للحكم على العلاقة قبل إتمامها، وأرجو ألّا يكون لرأيي حينها وقعٌ سلبيّ لديك إن لم أستَسِغ الأمر.

رُغم أنّ كلماتها تعني أنّي.. وأنّي فقط.. من سيقع تحت الاختبار؛ إلّا أني أحسست أن هذا الخيار هو الأفضل بالنسبة لي عوضًا عن رفض مباشر يتهدم معه قلبي. أحسست أنه قد حالفني الحظّ حين صَرّحت بما في قلبي لها، فأجبتها قائلًا:

– وأنا موافق.

فقالت:

- إذًا ننتظر رأي أبي.

بعد ما يقرب من نصف ساعة، دخل جدّي الباشا متسائلًا إن كان بمقدور الجميع أن ينضمّ إلينا، فأومأت سمر بالإيجاب.

دخل الجميع وانصرفتْ سمر، وتبعها جدّي الباشا ثمّ مالبث أن دخل قائلًا:

- على بركة الله، لكنّي لي طلب واحد. أرجو أن نؤجّل كلّ شيء، تعرفون أن سمر خالها موجود أيضًا، وأنا أريد أن نأخذ موافقته هو الآخر.

***

العُزْلة

نضع البذرة ونهيلُ عليها التراب والماء. هناك مَن لا يغمض له جفن، فهو يتابع زهرته ويرْقُب نموّها اليومي، وهناك من يُوكل أحدًا برعايتها ويجني له ثمارها، وكلاهما يجد اللذّة في طريقته.

تحرّكت عقارب الساعة، خرير الماء يطرب الآذان، مطهر يومي لأعضاء الجسد، توضّأ رشاد ومشى في الظّلَمِ، ثمّ عاد من صلاته، بادرته أمّه المنتظرة قائلة:

– شعور الأمان أستمدّه من رؤياك بجانبي، لست بمتسلطة أستأثر بابني، تعرف كم ضحّيت من أجلك، ومن أجلك أنت فقط، أريد أن أراك سعيدًا هانئًا مطمئنًّا معَ شريكتك، لكن أيُعقل أن أقبل بمثل تلك الفتاة ابنة لي، و ....

– لا داعي للكلام يا أمّي، لقد نسيت الأمر برُمّته، في النهاية رضاك هو وجهتي ومرادي.

بكتْ كما لم تبكِ من قبل، احتضنته وبركانُ النقد مازال ينفجر بداخلها، دفنت نرجسيتها لدقائق، تخلّت عن أمانيها وصرّحت بغير ما تخفي:

– فلأبحث لك من الغد عمّن تفوقها في كلّ شيء.

– لا داعي يا أمي، لقد غيّرت رأيي في هذا الأمر مؤقتًا.

غادرَ رشاد إلى البنك بعد ما استتبّ الأمر بينه وبين كلّ دنياه. لكن هل استتب الأمر لأنّ سمر هي من بادرته بالرفض، أم أنّه بالفعل يضع أمّه في مرتبة أخرى لا يملك معها رفضًا ولا جدالًا؟!

عندما وصل رشاد إلى البنك، تَفقَّد حسن فلم يجده، كان معتادًا في أيامه الأخيرة أن يكون مِن أوائل مستقبليه، أمسك بهاتفه واتصل به:

– هل أنت بخير؟ تفقدتك اليوم فلم أجدك.

– الحمد لله يا بشمهندس، كلّ ما في الأمر أنه يوم الخميس الماضي أبلغني مستر حسين من شئون التدريب أنه قد تمّ ترشيحي لدورة تدريبية تبدأ من اليوم.

– دورة! عن ماذا تتكلم تلك الدورة؟

– حماية قواعد البيانات.

– وما دخل قسم العمليات المصرفية في أنظمة الحماية والاختراقات؟! على أية حال أتمنى أن تكون سبيلًا للترويح عنك.

– بشكل كبير يا بشمهندس، معلومات مبسطة للغاية، والمحاضر يصيغها في غاية السلاسة، متمكّن من مادته العلمية تتيح لأيّ تخصص أيًّا كان معلوماته من التجاوب معه.

– كم هي مدتها؟

– يومان فقط للأسف الشديد، تطرق فيهم المحاضر بشكل سريع لأنظمة أوراكل لقواعد البيانات والسيسكو وبعض الثغرات بهما.

أنهى رشاد المكالمة مع حسن، ثمّ واصل تجوّله في البنك، ذهب إلى عمر وقال له:

– عمر، أريدك أن تعكفَ على دراسة آخر التطورات لتطبيقها في البنك، سأعطي لك بعض الخطوط العريضة، مثلًا مراقبة أي عملية داخل البنك ومسارها وتحديث نظام التتبع لكلّ العمليات واختبار السِجْل[1]، كما أريد أن يكون لقسم التكنولوجيا والمعلومات دورٌ في التطوير والابتكار، يمكنك الاصغاء لبعض المشاكل التي تواجه العملاء.

كما أريد أن أُعلمك أنّ خطتنا القادمة هي أن نجعل كلّ العمليات رقمية، ونقلل– بقدر المستطاع– من المعاملات الورقية، سواء فتح حساب جديد أو خدمة عملاء أو خلافه، من الممكن أيضًا أن تدرس كيفية تقديم كشف حساب للعميل يحتوي على معدّل سحبه، أو معدل دخله الشهري، ورسم بياني عبر الشهور، وأشياء من هذا القبيل، أو رسائل تصل للعميل أينما حلّ بأماكن الصرافات الآلية القريبة منه، وحصر لمطالب العملاء حينما يقررون زيارة البنك، وكيفية إحلالها بالخدمة عن بُعد.

وأخيرًا، كيف يتمكن العملاء من إدارة بياناتهم بطريقة أفضل. اجلس مع خدمة العملاء وباقي الأقسام وأعطي لي اقتراحاتك، أمامك أسبوعان من الآن.

---

(١) السِجْل أو LOG: هو عبارة عن ملف تستخدمه أنظمة وبرامج تشغيل مختلفة. يحتوي عادةً على سجل لأحداث معينة مع توقيتات حدوثها الزمنية. قد يتم إنشاء ملفات LOG بواسطة نظام التشغيل لتتبع أحداث النظام أو بواسطة برامج أخرى لتسجيل كلّ الأحداث والعمليات التي تتم في النظام والقائم على تنفيذها.

بعدها ذهب رشاد إلى المدير، ثمّ كانت وجهته أخيرًا لمكتبه، الجميع يهابه في العمل، لا يركن ولا يملّ من التواجد في كلّ الأقسام، وله من الأدوار التي خوّلها له مديروه ما يسمح له بذلك، فضلًا عن علاقاته المتشعبة في العمل.

فجأة، شعر رشاد ببوادر انتكاسته المعهودة، فدلف إلى مكتبه، وأغلقه جيدًا وسحب مقعدًا ونظر من النافذة، ليجد نفس الشخص يظهر ثمّ يختفي، لكن في تلك المرة طالت مدّة مكوثه، لكنه أيضًا لم يتعرّف عليه، يطرد كلّ التخمينات من رأسه، فلا يريد أن يُعمل عقله في معرفته، العقل دائمًا ما يرمى له أن هذا هو أبوه ولا أحد سواه، وهو ما يرفضه بقلبه، فهو لا يريد أباه شبحًا في ذكرياته، بل يريده جسدًا حقيقيًّا ينهل من حنانه.

في وقت الانصراف من العمل، اتّجه عمر صوب رشاد، وعند باب البنك أخبره عن زيارته لسمر وتقدّمه لخطبتها، وأنّ هناك موافقة مبدئية، وأنه أول مَن يخبره بذلك الأمر خارج أسرته الصغيرة.

وقع كلام عمر عليه كالصاعقة، عمر هو الشخص المقصود في رسالة أخته سها، رفضته سمر وفَضَّلت عمر عليه، لكنْ عساه أن يقصد سمر أخرى.

هنّأه رشاد ثمّ تساءل عن هوية سمر، فعرفها عمر له أنّها ابنة طاهر البيلي؛ رجل من أبناء قرية نجريج، ولم يُعرفها ببنت زوجة أبيه. سمع رشاد اسم طاهر البيلي ليتأكّد من أنها هي، ولم يعقب على عدم تنويه عمر مباشرة بأن العروس هي ابنة زوجة أبيه. كان الحوار نوعًا من المبارزة في استخدام الألفاظ وتقاسيم الوجه للتّعبير عن الفرحة واحترام المشاعر من جهة وإخفاء الدهشة والحقد من جهة أخرى.

***

رغم أنّ وداد مَن بادرت برفض التحاور في شأن زواجه من سمر، واستئصال أي جذور لهذا النّبت قبل غرسه في أرضه القحلة، وتناسيه لرسالة سها التي كانت عبئًا عليه؛ إلا أنه لم يخطرْ له على بال بأنه حين سيختار سيُرفض، ثمّ استشاط غيظًا بعدما عرف أنّ من غمس كبرياءه في الوحل هو عمر.

تَذَكّر ظروفَ التحاق عمر بالبنك، وعضّ أنامل الندم أنه لم يبذل كلّ ما في جهده ليبعده عن طريقه. كلمة خالي التي يناديه بها تقع الآن وقعَ المرارة في الحلق كلما تردّد صداها في أذنه.

لكنّه عاد ليحدّث نفسه بأنّ ما نسب إليه من فضل في إلحاقه لعمر للعمل في البنك وهو الشيء الذي لم يحدث؛ فإنّ حسرة قلبه الآن هي بالتأكيد تعويضًا لعمر عما اقترفه من ذنبٍ تجاهه؛ لقد وضع له العراقيل التي تحول بينه وبين هذا العمل الجديد، حتى عندما جاءت عمته سعاد تطلب المساعدة، تظاهر بأن سيبذل قصارى جهده لذلك، لكن تلك الزيارة فقط حوّلته من مهاجم إلى محايد، فترك الأمور تسير على طبيعتها، وليأخذ نصيبه دونما أيّ تدخل منه. بات الآن يندم على أنه لم يقف حائلًا في طريقه.

كانت قد أخبرته عمّته سعاد أن عمر بات على مشارف الالتحاق بنفس البنك الذي يعمل فيه، وأن عمر قلقٌ من تدخل الواسطة في التقييم، وعدها رشاد حينها أن يبذل قصارى جهده لذلك، كانت نيّته في البداية هي بذل الجُهد لإبعاد عمر عن البنك؛ فهو لا يريدهم أن يخترقوا عالمه، لكنّها كانت إحدى معاركه الخاسرة مع نفسه. في النهاية لم يقفْ في طريقه، لكنه أيضًا لم

يرجّح كفته قيدَ أنملة، كانت حسرته كبيرة عندما علم أنّ عدم تدخله هذا كان أحد أسباب ترجيح كفة عمر؛ إذ اشترط المسئولون عن تلك المسابقة استبعاد أيّ متقدم ثبُت تدخل أحدٍ لتوظيفه.

دائمًا ما اقتنع أنّ الاختلاط بعائلة أبيه هي التي تدرّ عليه المشاكل، أيقن الآن أنّ حدسه كان صائبًا، كان لا يريد أن يختلط بهم عن قرب، فما بالك أن يشاركوه في نفسَ مكان عمله ليقلبوا عليه الذكريات السيئة، وعلى يد أحدهم يتحطم قلبه.

في طريق عودته، خالجه هذا الشعور الطاغي بداخله، العاطفة التي يفتقدها عادت لتسيطر عليه من جديد. كان يسير كمن تاهت ضَيعَتُه، وكمّم فُوهُ، وأُلغي عقله، وتاه الكلام من رأسه، يتذكّر أسوأ لحظات حياته، هذا المكان الذي كان يقابل فيه أباه، وكيف أنه كان يتوارى خلفَ أي شيء حتى لا ترمقه العيون، يَضُجّ بسماع الصوت العالي والتراشق بالألفاظ بين مَن كانوا يومًا ما يتراشقون بكلمات العشق والهوى.

***

(٩)

آدم

بعدَ كلامي مع سلامة، والمعلومات التي تجَلْت لي، أخذتني الصدمة... حسن! هذا الشابّ الخجول هو المتحكم في كلّ هذا. سلامة فقط ما هو إلا صورة تتصدر المشهد أمامَ هذا المجهول الذي يُدير اللعبة. حنان! أتكون زوجة لهذا المتنكر؟! هل أخبرها؟! هل أُحذّرها؟! أتتني الإجابة من سلامة في نهاية حواره:

– أطْلعْتُك على سرّ، فلا ينبغي لأحد معرفته سوانا.

لا أُنكر أنّي هدأت بعدَ طمأنة سلامة لي بأن ما نفعل ما هو إلّا الإتجار في عقار طبّي ليس بمادة مخدرة بحدّ ذاته، ففي النهاية هو علاج فعّال وضروري للعديد من المرضى، وأنّ مَن يشرفون على هذه الصفقات يستخدمونه في مساره الصحيح لكنّهم يتربّحون من بيعه بمبالغَ أكبر عن تلك الأرباح التي كانت ستُجنى إن تمّ تداوله في قنوات شرعية، وفي النهاية لا بدّ من أخذ الحيطة والحذر.

أصبحت عندما أرى حسن في زياراته القليلة لحنان أتعجب من قدرته الهائلة على المراوغة وإتقان التمثيل. كان دائمًا ما يزعم أن تأجيل إتمام الزواج سببه الرئيسي هو أن يتمكّن من سداد مديونياته لأخيه.

أقول في قرارة نفسي «يا لك من ممثل بارع، أتمنّى أن أكشف هويتك الحقيقية وما تتصنّع من براءة»، لوْلا وعدي لسلامة، وما يبدو على حنان من

حب له؛ لفعلت في الحال. أوافق حنان الرأي فلوْلا بعض الغموض الذي يفرض نفسه على شخصيته وما عرفت عنه مؤخرًا، لحمدت الله كثيرًا على أن رزق أختي بمثل هذا الزوج.

في إحدى الزيارات، قد تكون المرّة الوحيدة بعد الخطوبة التي يأتي فيها حسن بصحبة سلامة- أخيه- في العيد، انتظرت حتى أتبين مَن منهما سلامة! العجيب أنّ حتى طريقة اختيارهما للملابس متشابهة.

عندما انفردت بسلامة، سألته على استحياء:

- ما المانع أن تتدخل لتُعجل من خطوات الزواج؟

وجدت وجهه تغيّر، ثمّ نَهَرني قائلًا:

- ليس لي دور في هذا، لست وصيًّا على حسن، كما أظن أن ما أخبرتك به سابقًا يخبرك عن ترتيب الأدوار. العلاقة بيننا ما هي إلّا مصالح مشتركة.

من تَغيّر وجه سلامة وامتقاعه، عرفت مِن بعدها متى أتدخل، وأنّ الأمر ليس بالهيّن. عرفت حدودي، وأنّ حسن نفسه إذا تسرّب إليه ما أُخبرت به ستكون ردّة فعله غير متوقعة.

حتّى عندما انفصلت حنان عن حسن، لم أتطفّل لأعرف الأسباب. لكن لا أُنكر أنّي شعرتُ بارتياح شديد. انتهى ذاك الارتباط الذي كان جاثمًا على صدري دونما أي تدخّل من جانبي، لكن يا تُرى «هل حنان عرفت شيئًا عن طبيعة عمل حسن؟!» حتى تلك لم أحاول معرفتها.. أصبحت أكثر رزانة عن ذي قبل.. كلّ ما فعلته أنّي ذهبت لأخفّف عنها قائلًا:

– لا أريد أن أعرف سببَ انفصالك عن حسن، لكنّي أعرف أنه وبكلّ تأكيد أنك قد درست الأمر جيدًا، فقط كلّ ما لديّ هو سؤال واحد.. هل يُغضبك أن أستمرّ في العمل مع سلامة؟!

سألتها وأنا أخافُ أن تُبارك انفصالي عنه، وازداد خوفي عندما غالبت دموعها التي ندرَ رؤيتي لها في عينيها، لكنها قالت:

– لا تتركه، العلاقة انتهتْ بيني وبين أخيه، وعملك لا دخل له بالأمر برمّته.

– لم أكنْ لأقصد أن أزيد همومك، سأتركك الآن وأتحدث إليك لاحقًا.

تركْتها وقلبي منكسرٌ لانكسارها، لكن في الآن نفسه مطمئنّ بأن سبب انفصالهما ليس له علاقة بمعرفتها لنوع العمل الذي يمارسه حسن مع سلامة، وبالتالي لم تعرف طبيعة عملي أنا الآخر.

استمرّ التعاون بيني وبين سلامة، ولم نمكث كثيرًا حتى اختفى سلامة تمامًا، حاولت بعدها بشتّى الطرق أن أجدَه وأتواصل معه، لكن بدون جدوى.

***

رشاد

كنت أظنّ أنّي لست بعُرضة لأيّ رفض، فأنا مكتمل الأركان، تتمنى أي فتاة أن أكون أنا نصيبها. هكذا هيّأت لي نفسي، أو من الجائز أن أمي ساعدتني في ذلك الاستنتاج.

وغر صدري على غير مقصد، حينما علمت أن مَن حلّ محلي هو عمر، لم أستسغه يومًا، لست بملاك، يناديني بخالي خارج أطر العمل، لكن ذلك لم يشفع له بدخول قلبي، لا أُنكر أنّ مقدار تقبلي له قد ازداد بعدَ تلك الصحبة إلى حفل الزفاف منذ أيام.

أحيانًا أجد نفسي أظلمه، وأحيانًا أخرى أجد أنّي اخترتُ العزلة والبعد عنهم، وأنه يجب عليهم أن يحترموا ذلك، لا أريد أي خيط يربطني بالماضي، لا أشارك حياتي الشخصية مع أحد باستثناء بعض الضغوط النفسية التي أشاركها مع عمّي يسري.

عُدت إلى المنزل، وعلى غير عادتي لم أذهب لأيّ مكان. تلقفتني أمي، شَعُرت بأنه تهمني هائمة، وضحَ ذلك من سؤالها.

لم أكن أريد أن أشتكي لها، لكنّي في نفس الوقت أحسست أنه لا بدّ أن أُشعرها ببعض ما يؤلمني؛ فهي تتحمّل جزءًا منه، رغم اقتناعي بما قالته سابقًا.

قلت لها:

– لقد ارتبط عمر بسمر.

– مَن عمر؟!

– عمر ابن فادية ابنة عمتي.

– أتقصد بسمر، ذاك الوباء الذي كاد يصيبك؟!

– ها.. ها، نعم إنها هي.

– كم هو عجيب أمر البشر! عمّتك سعاد تلك العجوز المتلوّنة كم حدثتني عن سرقة أمّها لأبيك؟! وهي الآن توافق على ارتباط حفيدها ببنت الخائنة.

أحسستُ أنّ حتى غضبتها لنفسها، وأنّ حتى مشاعري التي دفنتها لأجلها لم تخطر لها ببال، لكنها عادت لتسأل:

– ألا يزال قلبك متعلقًا بها؟

– يا أمّي ليس الأمر كذلك، إنه.....

– عجبًا لتلك الأسرة، هل يسحرون الناس؟! فعلت أمّها فعلتها تلك منذ أمدٍ مع أبيك، لا باركَ الله في تلك الزيجة. رشاد، أخبرني بالله عليك، هل مازلتَ تريدها؟

أومأتُ برأسي بالنفي، ثمّ قلت:

– بالطبع لا.

لا أدري إن كانت قسمات وجهي تؤيدني فيما أقول، أو تُخبر عكس ذلك.

قالت أمّي:

– ثمّ مَن عمر هذا الذي تقارن نفسك به! بالفعل لقد أحسنوا الاختيار جميعًا، الخبيثون للخبيثات، وعمر مثله مثل جدّته المنافقة، أنت من رفضت تلك الزيجة، وعمر هذا ما هو إلّا شخص يقتاتُ من فُتاتك، وسينال جزاءه.

***

(١٠)

فريد

فريد سراج؛ مليونير ورجلُ أعمال، يُعتبر بمثابة خال وداد، فهو ابن عمّ أمها. كان من أوائل المهاجرين للقاهرة بعد عشر سنوات من العمل بأحد بنوك طنطا، ثمّ انتقل للعمل في «بنك إلجنادور El ganador" وكان سببًا رئيسيًّا في توظيف رشاد في البنك بعلاقاته المتعددة.

ترك مجالَ العمل في البنوك منذ فترة كبيرة، وتحديدًا مع بداية الألفية الجديدة؛ ليعمل في مجال الاستيراد والتصدير والعقارات والمعمار، ثمّ تشعب منهم لعدة مجالات أخرى، مجمع مدارس خاصّة، ونادي رياضي، وأعمال خيرية، وغيرها.

في خضمّ أعماله لم يكن ليشغله تكوين أسرة، وإنجابُ أولاد، أو حتى اختيار شريكة لحياته؛ لكنّه في سن الأربعين تزوّج من دولت، والتي كان لوالدها فضلٌ عليه في تحويل وجهته من العمل الروتيني إلى التجارة، استطاع فريد أن ينمّي ثروته بشكل سريع فاقَ حتى قدرات صهره الاستثمارية.

ابنته غادة ذات الثلاثة عشر ربيعًا هي كلّ دنياه، والبسمة في حياته، والتي بعدَ ولادتها لا يطيق الشوكة تشوكها، كلّ ما تطلبه مجاب.

رغم نجاحاته المتعددة منذ أن بدأ سلّمه الوظيفي في البنك، إلّا أنه يعتبر غادة هي الإنجاز الأكبر له في حياته؛ هي التي جعلت لحياته لونًا، وأخرجتها من التكالب الدائم على المال.

بعدَ انتقال وداد للقاهرة، والذي تزامن مع ولادة غادة وسفر رشاد لأخذ منحة إدارة الأعمال من فرنسا، والتي كان فريد أيضًا سببًا رئيسيًّا في منحها إياه فور تخرجه، كانت وداد دائمًا ما تتردّد على دولت زوجة فريد وتستأنس برضيعتها غادة.

ترى وداد الفرحة في عيون دولت التي كان حلمها الأكبر هو أن تمتلك طفلا بعد تأخّرها في الإنجاب خمس سنوات كاملة.

تأخّرت دولت في الزواج، ثمّ تأخرت في الإنجاب، إلى أن جاءت غادة وكانت بمثابة فرحتها الكبرى. في عيد ميلادها الثالث عشر وكالعادة، تواجد رشاد ووداد وبقية العائلة.

تزيّنت عروس الحفل، ونزلت بمرح لتتلقّى الهدايا، احتضنتها وداد، وقبّلها فريد، وأخيرًا قفزت داخل أستار دولت لتنهل من حنانها.

بادرت وداد وأخذت الهدية القابعة في يدِ رشاد وناولتها إيّاها، ثمّ أخرج رشاد علبة كان قد أخفاها عن الجميع، وقال:

– تلك هديتي الخاصّة لك يا غادة.

قالت دولت:

– لو أنّ عمرها مناسب قليلًا، لم أكن لأجد عريسًا خيرًا منك يا رشاد.

تجهّم وجه وداد ثمّ قالت بلطف:

– غادة أخت رشاد الصغيرة، أولاده بإذن الله يحملونَ شمع زفافها.

سرحَ رشاد بخياله وقال في قرارة نفسه:

– حتى غادة يا أمي، بالطبع لن أفكّر فيها، هي طفلتي الصغيرة. لكن إلى أي حدّ ستنفرينني من الزواج وتعلنين ذلك أمامي. لو تركتين وتفكيري لنفذت لك مرادك دونما مجهود منك، فتلك هي أصلًا رغبتي في الأساس، كانت سمر حدثًا عابرًا لن يتكرر.

قبل أن يغادر رشاد وأمّه، استدعى فريد رشاد، وطلب منه أن يحضر معه حفلًا خيريًّا في المجمع الذي يمتلكه مع مجموعة من رجال أعمال آخرين..

– سأكون سعيدًا يا رشاد إن تمكنت من الحضور.

***

حنان

في الصباح الباكر، كانت حنان تتناول الإفطار على عجل مع أبيها وأمّها، بينما كان آدم مستغرقًا في النوم كعادته. داعبت حنان أباها بقولها:

– هل ستظلّ تستيقظ مبكرًا بعد أيام يا حاج يسري؟!

– ولِمَ تذكرينني يا حنان، لم أحدد شيئًا لأفعله بعد إحالتي للمعاش، لكن حتمًا سأستيقظ مبكرًا، هذا شيء لا جدال فيه، على الأقل كي أودعك قبل ذهابك للعمل.

تدخلت هدى زوجته قائلة:

– إن كان استيقاظك من أجل توديعها فلتهنأ بالنوم، بمشيئة الله ستكون حنان في بيتها مع زوجها.

ابتسمت حنان ثمّ قالت:

– على ذكر زوجي المستقبلي يا أمي، كان هناك زميل لي يود أن يتقدم لخطبتي لكنّي اعتذرت له، منذ ذلك الحين وأنا أشعر بأني أصبحت عدوّة خالته الأستاذة فاتن.

– مَن هذا يا حنان؟ (سألت هدى).

– إنّه طبيب معنا اسمه محمود، خلوق جدًّا، لكن سبحان الله لا أشعر نحوه بأي قبول.

تمتمت هدى بكلماتٍ بسيطة وسرحتْ بخيالها، فجذب انتباهها يسري قائلا:

– يا حاجة هدى، لا تقلقي على حنان، أعطي تركيزك كله مع هذا الشاب النائم بالداخل؛ فهو مَن يحتاجه.

عقبت حنان:

– لا تقلق يا أبي، سأتحدث معه فور عودتي من العمل بإذن الله.

أجابها يسري:

– هذا إنْ وجدته في البيت!

***

في المجمع، كان اللواء سيد في قمّة انشغاله، حضر قبل الجميع بساعة كاملة، شخصيات عامة، وبعضٌ من مالكي هذا الصرح الكبير في طريقهم لحضور الحفل السنوي، والذي يتوافق مع تاريخ افتتاح المجمع.. في كلّ عام، ويتمّ فيه تكريم الطلبة المتفوقين في شتى المجالات، وبعضٍ من العاملين.

أصاب اللواء سيد الغضبُ عندما وجد بعضًا من تعليماته لم يتمّ تنفيذها بعد، وازداد غضبُه عندما سأل عن السيدة فاتن فوجدها لم تحضر أيضًا. بالصدفة كانت حنان تمرّ من أمام مكتبه فسمعت صوته المرتفع فطلبت من سكرتيرته أن تخبره أن حنان بالخارج وتريده، اندهشت السكرتيرة فقالت لها حنان:

– فقط أخبريه وهو سيخرج حالًا.

سرُّ سهولة التعامل بين حنان واللواء سيد هو الثقة المتبادلة، يعاملها كابنته وتعامله بكلّ احترام كوالدها، وتفهم طبيعته الهادئة، ومتى سيتعكر مزاجه، ومتى سيصفو.

برهنتْ على قيادتها وصحّة حدسه تجاهها بتميز أداء العيادات الطبية من مختلف النواحي.

خرج بالفعل اللواء سيد، وهدأ من روْعه عندما رأى حنان، علم أنّ غضبه سينكسر على عتبتها، قالت له:

– لا أريد سيدي أن أعرف سبب ثورتك، أخبرني فقط بما تريد، وبإذن الله سأنفّذه مباشرة.

– حنان، الحفل يتبقّى عليه ساعتان فقط، وعندما أسأل عن أشياء بسيطة بديهية أجدُها مُهملة منسيّة، لكِ أن تتخيلي أن حتّى كلمة الحفل لم تُعدّ بعد، ولم يتدرّب عليها طفل ليُلقيها! وعندما أبديت دهشتي أجابوني بأنهم ظنّوا أنّي مَن سيلقيها.

– أشياء بسيطة بإذن الله، وسهل جدًّا تداركها في هذا الوقت المتبقي.

لم تكن حنان لتغامر بإضافة أشياء جديدة في الحفل رغم قدرتها على ذلك خوفًا من ألّا يسعفها الوقت، فبدأت تعمل فقط على تلبية طلبات اللواء سيد وإضافة أشياء بسيطة كفقرةٍ للسلام الجمهوري، وفقرة مسابقات بسيطة كمسابقة البحث عن الحروف، وصيد السمك، وفرقعة البالونات؛ تضفي جوًّا مبهجًا على الحفل، ساعدها في ذلك أنها كانت قد مارست تلك الألعاب من قبْل مع الأطفال في أوقات فراغها، والتي كانت تحبذ أن تكون معهم فيها.

بدأت حنان على الفور اختيارَ الأطفال الذين سيقومون بالفقرات الجديدة، وراجعت معَ المشرفة استعدادهم واستيعابهم لفقراتهم الأساسية، والتي كانوا يتقنونها جيدًا، وفي خضمّ انشغالها، جاءت فاتن والتي جُنّ جنونها عندما رأت حنان تُشرف على الفقرات.

كانت فاتن قد استنكرت كثيرًا تدخّل حنان في الجزء المنوط بها هي الإشراف عليه، غير آبهةٍ بمبررات حنان التي ساقتها للّواء سيد حين عاتبها

في ذلك من أنها تستغلّ وقت فراغها في تعليم الأولاد، ولا تتدخل بتاتًا في أيّ من الجوانب الادارية، أو حتى تعقب على أيّ برامج مدرجة لديهم.

لم تتمالك فاتن أعصابَها تلك المرّة، وبادرت بتعنيف حنان، وما إن وصل صدى الضجيج في قاعة التدريب إلى اللواء سيد إلّا وقد توجه على الفور، ثمّ بصوت جَهْوري طالب الجميع بالهدوء والتزام الصمت بعدما خمن سرّ المشاجرة، ثمّ قال معاتبًا فاتن:

– أستاذة فاتن، من غير اللائق أن تأتي متأخرة في مناسبةٍ كتلك، ثمّ عندما تأتي تثوري هكذا!

– سيادة اللواء، آسفة، لقد حدث ظرفٌ ما في البيت أعاقني عن الحضور.

– لا عليكِ، إذًا.. كان من واجبك توجيه الشّكر لدكتورة حنان لتدخلها ومساعدتها، لا أن تؤنّبيها وتصبّي جام غضبك عليها، ثمّ أنا مَن طلبت من حنان أن تتولى إصلاح بعض الأخطاء قبل الحفل.

– يا أفندم، لا يوجد ثمّة خطأ واحد، الفقرات كلها جاهزة ونحن على أهبة الاستعداد.

– لن أناقش الآن، بعدَ انتهاء الحفل سنجلس جميعًا ونفنّد كلّ شيء. أظن أنّ الوقت مناسب الآن لأُعلن لكم أنّ الدكتورة حنان– وبتكليف رسمي منّي كنت قد أعددته مسبقًا– ستتولى الإشراف الإداري كاملًا على المجمع في حالة عدم وجودي، ويَسْري هذا القرار من تاريخه.

***

(١١)

طنطا، ١٩٩١

من بيتٍ ترامت أطرافه، كلّ شيء فيه خاصّ بها، إلى بيت بالإيجار في طنطا مع شريك جديد، رجحت كفته بكلّ تأكيد مقارنة بشريك سابق لم تجد معه معشار هذا الحبّ أو العطاء، لكن هذا الشريك يأبَى على نفسه أن ينظر إليه الناس ناعتين إياه بالمتمتع بمال زوجته.

هكذا كان حالُ جلال عندما تزوّج بميرفت الأرملة، والتي أصرّت عليه كثيرًا أن يخبر وداد عن نيّتهما في الزواج، لكنه أخبرها أنّ الزواج سيفشل إن فعل ذلك قبل إتمامه.

ميرفت والتي وجدت في جلال أنه سيكون عوضًا لها عن العذاب الذي لاقته مع زوجها الأول، ما كانت لتضحّي بهذا الحبّ تحت أي عنوان من عناوين المثالية، دفنت دافعها في تجميل صورتها لدى الأهل والأقارب، وأن تُنعت بمختطفة الزوج من زوجته مقابلَ حصولها على جلال الذي أحبّته منذ البداية، وها هي الظروف تعود من جديد لتربطها به.

ازداد تأنيبُ الضمير عليها، خاصّة بعد وقوع الطلاق بين وداد وجلال، حاولت أن تذهبَ لوداد، لكنها عندما استشارت سعاد في ذلك، أخبرتها بأنه سيكون لقاءً مؤلمًا، ولن يُسفر عن شيء سوى تلقّيها لغضب وداد.

– لقد أخطأت يا ميرفت بفعلتك، لكن ما حدث لن يتغيّر بذهابك إليها.

ضاقتِ الدنيا على جلال في طنطا، فورشة النجارة الواقعة بقريته كتامة لم تعدْ لتكفي لنفقةِ وداد ورشاد وإيجار البيت الجديد ومصاريف المعيشة، ناهيك عن سفره اليومي من طنطا إلى كتامة.

عرضت عليه ميرفت مرارًا وتكرارًا أن تساهم معه لكنّه رفض. في أحد الأيام أتاها قائلًا:

– سنذهب إلى دمياط، سأبدأ بورشةٍ صغيرة لكنّها في مكان حيوي بشارع عبد الرحمن.

– لَمَ يا جلال؟! لقد وافقتك على مضضٍ أن نترك قريتنا ونأتي إلى هنا في طنطا، لكن ألا ترى أنّنا نبعد كثيرًا، ونستأصل جذورنا ونبعد عن أهلنا؟!

– يا ميرفت، أنا أهلك وأنت أهلي، ولن نبعد عن أحد، سنكرر زياراتنا كثيرًا إلى كتامة ونجريج، فأهلي وأهلك لهما كلّ الحقّ في ذلك؛ لكن في سفرنا هذا فرصة عظيمة لعمل جديد، ولقد رأيتِ بنفسك ما أنا فيه من ضيق الحال.

– وما يدريك يا جلال بعد غربتنا تلك أنه سيتحسّن وضعنا؟

– المكان الذي نحن بصدد الذهاب إليه من أشهر الأماكن بدمياط، يضمّ تشكيلة كبيرة من مختلف قطع الأثاث تشمل التحف والأنتيكات التي تضاهي المنتج الإيطالي، وبإذن الله يكون لموهبتي في ذلك سبيلًا للربح.

بالفعل، انتقل جلال وميرفت وسمر إلى دمياط، لم يمض عامٌ واحد إلّا وكان جلال قد تحسّنت أحواله بشكل كبير، وفي إحدى الزيارات المتكرّرة

إلى قرية كتامة، التقى صفوت بميرفت ووجّه لها سيلًا من النقد طالَ الجزء الأكبر منه جلال الذي اتهمه بسرقة مال اليتيمة، أنكرتْ ميرفت أنّ زوجها ترك إرثًا سوى مبلغ بسيط وقطعة أرض والبيت.

لم يصدّقها صفوت بأن كلّ أموال الفقيد تنحصر فقط في تلك الممتلكات، وتأكد شكه بعدما قابل صديقًا لوالد سمر، الذي أكّد له في ذاك اللقاء أنّ والد سمر كان معه مبلغٌ ضخمٌ قبل وفاته بفترة وجيزة.

***

مجدي

مجدي حجاج، لقبه الدارج داخل البنك مجدي الكَبير بفتح الكاف، يحب لهجته الصعيدية جدًّا، وفي نفس الوقت يمقتها وقتَ العمل، كان بين الفينة والأخرى يتردد على القاهرة منذُ الصغر إلى أن توفّيت أمّه، فانتقل للعيش في القاهرة بصفة شبه دائمة مع أبيه الطاعن في السن، والذي كان يتولى حراسة إحدى الفلل، عندما أتته فرصة العمل في البنك انتقل للقاهرة بصفةٍ دائمة ليربض فيها.. يتعامل مع الجميع على سجيّته، عمل في خدمة العملاء، وحاليًا في قسم الخزينة.

في مقهى بوسطِ القاهرة جلس عمر ومجدي يتسامران، استدعى مجدي صبيّ المقهى وطلب منه مشروبه المعهود كما أوصاه على مشروب لعمر.

– البقاء لله يا مستر مجدي، أرجو أن يتغمّد الله والدك بواسع رحمته، وأسفي الشديد على عدم تمكني من حضور مراسم الدفن.

– البقاء لله يا عمر، لا عليك، الحمد لله على كلّ شيء، لكن أخبرني، بعد ارتباطك أصبحت شاردَ الذهن مهمومًا، غاب عنك مرحُك المعهود، إن كان هذا كلّه في فترة الخطوبة فماذا عساك أن تفعل حينما تتزوج؟!

– مشكلة توفير المسكن في مكانٍ ملائم هو كلّ ما يشغلني يا مستر مجدي. المبلغ المتوفر مع أبي بالكاد يكفلُ لنا أنا وأخي مصطفى مسكنًا في إسكان متوسط لا يليق أبدًا بسمر، كما أنّ الإيجار في الأماكن المناسبة سيقضي على معظم راتبي.

- هل اتّفقتم على ميعاد محدد لإتمام الزواج؟

- بعد ثمانية أشهر تقريبًا، جدّي الباشا عرض أن يساهم لكنّ أبي رفض وبشدة.

- لو كان باستطاعتي مساعدتك لما توانيت عن ذلك، منذ قدومك إلى البنك وأنا أعاملك كأخ أصغر.

- أعلم ذلك جيدًا مستر مجدي، أنت أيضًا لست ببعيدٍ عن هذا المعترك، ستدخله قريبًا أبيت أم رفضت.

- كلاهما! ها.. ها.

- ها.. ها، نعم إنّها الحياة، لكن لست أدري هل البنك يحمل جينات مختلفة، جُلَكم قد تجاوز الثلاثين ولم أسمع عن محاولات للارتباط إلّا مستر حسن الذي حاول ولم يُوفق، لكن أنت ومهندس رشاد أو حتى المدير نفسه لم يتزوج حتى الآن.

- ستكسر أنت القاعدة ثمّ نكسرها نحن تباعًا، لولا الدراسات العليا والدكتوراه التي حصلت عليها لكسرتها أنا قبلك.

- بالفعل يا مستر مجدي، أنت أكثر مَن قابلتهم حرصًا على العلم والتعلم.

***

البنات

إذا أردت أن تملك قلوبهنّ يكفيك كلمة طيبة، مهْما وصلت المرأة من درجات تحتاج للكلمة الطيبة، طفلة كانت أم كهلًا عجوزًا.

انفردت غادة بهداياها، ومِن بين كلّ ما جاءها من هدايا؛ إلّا أن هدية رشاد جعلتها تهرول إلى أبيها فريد وأمّها دولت تمسك بورقة كُتبت بماء الذهب:

– أرأيتم تلك الكلمات التي أهداها لي «أبيه» رشاد.

– التقطي أنفاسك أوّلًا، قالت دولت، ثمّ أخذت منها الورقة وأخذت تردد كلماتها:

أختي أختي يا حلاوتها

البيت عاشق ضحكتها

والكل دايمًا في سيرتها

بيقولوا نوارة الحتة

مش هحكي أنا عن لباقتها

ولا رزانتها ولا رقتها

ولا خفة دم اللي جبتها

أنا كده بقلب في القدرة

انطلقت ضحكة عالية من دولت، وضحكات من غادة وفريد ثمّ استكملت قراءتها:

إيدي دي اللي شالتها
وعيني دي اللي راعتها
ولحدّ ما تروح كده بيتها
هنهنّنها ونستّتها
البنت ست كده في بيتها
والكلّ بيتمنى راحتها
وإن كان باباها واللّا مامتها
شايفينها باخواتها الستة

قال فريد:

– ستة، والله حتّى إن كانوا مليونًا، أكملي.. أكملي.

البيت بيضلّل بطيبتها
والناس كلّها في عيلتها
بياخدوا دايمًا مشورتها
ويقولوا دا انت اللّي حيلتنا
ولا عمرك هتوفّي قيمتها
لو جبت الدنيا وادّيتها
دي كلمة واحدة بتبسطها
بناتنا همّا جنتنا

انتهت دولت من قراءتها ثمّ احتضنت غادة قائلة:

– رائعة يا غادة، أحسستها من قلبه فعلًا، منذ نعومة أظافرك ورشاد يعاملك كيعسوبة صغيرة.

احتضنها فريد، ثمّ أردف قائلًا:

– ورقة واحدة رغم جمال ما فيها تتملّكك بهذا الشكل، وهديتي أنا حتى لم تفتحيها بعد.

– وما يدريك؟! لقد فتحتها، شكرًا يا أبي؛ لكنّ هديتي الأكبر أن تأخذ تلك الكلمات وتبلورها بشكل ما لأحتفظ بها في غرفتي، وسيكون أجمل إن تحوّلت لعمل غنائي أستمع إليه ليل نهار.

فَضَّل رشاد أن تكون الكلمات هي الهدية التي يُعبّر فيها عن حبه لغادة، وأنه بالفعل يعتبرها بمثابة أخته الصغيرة، تذكَّر أعياد ميلاده صغيرًا، وكم كانت تنبض بلحظات سعيدة كانت تجمعه بأبويه لكنّه لا يملك سوى القليل من الصور منها.

دائمًا وأبدًا سيظلّ الماضي هو الشغلَ الشاغل الذي يحاول الجميع استرجاع لحظاته متناسيًا همومه آنذاك، نسترجع فقط لحظاتٍ سعيدة عشناها وتمنينا أن يعود بنا الزمان لننعم بها مجدّدًا، وما يزيد من معاناتنا تلك الوثائق من فيديوهات وصور وسمعيات، جسّدت ماضينا فأصبحنا نراه رأي العين؛ تلك النعمة التي فقدتها أجيال سابقة، كان ماضيها أيضًا هو جنّتها وحاضرها كابوس تحياه، لكن هذا الماضي كان شبحًا تحاكوه في جلساتهم مسترجعين إيّاه من ذاكرةٍ نضبَ نشاطها.

تخيّل رشاد هذا الجيل الذي نعيش نحن ماضيه الآن ومنهم غادة، هذا الجيل الذي يومًا ما سيتغنّى بماضيه مسترجعًا لحظاته السعيدة؛ فقرّر أن يكون جزءًا من ذاكرتها في المستقبل، حتّى وإن كره حاضره، والذي هو في نفس الوقت ماضيها مستقبلًا.

***

سمر- وفي تجربتها العاطفية الأولى- لم تكن لتدري أنها سترتبط بعمر بتلك السرعة، أصبحت أيام الأسبوع كلّها في كفة، ويوم الجمعة في كفة، تنتظره فيه منذ بزوغ فجره.

لظروف عملِ عمر فإنّ يوم الجمعة هو اليوم الوحيد الذي يستطيع أن يسافر فيه إلى دمياط، وأحيانًا قليلة يستبدله بيوم السبت. تشعر سمر أنّ مشاعر جديدة تختلجها وتسيطر على تفكيرها، تلك المشاعر التي ما تخيلت يومًا أن تكون مسيطرة عليها، ما كانت لتصدق أنها ستتحوّل مثل تلك الفتيات اللواتي عشنَ تلك القصص من قبل، وكانت تندهش أنّ كلّ تفكيرهنّ انصبّ في ذلك، وأنهنّ يَتُقن عشقًا لمثل تلك المشاعر التي تأسر قلب أيّ أنثى مهما حاولت صدها.

لم تكن لتصدّق أن الساعات التي يأتي عمر فيها ستمرّ بتلك السرعة، لم تصدق نفسها أنها- وفي غضون أقلّ من شهر- سترتبط به لمثل تلك الدرجة.

- احكِ لي عن مشاعرك، ومنذ متى وأنت تحبني؟

– أحبّك.. هذه كلمة بسيطة، استبدلتها باسمك، الذي عندما كان يتردد صداه يخفق قلبي بحديث يجري مساءً في ليالي الصحراء، يجلس فيه المتسامرون في سواد الليل تحت ظلّ القمر يرددون فيه أعذب الكلمات.

– ها.. ها.. ها، أتحفظ كلّ معاني اسمي! أتدري لم ألحظْ ذلك ولو لمرّة واحدة، ألهذه الدرجة كنت عمياء؟

– أتعرفين، كنت أظنّك بنتًا لجدي الباشا؛ يعني بمثابة خالتي، أسئلة كثيرة وأنا في الصغر كانت مضحكة. أتذكر حين سألت صديقًا لي ونحن في المرحلة الابتدائية «هل يجوز لأحدٍ أن يتزوج خالته؟» فنهرني وقال لي بالطبع لا.

عشت تلك الفترة في كدرٍ وهم؛ فزواجي منك من المحرمات، إلى أن التقيناكم في إحدى المناسبات في كتامة، كانت سها لا تزال طفلة رضيعة، صدفة قالت لي أمّي «خذ يا عمر احملْ عروستك» فقلت لها وهل يجوز أن أتزوّج خالتي؟ ضحكت أمّي حينها ولم تجبني.

سألت جدّتي وقلت لها «أمّي تقول لي إنّه من الممكن أن أتزوج خالتي فهل كلامها صحيح؟» بعد أن نعتتني «بابن المجنونة» ثمّ سألتني «من خالتك؟» فقلت لها سها تلك الرضيعة، ضحكت وقالت «نعم يجوز هي ليست بأخت أمّك حتى يحْرُم ارتباطكما يا مجنون».

– ها.. ها، انتظر قليلًا أستدعي خالتك حتى تحكم بنفسها. (قالت سمر).

– سأقول لك سرًّا آخر.

– يتعلّق بسها أيضًا!

– ها.. ها.. ها، السرّ الأول لم يتعلق بها، كانت طُعما حتى أستفسر عنك أنت.

– ما هذا السرّ أيها العاشق الولهان؟

– في الصغر، وعندما تأمرني جدّتي أن آخذ الملابس بعد غسلها، وأقوم بتوزيعها عليكم أثناءَ تواجدنا جميعًا في أيّ مناسبة، كنت أمسك ملابسك وأحتضنها، أحببتك يا سمر منذ صغري، وعشقت كما يقولون التراب الذي تسيرين عليه بأقدامك.

ضحكت سمر، وكست حمرة الخجل وجنتيها.

***

لم يكن عمر هو الآخر بأقلّ شغفًا ليوم إجازته، بل كان دافعًا له على إنجاز أعماله.

في الفترة الأخيرة، أثقل رشاد كاهله بالكثير من الأعمال، والتي في إحدى المرات استدعتْ أن يقضي أجازته في البنك، وكانت تلك المرّة سببًا في عدم الذهاب لسمر، التي استشاطت غيظًا، وقالت:

– البنات المخطوبات يخرجنَ على الأقل كلّ ثلاثة أيام، وأنا لم أطلب ذلك، يكفيني تلك المرّة اليتيمة الأسبوعية التي تأتي فيها، ثمّ تأتي أنت لتعتذر عنها أيضًا!

– والله يا سمر ليس لي من الأمر شيء، عملٌ كُلفت به ويجب أن أُنهيه.

– لا دخل لي في ذلك، أتحسب أنّي سأموت حتى أراك، أتحدث فقط عن الإهمال وعواقبه.

– أعدُك أن تكون تلك هي المرّة الأخيرة التي أتخلف فيها عن زيارتك، سأطلب من مهندس رشاد وقتًا كافيًا عندما يكلّفني بشيء في المستقبل.

– وهل لمهندس رشاد دخلٌ في هذا العمل المخوّل لك حاليًا؟

– نعم، هو نائب مدير البنك.

هدأت سمر، وسكنتْ ثورتها، ولعبت الأفكارُ برأسها.

***

(١٢)

حنفي

«صباح الخير يا ورشة، مساء الخير يا فرشة»

حنفي عبد السلام، أحدُ رجال دمياط المشهورين في مجال صناعة الأثاث. في بداية التسعينيّات من القرن الماضي كان حنفي أول مَن أراد أن يقتحم السوق الخارجي، كان ينتقي من الحرفيّين أمهرهم، ومَن يساعده منهم على تحقيق ما يرمي إليه من أهداف.

شهدت تلك الفترة بداية انتقال جلال إلى دمياط قادمًا من طنطا، ولا خيار أمامه سوى أن يجتهد في مكانه الجديد بدمياط.

ارتمى بين أحضان الأمهر على الإطلاق في هذا المجال، كان عليه أن يفوقهم لا ليساويهم، كان عمله منذ بزوغ الفجر انتهاءً به ممدّدًا جسده على فراشه بعدما أنهكه التعب، لا يمتلك الخيار الذي يجعل الوقت يتسرّب من بين يديه؛ لكن يوم إجازته هو اليوم المقدس الذي يُكرّسه لزوجته وبيته.

يُقدّس أبناء دمياط العمل، حتى أنّ شعارهم الدائم هو «صباح الخير يا ورشة، مساء الخير يا فرشة» كناية عن العمل المستمرّ طيلة اليوم حتى ترمي جسدك منهكًا على الفراش في آخره.

ذاع سيطُ جلال في شهور قليلة ليلتقي به حنفي الذي كان في بداية درب إخراج تلك الصناعة من محيطها، كان حنفي ينتقي مَن يعمل معهم بعناية شديدة، يريد مَن يتقن لا مَن يعمل فحسب، على حدّ قوله لجلال.

استمرّ التعاون بين حنفي وجلال، وكانت هناك أيضًا علاقات وزيارات أسرية بينهما. في بداية الألفية الجديدة استأذنَ جلال حنفي في أن يكون له عمله الخاص مُصرّحًا له عن نيّته لافتتاح معرض خاصّ به للأثاث.

لم يعترضْ حنفي بالطبع، وبارك خطوة جلال، وكان كثيرًا ما يدعمه في معرضه. سنوات قليلة حتى أصبح جلال له معرضه الخاص، لكن توزيعه مقتصر على التوزيع المحلي، ومن حين لآخر يأخذ منه حنفي بعضًا من منتجاته لتسويقها في معارضه التي بدأت تترامى داخليًّا وخارجيًّا.

منذ أشهر قليلة، وفي نهاية العام المنصرم ٢٠١٣، كان التعاون مجددًا، وكان جلال المُستفيد الأكبر من تلك الشراكة من جديد، خاصّة بعدما ترامت ثروة حنفي بشكل كبير، وذاعَ سيط منتجات مجموعته الاستثمارية داخليًّا وخارجيًّا.

لكنّ جلال كان له من الأفكار التي ساعدت في هذا النمو من تطوير للموديلات، ومراعاة احتياج السوق ومعرض دائم لعرض المنتجات ومحاوله لاستبدال الأبلكاش الذي يمثل عقبة في تلك الصناعة لارتفاع ثمنه بشيء آخر.

***

دمياط، ١٩٩٣

كانت السنوات الأربع التي عاشها جلال مع ميرفت هي مصدرَ سعادته التي لم يلمسْ لا قبلها ولا بعدها. كانت له نِعْمَ الزوجة في كلّ شيء، تأثيرها على مُجريات حياته كلها يلمسها في كلّ خطوة يخطوها.

المقارنة بينها وبين وداد غيرُ متكافئة الأركان؛ ميرفت تلك التي ضحت من أجله بكلّ شيء، أحبته وواجهتْ سهام النقد الظاهرة والباطنة، تحاملت على نفسها، وُصِمت بكلّ الألقاب، لكنها كانت تدرك لِمَن تضحي لأجله. أراحت ضميرها على حدّ تفكيرها بتقديم التنازلات، فكانت تقول دائمًا سأعيش وحدي يكفيني منه زيارة، ولن أتحدّث عن مساواة من أي نوع، ثمّ أبدًا لن أُرهقه ماديًّا.

كلّ تلك التنازلات وهو بين يديها، لكن كلّ ما وعدت بتنفيذه من تنازلات وقُوبل بالرفض، حمدت الله أنها لم تقع تحت طائلته، لأنّها وهي في كنف جلال، رأت معه السعادة الحقيقة، السعادة التي كانت ستحنث من أجلها بكلّ وعودها فهو الآن حياتها، الغيرة شيء طبيعي لن تستطيع دحرها.

أخذها الموت فجأة من بين ذراعيه، رحلت وخلفت له قطعتيْن منها، سمر بنتها أوصته عليها مرارًا، وسها التي ماتت ولم ترها عيناها. كانت أثناء حملها تغمرها السّعادة؛ فأحشاؤها تحمل نطفة ممّن تحب وتعشق.

بعد مراسم الدفن، لم يُمهل صفوت جلال لأحزانه، انتشله منها لأسوأ منها قائلًا:

– سمر ستأتي معي.

نظرَ له جلال، كان يعرف عدم رضاه عن الزواج من أخته منذ البداية، لكن الموقف جللٌ الآن، فالتمس جلال له الأعذار وربّت على كتفه.

أزاح صفوت يده قائلًا:

– دعْك من هذا، يكفيك ما أخذته منها سامحها الله، أتريد أن تظلم اليتيمة ظلما أكثر من ذلك.

– حقّ سمر لن يضيع بين يدي، وإن أردت أن تكون وصيًّا عليه فليكن ما تريد؛ لأنها ابنتي وستأكل ممّا آكل منه أنا وأختها، ولا دخل لي بمالها.

ضحك صفوت في سخرية قائلا:

– لا أدري كم يكفيني من المهدّئات لأحتمل تصنّعك، أترمي لي بزهاد مال اليتيمة وأنا مَن أنا! إن أردت حقًّا فَرُدّ مالَ أبيها الذي اقترفته بغير حق، وكان مصدرًا لما فيه أنت الآن.

– مالُ أبيها بالأساس لم أمسّه، ولا أعرفه.

– ها.. ها، إن كانت ميرفت «رحمها الله» أخفت عنك ما أبلغتها إياه؛ فلن أحرمك أنا من سماعه، لقد تأكدتُ بما لا يدع مجالًا للشكّ أن طاهر زوج ميرفت قبل موته بشهر واحد قد سحب كلّ ما لديه من البنك، ولم يشتر

عقارًا ولا دارًا، سأكون حسن النية وأنه لا دخلَ لكما بموته، وإن كنت الآن أشكّ في ذلك!

- والله لم ألمسْ قرشًا واحدًا من ماله، ولم أرْضَ حتى أن أعيش في بيته ولو لليلة واحدة، وتلك هي أوّل مرة أسمع عن تلك الأموال، ثمّ إن أختك النقية الطاهرة لا تستحقّ منك ذلك النكران والاتهامات في أولى لياليها في قبرها.

- دعْك من هذا الطّهر المُصطنع الزائف، إن كانت ميرفت ارتضت لنفسها الظّلم، فلن أسكت عنه أنا، ولم يعدْ هناك سببٌ كي أخفيه.

- دعْني أساعد سمر لتجدَ ثروتها، إن كان كلامك صحيحًا!

- ثروتها بين أحضانك.

كانت سمر قد شارفت على عامها الرابع، بكت ونحلَ جسمُها حين حكم أهل المشورة بأن يتولّى خالها رعايتها، دخلت في نوبات صراخ متتالية وهزلت، وبين الحين والآخر تريد جلال ولا تفقهُ أيًّا من المبررات التي يسوقها خالها، كلّ ما يجري على لسانها:

- أريد أختي، أريد أبي.

تدخّلت زوجة صفوت وأقنعته بأنّ البنت ستموت بين أيدينا، فتدخل العقلاء ثانية ورجعت سمر لبيت جلال وأختها الرضيعة على أن يتولى صفوت أمرَ مالها الذي كان متأكدًا أنه ما هو إلّا قليل من كثيرٍ في جوف جلال.

(١٣)

المعاملات المصرفية الليلية «Overnight Rate»

هي سعرُ الفائدة لليلةٍ واحدة، حيث تقوم البنوك بإقراض أو اقتراض الأموال من بنك آخر في السوق الليلية.

في العديد من البلدان، يكون سعرُ الليلة الواحدة هو سعر الفائدة الذي يحدده البنك المركزي لاستهداف السياسة النقدية، وفي معظم الحالات، يكون سعر الليلة الواحدة هو أدنى سعر فائدة متاح.

يشير سعرُ الليلة الواحدة إلى سعر الفائدة الذي تفرضه مؤسسات الإيداع (مثل البنوك أو الاتحادات الائتمانية) على بعضها البعض للإقراض مع نهاية اليوم.

في معظم البلدان، يُشرف البنك المركزي على معدلات الإقراض (على سبيل المثال، الاحتياطي الفيدرالي في الولايات المتحدة، أو بنك كندا في كندا).. بشكل عام، يحدد البنك المركزي سعرًا مستهدفًا أو نطاقًا مستهدفًا للسعر.

إذًا.. ولتبسيط الأمر، المعاملات المصرفية الليلية هي معاملات تقرض البنوك فيها الأموال بعضها البعض مع نهاية اليوم، الهدف من أنشطة الإقراض تلك هو ضمان الحفاظ على متطلبات الاحتياطي.

مِن هذا المنطلق، تزيّنت ورُسمت هذه الفكرة:

ماذا لو تمّ إجراء تلك العملية المصرفية في الوقت الذي يخضع فيه البنك للصيانة تزامنًا مع الإغلاق في بنكٍ بدولة أخرى، ويُراعى فارق التوقيت؟!

حيث تُسحب أموال البنك وتُودَع في البنك الآخر فيما يسمى بالمعاملات الليلية، لتعود الأموال مع بداية اليوم التالي بعد ساعات قليلة بنسبة فائدة على رأس مال البنك المُودع سابقًا، يتمّ خصم تلك الفائدة وإرجاع أصل مال البنك مرة أخرى بدون نقص، مع حذف تلك الحركة المصرفية من سجل المعاملات.

تسارعت الأنفاس وتباطأت حركة الأيدي التي فقدت الشعور وأصابها الارتباك، النقرُ على لوحة المفاتيح الآن وتنفيذ العملية، ومن ثمّ الانتظار حتى تعود الأمور لِنصابها، هو الحلم الذي يراود العقل ويتمنّى أن ينتهي دونما أخطاء.

مرّت الساعات دهرًا، تمّ خصم الفائدة بعد عودة المال المودَع، ثمّ إعادة أصل المبلغ لحساب البنك وكأنّ شيئًا لم يكن.

برقتِ العين برؤية قيمة الفائدة، ثمّ صرخت صرخةً مكتومة تنتشي بنجاح الخطة.

خطّة محكمة، نُفذت دونما أضرار على البنك، فقط ليلة واحدة غادرت فيها الأموال ثمّ عادت سالمة، وأخذنا نحن الفائدة، ما الضّرر في ذلك؟! هكذا أحلَّ العقل ما اكتسبته الأيدي المرتعشة.

(١٤)

صفوت

عاد صفوت خالُ سمر وزوجته من المستشفى بعد تلقّي زوجته لجلسة العلاج الكيميائي، حالتها في اتجاه نحو الاستقرار بعد عددٍ لا بأس به من تلك الجلسات، عانى صفوت في تلك الفترة من تدهور حالتها الصحية والإرهاق المزمن الذي أصابها، ناهيك عن تدهور حالتها النفسية نتيجة تساقط شعرها، فكان قراره بترك قريته «نجريج» بطنطا والقدوم للقاهرة.

شعرَ صفوت بتحسّن حالة زوجته الصحية والنفسية عند تغيير محل الإقامة، كان لصفوت الدورُ الأكبر في هذا التحسن؛ فكان دائمَ الترويح عنها بكل ما تحب، كما أنّه هيّأ الفيلا بكلّ ما تشتهيه الأعين، وباع كلّ شيء يمتلكه بقريته، وقرّر أن ينعم معَ زوجته بأيامهم سويًّا بعيدًا عن الجميع، ويستثنى من الجميع بنات أخته، البيت ينبض بنبض الحياة بوجودهما فيه، حتى أنّ الكلب بولمان نفسه يتحسن مزاجه بوجودهما.

سمح جلال لسمر وسها بعدَ طلبهما بالذهاب لخالهما، مكثت سها أيامًا معدودات وعادت من أجل دراستها، فيما فضّلت سمر البقاء مع خالها حتى يتمكن عمر من زيارتها. بالطبع لم تُصرّح بذلك ولكنها التحقت بدورة تدريبية مدتها ثلاثة أشهر، لم يشغل بالها المحتوى حينما اختارت تلك الدورة، ولكن شَغلها عدد أيام الحضور والتي كانت ثلاثة أيام أسبوعية، فكانت حُجة قوية في إقناع جلال بالمكوث عند خالها طيلة هذه الفترة.

فكّرت سمر في تلك الحيلة بعدما قلت زيارات عمر لها بدمياط، فقد كانت زياراته أسبوعية يتكبّد فيها عناء السفر من القاهرة إلى دمياط في يوم إجازته مرة واحدة أسبوعية، وهو ما لم يكنْ يرضيها، ثمّ جاء تكرار اعتذاره مرّتين عن الذهاب إليها بدعوى عمل مكلّف به من قبَل رشاد؛ ليسوق تفكيرها أن تكون بجواره، وألّا ترتبط زياراته بيوم واحد فقط.

تَرَدد عمر الكثير على بيت صفوت في بداية تواجد سمر فيه كان غيرَ مستساغ من قبَل صفوت، لكنّه استشفّ أن تواجدها الطويل معه ما هو إلّا من أجل تلك الزيارات، ورغم أنه كان يريد لسمر أن تتزوّج من قريب زوجته؛ إلّا أنه كان يتعامل مع عمر بكل ودّ، ومن أجل ذلك كان يتناسى قرابة عمر لجلال.

لا يتمالك صفوت نفسَه من الضحك عند تذكّره هو وسمر تلك المرّة التي كانت حالة زوجته فيها خطيرة للغاية، فاستعانتْ سمر بعمر الذي جاء بعد استقرار حالتها، لكن كان الحزن مازال يعتريهم، وجلس هو الآخر متجهّمًا مشاطرًا إياهم في حزنهم، وإذا بالكلب بولمان يفكّ وثاقه وينطلق في الفيلا، هنا تخلّى عمر عن وقاره وحزنه المصطنع الذي فاق حتى حزنهم أنفسهم، وأخذ يجري في كلّ مكان، يصدر صرخاتِ الخوف، التي لم تتمالك سمر وخالها أنفسهم وهم في قمّة حزنهم أن ينطلقوا بالضحك.

في كلّ ليلة تجلس سمر مع خالها يتسامران، لم يتطرّق صفوت للحديث عن أي شيء يُعكر مزاجها، إلّا أنها هي مَن بادرت بالسؤال:

– خالي، أريد أن أعرف ما كنت ترمي إليه من اتهامات، ومدى صحتها في زيارتنا الأخيرة لك في نجريج؟

– لا داعي يا سمر، لم يعدِ الأمر يشغلني، ولا أريد أن أعكّر مزاجك، كما أن هدفي كله من وراء ذلك أن تكوني بجواري وتُونسي وحدتنا أنا وزوجة خالك.

– إذًا، هو مجرّد كلام مرسَل لا صحّة له.

– لا، ليست اتهامات باطلة، أعهدتِ عليّ ذلك! لكن أرجوك ليس هناك داعٍ للخوض فيها.

– خالي، أنا مَن أرجوك أن تتكلم.

حكى صفوت لسمر القصة التي لطالما خبأها عليها، وأوغرت صدره تجاه جلال.

– عقب انقضاء العدّة بعد موت أبيك طاهر، رحمه الله، مباشرةً، جاءتني أمّك ميرفت، رحمها الله، تطلب منّي أن أوافق على زواجها من جلال.

لم أستسغ الأمرَ، خاصّة أنه لم تمض سوى شهور قليلة على وفاة أبيك، كما أنها أخبرتني أن جلال نفسه متزوج، وأنها ستكون زوجة ثانية، إلحاحها جعلني أوافق على مضض.

– هل كانت زوجته على علم بتلك الزيجة؟

– لم يشغلني ذلك الأمر حينها؛ لكنْ بعدما تمّ الطلاق بين جلال وزوجته، عرفت أنها لم تكن تعلم بالأمر برمّته.

– إذًا، وبكلّ تأكيد زوجة أبي جلال السابقة تبغض أمّي، وبالتالي تبغضني.

– أبوكِ! ها.. ها، لا أعلم، كلّ ما أعلمه أنه لا يستحقّ أن تنعتيه بأبي.

– أرجوك يا خالي، أخبرني ماذا فعل؟

– بعدَ مرور ما يقرب من عام على وفاة طاهر، جاءني أحد أصدقائه والذي كان صديقًا لي أنا الآخر، وجدته يُخرج عشرة آلاف جنيه ويعطيها لي، سألته "ما هذا؟" فأجابني أنّه كان مع والدك قبل وفاته بستة أشهر، وأنهما كانا باتّجاههما للبنك لإيداع مائتي ألف جنيه لأبيك، وكان سعيدًا حينها لامتلاكه لهذا المبلغ الضخم، فانتهز هو تلك الفرصة وطلب منه أن يقرضه عشرة آلاف جنيه على أن يردّها بعد عام، فوافق والدك لقوة العلاقة بينهما، أعطى لي العشرة آلاف جنيه، واعتذر عن تأخّره في ردّها.

– مائتي ألف جنيه!!

– نعم، مائتي ألف جنيه، سألته عن عنوان هذا البنك قبل أن يغادر ثمّ سألت أمّك عن مدى علمها بذلك فأنكرت، فقلت لها ابحثي في المنزل جيدًا، فجاءت لي بعدَ يوم لتخبرني أنها بحثت جيدًا ولم تجد شيئًا، كان آخر خيار لدينا أن نذهبَ للبنك، وعن طريق صديق لأحد أصدقائي يعمل في هذا البنك، عرفنا أنّ والدك كان قد سحب كلّ تلك الأموال بعد خمسة أشهر من إيداعها.

– وما يدريك يا خالي، عسى أن يكون أبي قد قام بشراء شيء ما؟!

– سامحِيني يا سمر، كان أبوك حريصًا شيئًا ما، ولم يكن ليُنفق كلّ تلك الأموال في خلال شهر واحد فقط هو الفاصل بين سحب الأموال وموته، ولم يكنْ ليشترك مع أحدٍ في مشروع دونَ أن يكتب ذلك في مدوّنته التي عثرنا عليها فيما بعد، وكان مدونًا بداخلها العشرة آلاف جنيه التي أقرضها لصديقه، فإن كان قد أقرض أو وضع هذا المبلغ في مشروع معين؛ لكان قد كتبه فهو يكتب كلّ شيء، ثمّ أنه أيضًا لم يكنْ له مأوى آخر غير بيته، بكل تأكيد كانت تلك الأموال في البيت، تذكرت موته المفاجئ إثرَ حادث سيْر، وزواج أمّك من جلال، والثراء الذي تحوّل إليه جلال؛ كلّ ذلك ألقى ببذور الشك بداخلي.

***

سمر

فقدَ البيتُ حيويته، لم يعتدْ أن تغيب عنه هكذا، رغم أنّ سها بين يديه إلّا أنه يفتقد سمر، فقد كانت بنته حين حُرم ابنه، كانت صديقته حين حُرم زوجته؛ بنتًا ليست من صلبه، لكنّه أبدًا لم يعتبرها كذلك. أمسك هاتفه محدثًا إيّاها:

- سمر، أنسيت أنّ لك أبًا اسمه جلال؟!

- مرحبًا يا أبي، لا تقل ذلك.

- ألمْ تكتفِ من الإقامة عند خالك!؟

- لا يا أبي، فقط هي تلك الدورة التدريبية التي التحقت بها هي من تربطني بالقاهرة، فورَ أن أنهيها سأعود على الفور.

اتّخذت من تلك الدورة التدريبية حجةً لها للمكوث عند خالها، أو بمعنى أدقّ للابتعاد عن عمّها جلال بعدما أوغر خالها صدرها تجاهه.

كانت قد اتّخذت قرارًا أن تسحب لقب «أبي» منه؛ فهو ليس أهلًا له، وذلك بعد اقتناعها بمبررات خالها، ولو مؤقتًا، حتى يتسنى لها التأكد ولو حتى بالمواجهة.

ثمّ عادت لتحدّث نفسها: «هل أمحو كلّ تلك السنوات من أجل كلامٍ نسبة تأكيد صحته ضعيفة، وإن كان يبدو منطقيًّا؟!»

استمرّت في وساوسها، دارت بخلدها العديد من الشكوك والأسئلة:

– يرحمك الله يا أمي، هل هنتُ عليك لتظلميني؟! أم عساك تظلمي خالي وتحرميه حقّه، أم أن حبّك له جعلك تنسي بناتك وأهلك، وحتى نفسك.

– له!

عادتْ لتسأل نفسها من جديد:

– لم أرَ من عمّي جلال إلا خيرًا، لم أشعر يومًا أنّي يتيمة الأب.

ثمّ يُعاودها شيطانها لتقول:

– لكن أين حقوقي؟ لن أرتاحَ حتى أحدثه وأعرف الحقيقة، لكن من أين لي بتلك الجرأة التي أمتلكها وأناقشه في هذا الأمر؟ وماذا إن كان مظلومًا؟! سأفتقده بالطبع للأبد، أعرف كرامته وعزّته، أم أنه يتظاهر بهذا؟! ما سرّ انفصاله عن زوجته وعقوق ابنه له؟ إذًا هو ليس بذاك المثالي الذي أستبعد عنه شكوكًا واضحة! يكفي ما فعلته له، لقد رفضت رشاد من أجله، دفنت القلب والعقل من أجل لحظة باكية رأيته فيها، وقبلت بعمر.

– عمر! هل أنا أحبّه فعلًا؟ هل ملك كياني؟ هل أستطيع أن أتخيل نفسي بدونه؟ ما كلّ تلك الأسئلة التي تدور بخلدي؟ بالفعل لقد امتلكني، لا يوجد أحد يزيده، لم يَعُد من الصحيح أن أَمَنَّ على عمّي جلال برفضي لرشاد، عمر أصبح كلّ حياتي، لا معنى لاستفساراتي تلك، لو كان لها معنى لَمَا تركت بيتي ومدينتي المُحببة وأختي لأكون قريبة من عمر.

انتبهت فجأة ثمّ تساءلت:

– أين هو هذا الأحمق؟!

ثمّ سارعت لتتصل به.

– أين أنت يا دنجوان عصرك وزمانك؟

– أهلًا يا سمر، والله أنا مضغوط كثيرًا بسبب العمل.

– إذًا، أنا أترك منزلي وأسرتي؛ بل وبلدتي كاملة لأكون بجوارك وأحمل عنك عناءَ السفر وحججك الواهية، وأنت تمكث طيلة ثلاثة أيام كاملة بدون زيارة تُذْكر، على أية حال، أنت حر!

***

لم يكنْ رضاؤها بالأمر الهيّن، وهو الذي لم يخضْ أيّ تجارب مع الجنس الآخر من قبل، كلّ ما يعرفه عنهم استقاه من أمّه وجدّته. كم تمنى أن يكون له أختٌ يُحدثها ويعرف منها أسرارَ البنات، وبمَ يفكرْن، وكيفية فهم أفعالهن وأفكارهن، لم يكن يريد أن يعرف عنهنّ جميعًا، بل هي.. وهي فقط «سمر». الأنثى بالنسبة له ما هي إلّا سمر، أدرك منذ اللحظة الأولى أن حبّه لها يفوق حبها له مئات المرات، وأنّ عليه بذل الكثير من أجل الاستحواذ على قلبها، لكنه لم يكن يدري متى يصرّح ومتى يخفي، متى يتغزل ليزيد العشق، ومتى يبعد ليقوم الهجر بتأجيج نار الحب، والأهم من متى هو كيف يقوم بذلك، آثر أن يكون على طبيعته ويستنتج من سمر ومكنوناتها كلّ خبايا النساء، فهو لا يريدها إلّا لها، ومن أجلها.

كلّ ما تَمَلَّكها من غضب تبخّر مع أولى دقات جرس الباب. جاء عمر ومعه هدية بسيطة على غرار العشاق، دمية صغيرة تحتضن قلبًا باسمها، تناست أو لعلها نسيت كلّ ما كانت أعدّت له من انزواء عند قدومه، وتظاهر بالغضب تجاهه، وأن تمكث أكثرَ من ساعة حتى تخرج من غرفتها. كلّ ذلكً لم تجسرْ عليه حين سمعت وقع خطواته، حينها أدركت وهي التي لم تعدْ تشكّ في ذلك أنها «تهيم في حبه».

في وسط المنزل، حيث يتمكن الجميع من رؤيتهم، جلست سمر وعمر بعد ما انسحبَ خالها وزوجته. كان الصمتُ يُخيم على جلستهما، أراد أن يكسره فحكى لها عنْ أيامه الثلاث الأخيرة في العمل، وكم كان مرهقًا خلالهم، نفدَ كلامه، فعادَ الصمت ليفرض نفسَه من جديد، فكسرته هي تلك المرة:

– عمر، هناك أمر ما يؤرقني ويخصّ عائلتي، اعتدت في مثل تلك الأمور أن تكونَ سها هي الملاذ لشكواي، لكنْ في هذا الأمر ستكون هي آخر مَن أشكو إليه.

– ماذا بك؟ وما الأمر الذي تخافي أن تشاركيه مع أختك؟!

– خالي أخبرني أنّ أبي لم يَخْلف هذا المنزل في القرية فحسب، بل إنه قبل موته بشهرٍ واحد قام بسحب ما يقرب من مائتي ألف جنيه، كلّ ذلك كان من المفترضً أن تئول لي ملكيته لكنّ أمّي أنكرت ذلك تمامًا، وعلى حدّ قوله، أن أمّي أعطت هذا المال لعمّي جلال، وكان هو أصل ماله وتجارته.

– جدّي الباشا! لا يا سمر، لا أعتقد بأن جدّي آكل لمال اليتيم.

– أرأيت كم هو صعب موقفي، أنا لم أعهدْ عليه أيضًا ذلك، لكن البراهين التي يسوقها خالي لي من عشق أمّي له والأفكار الشيطانية التي تأتيني وتقول إن حنانه الزائد لي، والذي يفوق في بعض الأحيان حنانه لبنته من صلبه ما هو إلّا بعض تأنيب الضمير، أعَرفت الآن كيف أنّ سها هي آخر من يمكن أن أشتكي إليهم، حتّى خالي نفسه كان يتحاشى الكلام أمامها في هذا الصدد، وأنه حين فلتت منه بعضُ الكلمات في اجتماعنا في بيته في نجريج، كادت سها لتقتله بنظراتها واستنكارها.

– غريبٌ أمرك، إذًا.. ما مبرّرات خالك التي ساقها لك؟

– سأل عن رصيد أبي، ووجده قد سُحب كله، ثمّ الثراءُ السريع الذي تحول له عمّي جلال بعد زواجه من أمّي.

– عمّك! هل تناديه الآن بهذا اللقب؟

– لا، لم أفعل بعد.

***

حنان

بدأ الضيوف في التوافد على المجمع. يعتبر هذا اليوم من أسعد الأيام التي ينتظرها فريد سنويًّا، ويحرص كلّ الحرص أن يكون من أوائل المتواجدين فيه. دخل فريد ومعه رشاد ثمّ اتجهَا صوب مكتب اللواء سيد مباشرة.

– السلام عليكم سيادة اللواء سيد.

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فريد باشا.

– أقدّم لك مهندس رشاد، بمثابة ابني.

– أهلًا مهندس رشاد، تشرّفت بوجودك في حفلنا هذا.

قال رشاد:

– الشّرف لي، لم أكن أتخيل حين أصرّ خالي فريد أن يصحبني معه لحفل اليوم أن أجد صرحًا مميزًا كهذا، بارك الله فيكم جميعًا، وجعله في ميزان حسناتكم.

بدأ الحفل وحازت فقراتُه على إعجاب الجميع، كانت حنان تجلس بعيدًا في زمرة العاملين مندهشة من وجود رشاد، ثمّ في ظلّ الإعلان عن أسماء الطلبة وبعض العاملين المكرّمين إذا باللواء سيد ينطق باسم حنان مستدعيًا إيّاها للحضور أعلى المسرح، وما إن اعتلت حنان درجات سلّم المسرح حتى قال اللواء سيد:

– قرّر مجلس إدارة المجمع تكريم الدكتورة حنان يسري للجهد المبذول في إدارة العيادات الصحية، كما قرّر أيضًا ترقيتها لشغل منصب نائب مدير المجمع من تاريخه.

سمعتْ حنان القرار في الصباح، لكن يبدو أن وقع سماعه على أذنيها الآن كان مختلفًا؛ فقد كانت سعيدة بالإطراء الذي تتناقله الألسن المحيطة بها، والفرحة التي لامستها من واقع مباركة زملائها جميعًا، ثمّ بنظرة واحدة رمقت بها رشاد لتتأكد من أنّه يشهد كلّ ذلك.

سيطرَ الأمن على واحدٍ من المدمنين الذين أرادوا اقتحام الحفل، هذا المدمن هو واحدٌ من الذين يتردّدون على العيادة الجديدة التي استحدثتها حنان لعلاج الإدمان، غادرتْ حنان على الفور مستدعيةً المسئول عن عيادات الطب النفسي وعلاج الإدمان، فيما لم تفوّت فاتن الفرصةَ للنّيل من حنان قائلة أمام الحضور:

– لست أدري كيف يُتّخذ قرارٌ بفتح تلك العيادات، والتي تستقطب المدمنين المجرمين إلى هنا، مغامرة غير محسوبة العواقب من دكتورة حنان.

لم يكنْ سيد هو مَن ردّ غيبة حنان، بل كان فريد هو مَن ذَبَّ عنها:

– لا شيء يبدأ كبيرًا سيدتي، أرى أنها خطوة عظيمة من دكتورة حنان، ولها مني كلّ الدعم في ذلك.

***

(١٥)

حفلة معاش

بعد مرور خمسة أيام على خروجه للمعاش، استيقظ يسري كعادته صباحًا، لم يعتدِ الراحة إلّا في الإجازات الاعتيادية والرسمية، شعر بإحباط شديد ولعبت برأسه الأفكار.

خلعَ عباءته المهنية، قرّر أو أجبر لن يُجدي نفعًا إذا وقفت على التعبير الصحيح، فكلاهما يعني السكتة الحياتية لجسدٍ اعتاد طقوسًا طيلة سنواته الفائتة، باتت الآن أساطيرَ سيسترق الآذان كي يتلوها على مسامع زائريه، ناهيك عن صدماته المتوقعة في هذا الحال. حدّث نفسه والدمع في عينيه:

– أصبحت الآن متفرّغًا، سفاسف الأمور كلها آلت إلىّ مسئوليتها، الآن مكالماتي لزملائي ستصبح سؤالًا، وسؤالي سيكون إلحاحًا.

يُمنّي نفسه أن يصدق معها في تحقيق ما قد رمى إليه من أهداف دينية مؤجلة، ويكأنّه بتفكيره العطب ضمِنَ أن يصل إلى ما هو فيه.

دخلَ عليه آدم، كان يريد أن يصارحه بما اقترفتْ يداه، وكم أن خطيب أخته السابق مخادع وكذاب، وأنّه قبل أن يدمّر أخته دمّرَه هو شخصيًّا فأصبح بلا عمل، وعندما هَمَّ آدم بطلب الاستشارة لشكواه، باغته أبوه قائلًا:

– أرجوك أن ترمي بعيدًا عني همومك، فإن لم يكن مثلك يتصبّب عرقًا من مجهودٍ زائد يحصد نتيجته في تحسينِ وضعه الاقتصادي الذي رسمته

لنفسك بتكاسلك وتواكلك وأحلامك المستحيلة، فمَن عساه أن يفعل؟! كان من المفترض، لن أقول أن تتكفّل بي في عمري هذا، لكن على الأقل أن تعطيني بعضًا من عنفوان شبابك في تحقيق أحلامي المؤجلة.

أصابتِ الصدمة آدم فولّى مدبرًا بدون مناقشة أو جدال، فيما استمرّ يسري في همساته:

– خاب أملي في ولدي.

ثمّ نظر حوله مستمرًّا في نحيبه:

– أهكذا يكون منزلي صباحًا! لم أعتده، اعتدت أن أراه منمّقًا، ولم أدخل أبدًا في تفاصيل كيف أصبح كذلك، لدي خططي وأهدافي التي تشغلني عن ذلك، فعالمي الوهمي يلهيني عمّا سواه. أهكذا يشعر الضعفاء، حتى يدي لم تعدْ تقوى على السخاء، تكبّلت مصادر دخلي فندمت على عمرٍ قد فات.

على جانب آخر، كانت هناك مفاجآت في انتظار يسري، أوّلها حفلة معاش له كانت فكرة رشاد، دعَا المقرّبين من الموظفين، وهاتف آدم وأخبره أن تكون سرًّا، وأن يُعلم باقي أفراد الأسرة ويتركها مفاجأة لأبيه يسري.

رغم الغُصّة التي كانت في حلق آدم، إلا أنه تفهّم موقف أبيه، فهذه أول مرة يُوجه له فيها نقدًا لاذعًا مثل هذا، تزامن هذا النقد مع الظروف الجديدة التي أصبح فيها أبوه معَ فقدانه لحياته العملية وجزء من راتبه.

صحيح أنّ المعاش الذي سيتقاضاه يسري ليس بكبير، لكنّه ومع الدخل الذي يدرّه عليه إيجار بعض المحلات في الدور الأرضي لمنزله؛ كفيلٌ بتوفير

حياة كريمة لهم، إلّا أن حال آدم وتفكيره الذي لا يروق ليسري دفعه لتوجيه هذا النقد الذي جاء متأخرًا.

تحامل آدم على نفسه، وأخبر أخته وأمّه بنية زملاء أبيه- يتزعّمهم رشاد- في إقامة حفل له.

رجحت حنان أنها لا بدّ أن تخبر أباها بذلك حتى يستعد، فقال آدم لها:

- رغبتهم أن تكون مفاجأة.

- سأحرص على أن تكون مفاجأة يا آدم؛ لكن لا بدّ من أن يكون مستعدًّا لهم، ومستعدًّا لالتقاط الصور، دعك من هذا لن يعرف سببَ أو أعداد الزائرين، لكنّه سيكون متأهّبًا.

هكذا كان ردّ حنان عندما أخبرها آدم، فحنان أبوها هو عزّها وفخرها، زملاؤه يريدون وبنيّتهم الطيبة مكافأة زميل لهم، لكنّها تريده أن يكون في استقبالهم في أبهى صوره.

***

فى المساء، كان بيت يسري متأهّبًا لإقامة الحفل، والذي كان مليئًا بالمفاجآت.

دخل رشاد ومعه مجدي وزميلان آخران، وكانت أولى مفاجآت الحفل هي زفّ خبر سعيدٍ ليسري بقبول إدارة البنك أن يلتحق ابنُه آدم للعمل في الأمن.

كان هذا هو أفضل أخبار الحفل بالنسبة ليسري الذي آلمه وبشدّة ما جري بينه وبين ابنه صباحًا، فما إنْ سمع هذا الخبر حتى أسرعَ لاحتضانه وضمّه بين ذراعيه، وبالرّغم من أنّه كان يتمنّى له عملًا أفضل إلّا أنّ هذا العمل بمثابة جائزة عظيمة مقارنة بالحال المزرى الذي فيه آدم.

جاء عمر الذي وجّه رشاد له الدعوة هو الآخر، لكنه لم يأتِ وحيدًا، كانت سمر بصحبته هي وخالها صفوت الذي أصرّ على ألّا تخرج سمر بمفردها في صحبة عمر.

رشاد وسمر.. وبالرغم من أنّ كلا منهما لم يحدّث الآخر إلّا في دقائق معدودات في يوم الزفاف بكتامة، إلّا أنّ كليْهما كان الشاغل الأكبر من حيز تفكير الآخر في آونة ما، وإن قلت ساعاتها.

تلاقيهما اليوم كان فاترًا؛ فسمر قد دخلت الحفل متشبّثة بذراع عمر على غير عادتها، ولم تلتفت لنظرات خالها التي تنتقد فعلها، وكأنّها أرادت أن تثبت لغيرها ولنفسها أنّها أصابت في اختيارها، وأنها باتت الآن مع فارس أحلامها.

أمّا رشاد هو الآخر فكان يسرقُ نظراتٍ على غير عادته حين يزور بيت يسري، تلك النظرات المختلسة لم تكن لسمر؛ بل كانت لحنان.

ثوانٍ.. ودقّ جرس الباب ليفتح يسري قائلًا:

– تفضّل يا مستر حسن.

سمعتْ حنان اسم حسن، لتُلقي نظرة على الزائر، وتُبدي دهشتها قائلة:

– حسن!

تحاشت أن تتلاقى عيناها مجدّدًا به، وارتابت من زيارته، ومنه شخصيًّا.

تدارك آدم ذهولها فجذبَها برفق، وبالرغم من أنّ حسن لم يكن مستساغًا من قِبل آدم إلّا أنه أدرك أنّ هذا يومه، وعليه أن يتحمل الجميع؛ يتحمّل اللوم الجارف من أبيه صباحًا، ثمّ الآن يرسم ابتسامة ويرحّب بأكثر شخص يمقته حاليًا، وأخيرًا أن يقبل المنّة التي ألقيت له من زملاء أبيه.

في توتّر ملحوظ، صافح حسن جميع الحضور، ثمّ انضمّ إلى زملائه في العمل في أخْذ صورة تذكارية مع يسري، وما إن التُقطت الصورة حتى قال له مجدي لُيخفف من توتره:

– أصبتَ يا مستر حسن في حضورك، بإذن الله يرزقك الله مَن هي أفضل منها.

***

سعاد

منذ أنْ أخبرت سمر عمر بشكوكها حول جلال، إلا وقد اختلطت لديه الأفكار، أمسك هاتفه، وقام بالاتصال بجدّته سعاد متسائلًا عن عدم حضورها هذا الشهر، فأخبرته أنّها ستقوم بزيارتهم غدًا.

جاءت سعاد كعادتها محمّلةً بالخيرات لابنتها وأحفادها، لا يوجد مرّة واحدة دخلت فيها خالية الوفاض، ما إنْ جاء عمر من البنك حتى اختلى بها.

– جلسة استجواب جديدة يا عمر، كم رقمُها يا حبيبي؟ (سألته سعاد والابتسامة تعلو ثغرها).

– حبّ يا جدتي، لا تقولي كذلك. لكن إنْ أردتِ أن تعرفي الرقم، فاضربي عدد زياراتك لنا في اثنين، ثمّ اجمعي عليهم عددَ زيارتي لك من بعد تجاوزي للخامسة من عمري. آهٍ أيّتها العجوز، تعرفين كلّ شيء، وأنا مَن كنت أظنّ أنك...

– أنّي ماذا يا ولد!! جيل قديم ستسأل ما يحلو لك دون إسقاطه منّي على واقعك، سأخبرك سرًّا لكن لا تخبر به عمر!

– ها...

– أنا أعرف من البداية أنه يحبّ سمر، جدّتك ذو خبرة يا حفيدي العزيز. (هكذا همست في أذنه).

– إذًا، بلا أيّ مقدمات أيتها الجدّة الماكرة، أريد أن أعرف ملابسات طلاق جدّي الباشا لزوجته الأولى، وزواجه الثاني من والدة سمر.

– موضوع قديم جدًّا يا ولدي، ما أهميته بالنسبة لك؟

– سأخبرك لاحقًا.

– لا شيء، فجأة وبدون أيّ مقدمات تزوّج جدك الباشا من ميرفت، وعلمنا جميعًا، ووجّهنا له لومًا شديدًا على ذلك، فهو على وشك أن يهدم بيته بتلك الزيجة. تحدّثنا كثيرا مع وداد لكنّها كانت متشبثة برأيها، لم نستطع إثناءها عنه، خاصّة وهي كانت ونعْمَ الزوجة معه، بينما هو كان مقصّرًا في حقها.

– وماذا عن أمّ سمر؟

– ميرفت رحمها الله، جاءت لي أيضًا، لم تكن زيارتها مستساغة بالنسبة لي وقتها، أبدتْ أنّ هذا حق لها، وأنّها لم ترتكب جُرمًا، وهو الكلام الذي لم أكن لأقبله حينها، فهي مِن وجهة نظري خطفت زوجًا من زوجته؛ لكن العرض الذي قدمته حينها بأنها تريد أنْ تعيش في كنف جدّك الباشا، وترضى أن تكون ذات النصيب الأقلّ منه فيكفيها أن يطلّ عليها كلّ حين، وأنها لا تريد أن تهدم بيت وداد، كما أنّها أصبحت متعلقة بجلال حدّ الموت.

– إذًا.. ماذا كانت تريد من زيارتها لك؟

– كانت تسأل عن مدى امكانية ذهابها إلى وداد، وتخبرها بعرضها هذا؛ لكنّي منعتُها لتوقّعي ردّة فعلٍ غير معلومة الأبعاد من وداد عليها.

– هنا حدث الطلاق!

– نعم بالفعل هذا ما حدث، بعدما وجدت من جلال وميرفت التشبث التام بالارتباط بعضهم البعض، ورضاهم عن أيّ حلّ بجوار ذلك دون انفصالهما وهو بالطبع ما لم يُرضِ وداد، فكانت لها بعض القرارات التي لم نكن لنراجعها فيها، كمنعها رشاد من زيارة أبيه، وأن تكون الزيارات بشكل رسمي في المكان المخصص لذلك.

– وماذا عن حالة جدّي الباشا المادية آنذاك؟

– حالتهم عادية، تغيّرت بالطبع بعد انتقالهم للعيش في دمياط.

– مِن أين لهم هذا التغيير؟

– عمر، هل من الممكن أن تكون أكثر وضوحًا!

– حقيقةً يا جدّتي، عمّي صفوت خال سمر، وسوسَ إليها ببعض الأشياء تجاه جدي الباشا.

– أعاد مِن جديد ليقول ظنونَه تلك! لقد سمعنا بالفعل اتهامات صفوت وقتها.

كنت أجلس ذاتَ مرّة مع جدّك صلاح وجدّك عبد المجيد، هذا الأخير الذي أخذ يدعم شكوك صفوت، خاصّةً بعد التغير السريع في حالة جلال المادية؛ لكنّ جدّك صلاح نهرَه بشدة، وقال له «جلال مجتهد وماهر في حرفته، لكن ظروف البلد هنا حالت دون انطلاقته، بالتأكيد في دمياط فُتحت له أبواب الرزق، ما كان جلال ليقبل الحرام أبدًا».

في النّهاية لم يجرؤ أحدٌ منّا على مناقشة جلال بخصوص ادّعاءات صفوت.

– وما رأيك أنت؟!

– لو أردت رأيي أنا، فإن كانت خطيبتك تشكّ في أمر جلال، فعليها أن تستفسر منه، ولا تترك شيئًا في جوفها. وعليك أن تشجّعها على ذلك، لكن بطريقة مهذّبة ومحترمة، ويفضّل أن تكون غامضة. هي صاحبة المال وهي من تملك الحقّ في البحث عنه، وإيجاد ردود منطقية لشكوك خالها.

***

في صبيحة اليوم التالي لحفل معاش أبيه، كان أوّل ما فعله آدم هو الاتصال بحسن، أمسك حسن بهاتفه مندهشًا:

– آدم، لِمَ قد يتصل الآن؟! السّلام عليكم كيف حالك يا آدم.

– وعليكم السلام، بخير والحمد لله، انصرفت سريعًا بالأمس، أستاذ حسن كنت أريدك في شيء ما.

– تفضّل.

– تعرف أنّي كنت أعمل مع الأستاذ سلامة، واختفاؤه المفاجئ جعلني متخبطًا.

– لقد عرفت بالأمس أنّك حصلت على وظيفة في البنك.

– لا عليك بتلك الوظيفة، هي فقط لإرضاء أبي.

– إذًا أخبرني، ماذا باستطاعتي أن أقدمه لك؟

– سأتكلّم معك بصراحة، أظنك عرفت طبيعة عمل أخيك حقّ المعرفة، إن لم تكنْ بالفعل شريكًا له فيها، كما أخبرني بذلك قبل أن يتراجع عن كلامه في آخر لقاءاتنا.

– ماذا تقصد، لا أفهمك؟!

– لا، أنت تفهمني جيدًا، لقد تحدّثت معك بصراحة وبطريقة مباشرة، أرجوك أن تعاملني بالمثل.

– وليكن أنّي أعرف مقصدك، فماذا إذًا؟!

– أريدك أن تضعني على الطريق وأنا سأكمل، أو أن تتوسّط لي عند مَن هم دونك فأستكمل ما بدأت، أو إن كان ما وعدني به سلامة طيّ التنفيذ فعلى الأقلّ أن تضمن لي عملًا مؤقتًا حتى يظهر من جديد، أو عوضًا عن ذلك كله أن تدلّني على كيفية التواصل مع سلامة، وأنا سأتولى أمري.

– آدم، أوّلًا بالنسبة لسلامة فلقد سافر، ولا أدري متى سيعود.

ثانيًا كلّ ما أخبرك به سلامة في لقائكم الأخير على حدّ قولك هو الصواب، فليس بيني وبين أخي أيّ عمل مشترك، ولست بحاجة لأؤكد ذلك لك أو أنفيه، لكن رفقًا بك وبآمالك، فإنّه صدقًا ليس لي أيّة صلة بعمل سلامة الذي لم أعرفه إلّا مؤخرًا، ورفضته بشدّة، ولولا اعترافك بمشاركتك له، ما كنت لأصارحك.

وأخيرًا، أنت مثل أخ أصغر، إن كان عملك مع سلامة قد انقضى وانتفت كلّ السّبل للعودة له؛ فهذا حبّ من الله لك حيث أبعدك عن الحرام وما فيه، وما يقود إليه.

(١٦)

عُشّ الزوجية

بعدَ خطبته لسمر، تحول عمر من هذا الشاب الذي كانت أكبر همومه هو الفوز بقلب سمر إلى شخص آخر أثقلت الهموم تفكيره، فأيامه الأُول في البنك كان يملؤها الشغف وحبّ اكتساب مهارات جديدة، لكن الروتين أصبح محاصرًا له بشكل كبير، وعليه أن يخلق من الوقت وقتًا ليستمرّ في اكتساب علوم جديدة يتْبَعُها خبرات في مجال عمله صاحب النسق السريع في التغيير.

كلّ تلك الأحلام العملية، بالإضافة إلى المشاكل الحياتية التي طرأت عليه مثل تلك الصّدمة التي تلقاها في جدّه جلال، وأيًّا كان مظلومًا أم لا؛ فإنها ستكون لها أثر سيّئ إمّا على سمر من ناحية طموحها ليكون لها مالها الخاصّ بعدما أصبحت شبه متأكدة من هذا، أو من ناحية جدّه الذي وإن أصابت سمر هي وخالها في اتّهامهم له سيكون غُصّة في حياته مع سمر، وبكلّ تأكيد الثقة فيه شخصيًّا سيصيبها العطب فهذا الذي ربّاها قد فعل ذلك، فبالتأكيد عائلته لن تخلو من تلك الصفات السيئة، وإن حتى لم يتطرق تفكيرها لذلك، فخالها الذي زرع شكًّا فيها، أثمرت شجرته بحقيقة حتى وإن كانت متأخرة، فإنه لا يألوا جهدًا في إقناعها بسهولة بأنّ العرق دسّاس، وسيكون حديثه هذا كالنار تحت الرماد، يظهر في أيّ خلاف بينهما إن كان هناك ارتباطٌ من الأساس.

ناهيك عن المشاكل التي تواجهه في بحثه عن ذلك المسكن الذي يناسب سمر، يراوده كثيرًا فكرة الإيجار إلّا أنّها ستقتص جزءًا ليس بالهيّن من راتبه، لكنه لم يستبعدْ هذه الفكرة تمامًا، فظلت خيارًا متاحًا.

وهو في خضمّ تفكيره، جاءه خبر سعيد، فعلى الفور لم يملك نفسه إلّا وهو يخبر سمر به:

– سمر، عندي لك خبر سعيد.

– والله! ما هو؟

– لقد وجدت مسكنًا ملائمًا في مكان جميل، وبسعر رائع.

– كلّ تلك المميزات، أين يوجد مكانه؟

– سأذهب اليوم مع أخي مصطفى لمعاينته، هو قريب من منزل خالك بالتجمع.

– مِن أين عثرت عليه؟ وكم سعره؟

– صديق لمصطفى أخي يتحدّث بالصدفة عن قريب له ينوي شراء مسكن آخر أو للهجرة لا أدري تحديدًا، المهمّ أنه يفكر في بيع منزله مع السماح للمشتري بتقسيط الباقي على عامين، وكأنّ عرضه صُمّم خصيصًا ليناسب إمكانياتي.

– عرض لا يفوت نهائيًّا، رغم أنّه لو عرضه بشكل أوضح، وعلى نطاق أوسع لربّما درّ إليه أكثر، لكنه إذًا نصيبنا.

– الحمد لله.

آدم

في أول يوم عملٍ له بالبنك، حدّث آدم نفسه: لم يكن هذا طموحي، أعود من جديد لأنتمي لتلك الطبقة الكادحة، أضعُ نفسي وبنفسي في الساقية التي لا خلاص منها، سُحقًا لك يا سلامة، بعدما وضعتني على أول الطريق، ورسمت لي من الآمال مداها، تتركني فجأة. أعمل في تلك الوظيفة فأقف لأُرشد هذا وأومأ برأسي لهذا، أبتسمُ طيلة يومي وأنا أستفسر عن الغرض من زيارة العميل للبنك، فيجيب بكلّ سماجةٍ خدمة عملاء، فأضغط على رقم واحد، وآخر سحب، إذًا رقم اثنان، ثمّ أختمها برسم ابتسامة عريضة قائلًا «تفضّل، انتظر».

بعدَ مرور عدة أيام، وفي أحد حواراته مع أخته حنان، قال لها:

– حنان، أترضين أن يكون هذا مصيري!

– أرضي يا آدم، وقل الحمد لله.

– الحمد لله، لكنّي لا أريد هذا الذل، أريد العمل الحرّ، أشعر بأن وضعي في تلك الدنيا ليس أن أبقي حبيسًا لمكتب أوجّه من خلاله مَن هُم أقل منّي بمراحل ليودعوا أموالًا اكتسبوها بمهارة أقلّ منّي بكثير.

– الأرزاق موزّعة يا آدم، وتلك الوظيفة التي لا ترتضيها الآلاف يتمنونها، واعلم أنّ قوانين البنوك تحول بين الأقارب حتى الدرجة الثالثة من الالتحاق بها، ولوْلا فضلُ الله عليك ثمّ تدخّل مهندس رشاد لَمَا فزت بتلك الوظيفة.

– فزت بها! ها.. ها، أخالني عملت مديرًا، ما أنا إلّا مجرد شخص يقبع على مدخل البنك ينظّم الدخول والخروج، ويغرس كفّه في متعلقات العملاء، هذا ليس طموحي.

– ولِمَ لا تطوّر من نفسك وقدراتك وإمكانياتك لتتماشى مع طموحك الهائل، دعْني أحدثك بصراحة، أنت لم تفعل شيئًا، أضعت العديد من الفرص، دائمًا ما تعيش في ثوب غير ثوبك، وأحلامك تفوق قدراتك. لا حرج عندي في ذلك، لكنّي لا أرى أيّ سعي منك لتقليص هذا الفارق لتدرك ما تريد.

– لا أتّفق معك، حين عملت مع سلامة تغير كلّ شيء، وكنت على مشارف إدراك إمكانياتي الحقيقية، هو مَن أخرجها وأحسست فيه أنّه وضع يديه على ما ينقصني، لكنّه اختفى فجأة، كان سلامة هو همزة الوصل بيني وبين أحلامي، على يديه كنت سأكسر قواعد الفقر.

– وما المانع أن تستكمل ما بدأه معك بدونه، لقد عملت معه لفترة تجاوزت الستة أشهر. إن كان حقًّا طبيعة العمل الذي لا أدري ماهيته هو ما يناسبك، فعلى الأقلّ كان يجب أن تتعلمه.

تنهّدت ثمّ قالت:

– آدم، لا تفرط في فرصة البنك، لا تُحمّل أبي فوق طاقته.

انصرفَ آدم، وكان على وشك أن يخبر حنان بطبيعة عمله، إلّا أنه ترك المجال مفتوحًا لعلّه ينجح في إجبار حسن أن يضعه في نفس المنزلة التي وضعه فيها سلامة من قبل، ويستكمل معه ما بدأه مع سلامة، أو أن يسانده في حلمه للثراء السريع.

غادة

شعَرَ رشاد وأثناءَ عودته من البنك برغبة في أن يتناول غذاءه في أحد المطاعم، اتصل بأمّه وأخبرها أنه سيتأخّر قليلًا، وعليها ألّا تنتظره على الغداء.

يذهب رشاد إلى هذا المطعم عندما تتملّكه مثل تلك التقلبات المزاجية والرغبة الشّديدة في الوحدة وعدم مخالطة الآخرين، يودّ ألّا يعرفه أحد، ولا يعرف هو أحد، أنْ يكون مجهولَ الهوية بالنسبة لمَن يتواجد معهم، لا يندرج في حوارات جانبية مع القائمين على المطعم الذين ألف بعضهم وجهَه، يريد هذا المكان ليحقق من خلاله انفراده بنفسه، يُغلق هاتفه، يحجز مائدة في ركنٍ منزوٍ بعيد عن أعين الناس، ينعزل، وينطلق في تفكير عميق، وذكريات قديمة. يتكئ برأسه على الأريكة، يُغمض عينيه، يتطهّر من أفكاره، ينغمس في سُباته مستيقظًا، ثمّ يهمّ منصرفًا.

لا يشترط أن يكون مهمومًا ليدخل في تلك العزلة تحتَ أعين المراقبين، في تلك المرّة عكر صفوه تلك الفتاةُ الصغيرة التي بالكاد تصل إلى الثالثة عشرة، تجلس مع شابّ في مائدة مجاورة لمائدته استطاع بطرف عينه أن يلمح مَن هي!

– غادة!

– «أبيه» رشاد!

نطقتْ غادة في ذهول وهبّت واقفة، رغم ما يمنحه أبوها لها من دلالٍ مفرط، إلّا أنه لا يرضى بمثل تلك التصرّفات، ارتعدت ثمّ أجابت:

– والله، إنها لأوّل مرّة.

عندما وجد الشابّ الذي معها ردّة فعلها، استأذن سريعًا، ثمّ انصرف في عجل.

أخذ رشاد غادة، وذهب بها إلى بيتها، طيلة طريقهما ونظراتها تستسمحه ألّا يخبر أباها، ثمّ ترمي كلامًا بين الفنية والأخرى عن كوْن تلك الجلسة هي الأولى لها وستكون الأخيرة، وأنّ من البنات ممّن هنّ في جيلها لا يمثل مثل ذاك التصرف لهنّ شيئًا. قالت ما قالت، وأوحت بنظراتها ما أوحت، ورشاد يسوده الصمت ويخيّم عليه الهدوء.

ما إنْ ولجوا إلى المنزل، حتى تعالتْ أنفاسها حين وجدت أباها موجودًا، لكن رشاد انتشلها من كلّ هواجسها بقوله:

– اتّصلت بي غادة اليوم، قالت إنّها لا تفهم شيئًا معينًا في الرياضيات سأشرحه لها، ذهبت وأخذتها من المدرسة اليوم وأنا عائدٌ في طريقي.

جلسا سويًّا، شكرته، ألقى بذراعيه خلف رأسه، وشبَّك أصابعه وأراح رأسه بينهما.

– أتدرين يا غادة، كلّ شيء في أوانه يكون أفضل، لو قطفت الثمرة قبل نموها لغمرتني السعادة اللّحظية بقطفها، لكنْ بذلك سأفتقد تذوّق طعمها الحقيقي. سأحكي لكِ موقفًا طريفًا، أثناء تواجدي في فرنسا....

– فرنسا! أو قد ذهبت إلى فرنسا؟

– تقاطعينني، أو لا تودّي الاستماع إلى الموقف لتأخذي منه الحكمة؟

– آسفة.. آسفة، استمر.

– أوّلًا، نعم لقد ذهبت إلى فرنسا، مكثت بها قُرابة العام، كان لوالدك الفضل فيها بعدَ الله عزّ وجل، فور تخرجي مباشرة، وبعد إنهائي لأوراق إعفائي من الجيش، وجدته يزُفّ إليَّ هذه البشرى وهي دراسة إدارة أعمال بفرنسا. كانت تلك المنحة هي السببَ في تعجيل انتقالنا إلى القاهرة وهو ما كنت أنتظره، وبشدّة.

أصرّت أمّي حينها أنها لن تطيقَ الجلوس بدوني في البيت، وأنه طالما في نيّتي الانتقال إلى القاهرة، وبما أن والدك كان قد وعدني أن يُلحقني بالبنك فورَ عودتي من فرنسا، فلا مبرّر أن تمكث هي في طنطا وبدوني. أكتمك سرًّا؟!

– نعم، بكل تأكيد.

– أمّي تُصاب بالملل من الجلوس مع أقاربها، كانوا سيتناوبون في المبيت معها بدافع أنّي غير موجود، وهو ما لا تحبّه أمّي، فاتفقت معي أن تنتقل هي للقاهرة في مكانٍ لا يعرفوه، وقمنا بإخبارهم بأنها مسافرة معي إلى فرنسا، وكان لوالدك فضلٌ في ذلك، حيث كان المسكن الإيجار الذي اقتناه لنا هو مسكنها في فترة غيابي.

– أتدري بما أنّي أنادي على عمّتي وداد بـ "عمتو"، كنت أظنّها أختًا لأبي إلى أنْ فهمت من أمّي أنها ابنة ابن عمّ أبيه.

– صحيحٌ ذلك، لكنّ خالي فريد فعل معنا ما لا يفعله الخال الشقيق، والله لقد فرحتُ لفرحته حين ولادتك. كنتِ في شهورك الأولى عند عودتي من فرنسا، رأيت فرحته الغامرة بك، واعتبرتك أختي الصغيرة، لذا فليس من الواجب أن تخوني ثقة أبيك فيك، وكما قلت لك إنّ كلّ شيء في حينه يكون أفضل وأجمل.

– فهمت يا «أبيه»، ما الموقف الطريف إذًا؟

– نسيت، أو كان بيننا موقف طريف؟!

***

أنهى رشاد حواره مع غادة وهَمَّ بالانصراف، استوقفه فريد وأصرّ عليه أن يتناول معهم الطعام، فقال له رشاد إنّ والدته في انتظاره، واعتذر وغادر.

شعَرَ فريد أنّ شيئًا ما وراء زيارة رشاد المفاجئة، تساءل في نفسه:

– منذ متى وغادة تشتكي من الرياضيات؛ فهي مادتها المفضلة؟!

ثمّ وجّه كلامه إلى دولت قائلًا:

– تعرفين مدى حبّ رشاد لغادة، وأنها تشعر بأنّه أخٌ أكبر بالنسبة لها.

– ليس هي فقط، بل أنت، وأنا قبلكما.

– حسنًا، حجّته اليوم أحسست أنها ليست منطقية، وأنّ شيئًا ما قد حدث!

– شيئًا! مثل ماذا؟

– لا أدري، لكنْ شيء صعبٌ في الرياضيات! لم يُقنعني هذا السبب، أحسست أنّها فعلت شيئًا وهو يحجبه، على أيّة حال أريدك أن تركزي معها أكثر، وأن تقلّلي من جرعة الدّلال قليلا.

– وإن كنت لا أرى مبرّرًا لطلبك، فغادة تملك عقلًا راجحًا، وتدرك ماذا تفعل رغم صغر سنّها؛ لكنّي سأفعل.

– كَبُرت غادة سريعًا، بالأمس كانت رضيعه بين أحضانك.

– نعم، لم أكن لأصدق أنّي سأحبها وأرتبط بها هكذا.

– حتى تعرفي أنكم أنتم النساء تحكمون على الأشياء بتأثيرها الوقتي القصير، وأنّ تداعيات المستقبل دائمًا ما تسقط من حساباتكن.

– طبعًا كلامك غير منطقي، ماذا تنتظر من زوجةٍ يخبرها زوجها بأنه سيُنجب مِن غيرها؟!

– ألمْ تسألي نفسك ما الدافع لذلك؟ أليس هو تعويضًا لك عن حرمانك من نعمة الأمومة، وحتى يكون جليًّا أمام الجميع أنّ غادة بنتٌ لك، ثمّ إنّي لم أقْرُب تلك الزّوجة بالرغم من كونها قمة في الجمال.

– بالرغم من أنّ الشكّ مازال يساورني في تلك الجُزئية بالذات، لكنّي مضطرّة من قبول روايتك تلك.

– ها.. ها، مازلتِ تغارين عليّ لكنْ صدقًا كلّ ما هنالك أنّي قمت بعمل الفحوصات الطبية اللازمة لها لتأكّد خلوّها من أيّ أمراض ثمّ قمنا بعملية

اللقاح. الزواج الذي حدث بيني وبينها كان على الورق فقط، هي أيضًا اشترطت ذلك حين اتّفقنا في البداية وكتبنا كلّ ذلك في بنود العقد الذي بحوزتك.

– هذا العقد هو ما طمأنني، بالمناسبة.. ألمْ تحاول هي في مرّة من المرات أن تسأل عن غادة؟

– لا، لم تفعل، يا عزيزتي الأمرُ كلّه من أجل المال فحسب.

– لا أدري كيف لأمّ أن تُفرط في ابنتها؟ لوْلا أنّ فكرتك قد راقت لي، وأنك وضعتني أمام الأمر الواقع، لمَا قبلتها نهائيًّا.

– لقد رتبت لكلّ شيء، والحمد لله غادة بين أيدينا.

– الحمد لله.

***

(١٧)

مضى يومان، ولم يَغمُض لآدم جفن، أخذ يتدبّر فيما قاله حسن، كلامه منطقي بالفعل، كاد ينهي الأمر برمّته إلى أن جاءته معلومة لن يهدأ حتى يُخبره بها، لكنه أدرك أنّه من الممكن أن يراوغَ من جديد فآثر أن يحدّث أقرب الناس إليه؛ «رشاد».

في الصباح تَحيَّن الفرصة وأخبر رشاد أنه يريده في أمر شخصي، ولن يستغرق هذا إلّا وقتًا قليلًا، أبلغه رشاد بأنّه سينتظره بعد انتهاء أوقات العمل الرسمية. انتهى اليوم وكاد رشاد ينسى أو يتناسى ميعادَه مع آدم، فمزاجه اليوم غير مُهيّئ لسماع أي شيء، لكن آدم كان مُرابطًا أمام البنك، وتلقفه قائلًا:

- لن أضيّع من وقتك الكثير يا بشمهندس.

- لا تقلْ ذلك يا آدم، دعنا نتجوّل، لم أمشِ في هذا المكان منذ فترة بعيدة.

- سأدخل في صلب الموضوع مباشرة.

- تفضّل.

- مستر حسن!

- ماذا فعل؟

– أرجو ألّا تفهم كلامي التالي عنه بدافع الكُرْه من ناحيته، لأنه انفصل عن أختي حنان، فقد كنت فرحًا تمامًا حين تمّ ذلك.

– وما الداعي لفرحك؟! حسن شخص رائع كما هي حنان أيضًا، ومن الوارد اختلاف وجهات النظر هي مَن حالت بينهما.

– لا، حنان أختي جوهرة، وحسن لا يستحقّها، على أية حال ليست حنان هي لُبّ الموضوع، سلامة أخوه هو مقصدي.

– ماذا عنه؟ كلّ ما أعرفه أنه مسافر الآن.

– هل أخبرك بذلك؟

– نعم، لقد أخبرني حسن بذلك، لكنّي لم أسترسل معه في هذا الأمر.

– سأفاجئك، أنا عملت مع سلامة!

– عملت معه، في ماذا؟

– تجارة من نوع ما، لا يهمّ ذكرها.

– إن كنت تنوى إخباري بشيء، فأرجو أن توضحه.

– تجارة عادية في الأدوية.

– ثمّ؟!

– كان ينوي أن يستقلّ بعمل ما، ثمّ فجأة اختفى.

– ثمّ؟!

– اختفاؤه هذا لا يطمئنني.

– أشعرُ بأنك غير واضح يا آدم، ليس معنى أنّ شخصًا وعدك أن يهُم بفعل شيء، ثمّ تنقطع أخباره عنك؛ أن يكون ذلك دافعًا لقلقك، أرجو أن تكون أكثر وضوحًا!

تنهّد آدم، وبشيء من الحسرة قال:

– عقدتُ آمالي عليه، واختفاؤه المفاجئ دمّر كلّ ما رميت إليه.

– شيء عادي جدًّا، عَلَّهُ غير رأيه فيك، ولم يعدْ يرغب في مقابلتك.

– مهندس رشاد، أنا كنت أعمل مع سلامة في تجارة نوع محرّم من الأدوية!

***

توقّف رشاد للحظات، ثمّ قال:

– مِن هنا يمكن أن نبدأ، احكِ لي تفصيليًّا.

– عملت مع سلامة في الحصول على تلك الأدوية من ميناء دمياط لفترة كبيرة، كان قد أخبرني ذات مرّة أنّ حسن هو الرجل الثاني في تلك السلسلة، وأنه هو مَن أرشده إلى هذا الطريق، وأنّه يمْقُت هذا المجال، ولولا التزاماته المادية التي وضعه فيها حسن لتركه تمامًا.. ثمّ في المرة الأخيرة التي التقيته فيها وجدته ينفي عنه كلّ ذلك، بل ويؤكّد أن كلّ ما دار حول حسن ما هي إلّا أشياء نسجها من وحي خياله لغيرته منه.

– أشعرُ بالأسف لاشتراكك في هذا، فأبوك لا يستحقّ ذلك منك، لن أجلدك بسوطِ نصائحي، لكن عسى أن يكون ما أخبرك به سلامة في المرة الأخيرة هو الصواب، ثمّ ما دافع سلامة أن يخبرك بأنّ حسن مشترك في تلك التجارة؟

– لست أدري، مِن الجائز أنّه اطمئن لي فأراد أن ينبّهني لأهمية الأمر حتى لا أخبر أحدًا بطبيعة عملنا، أو من الممكن ليُشْعرني أنه أُجبر على خوض ذاك النوع من التجارة حيث لا بديل له عنها، ويقارن نفسه بأخيه الذي لا يمتلك أيّ مبرر، أو شيء آخر لا أعرفه. على أية حال لقد نفى حسن كلّ كلام سلامة عندما هاتفته أول أمس.

– وهل صارحته بذلك؟

– نعم صارحته، وكدتُ أقتنع بكلامه، لوْلا أنّي تقصيت عن سلامة من زميل لي يعمل في الجوازات، ليؤكّد لي أن سلامه لم يغادر مصر أبدًا.

أصابَ الذهول رشاد، وأنهكه المشي، ارتكنَا إلى أقرب مطعم وجلس مع آدم وقال له:

– هل أنت متأكّد تمامًا من أقوالك؟

– نعم، متأكّد تمامًا.

– مِن الجائز أيضًا أنّ هذا خداع من سلامة للجميع حتى يتلاشى هذا التهديد الذي يتلقّاه بافتضاح أمره.

– أو مِن الممكن أنّ حسن – وعلى حسب ما فهمت من آخر لقاء بيني وبين سلامة – مَثَّلَ ضغطا شديدًا على أخيه الذي أراد أن يستقلّ عنه ويترك تلك التّجارة المحرمة، فمِن الممكن أن يكون قد هدّده حتى يستمرّ معه، كان سلامة مرتبكًا جدًّا في هذا اليوم.

– إذًا ما الداعي الذي يجعله يسوق المبرّرات ليُبرأ ساحة أخيه أمامك وهو يريد الإقلاع عن تلك التجارة، بينما حسن يريد منه الاستمرار فيها؟

– أنت محقّ في ذلك، لكن لو قلبنا الآية وقلنا بأنّ حسن هو من يريد أن ينهي تلك التجارة ويريد من سلامة أن يقطع أي صلة بها وبالتأكيد أنا من ضمن هذه الصّلات؛ فالكلام حينها سيبدو منطقيًّا.

– أنت تقصد أنّ سلامة يريد أن يُوهم حسن بأنه بالفعل استجاب لنصيحته، وسيترك تلك التجارة، والتي افترضت معك جدلًا أنّ حسن أصلًا مشارك فيها.

– هذا يبدو منطقيًّا أكثر بالنسبة لي.

– إذًا، فسلامة هو المحرّك لكلّ تلك الأحداث، وقد يكون قد خدع حسن أيضًا بالسفر، ويموّه لذلك بطلب أموال من أخيه ويُثقل كاهله حتى يقنعه بأنه مسافر، لقد اشتكى لي حسن مرارًا من التزاماته نحو أخيه ونحو الأقساط، وأنّه لم يكن يعلم بتجارته تلك إلّا في الفترة التي سبقت سفر سلامة، السفر الذي كان خوفًا من افتضاح أمره.

– كنت لأصدق تخمينك هذا لوْلا أنّي تحرّيت، وعلمت أن قسط الفيلا قد تمّ سدادُه كاملا منذ أيام عن طريق حسن، فكيف يستطيع سلامة أن يُخفي عن أخيه عدم سفره للخارج وحاجته الدائمة للمال، وفي نفس الوقت يشتكي حسن من عدم قدرته على الوفاء بالالتزامات المادية التي خلفها سلامة ويتمّ سداد هذا القسط؟ لو كان حسن شريفًا حقًّا كما يدّعي لك ويدّعي لي، لَمَا اتخذ من الفيلا بمالها الحرام مأوًى له.

– إذًا، فما تفسيرك النهائي؟

– حسن طلب من سلامة أن ينقطع عن تلك التجارة لسبب ما لا أعرفه. سلامة أوهمه بأنّه استجاب لرغبته، لكنه يريد أن يستمر، وأرادَ أن يغير جميع الوجوه التي يتعامل معها، وأنا بالطبع من ضمن تلك الوجوه. حسن شعر بذلك، فتلقّى تعليمات ممّن هُم أعتى منه إجرامًا، وإن كنت لا أستبعد حسن أن يكون هو الرأس المدبّر، ففعل مكروهًا لسلامة قد يصل لقتله؛ حتى لا يفتضح أمره بعدَ إصرار أخيه على الاستمرار، وإلّا فأين هو سلامة؟!

***

في زيارة سريعة قام بها عمر ومصطفى لعنوان الشقة قابلَا خلالها رجلا أربعينيًّا يبدو على سمته الطيبة الزائدة، خاف عمر أن يكون هذا الرجل بطبيعته الظاهرة لا يُدرك ما هو قادمٌ عليه، فالعرض خيالي ولا يُصدق، أراد عمر أن ينصحه إلّا أن مصطفى قال له:

– لا تكن مثاليًّا، تظنّ مَن حولك جميعًا سُذج وأنت الخبير الذي يعلم كلّ بواطن الأمور، هذا الرجل يحتاج إلى المبلغ الذي ستدفعه ليُكمل على ما لديه، بالتأكيد هناك عرض أفضل بين يديه، وسيأخذ أقساطك يسدد منها.

أقنع مصطفى عمر بحجّته، اقترب عمر من صاحب الشقة مصافحًا إيّاه:

- أرجو أن تكون معرفة خير أستاذ شفيق.

فرحت سمر أيّما فرح بعدما عاينتِ الشقة هي وأختها وخالها وجلال، هذا الأخير الذي أحضر معه كلّ الكتالوجات من معرضه، ومن المعارض الأخرى في دمياط بين يدي سمر لتنتقي منها ما شاءت. تحدّث عمر إلى مجدي، وأخبره بأنها فُرجت بعدما ظنّ أنها استحكمت حلقاتها، وعن أنّه كيف كانت تلك المشكلة محور حديثهما منذُ يومين فقط، ثمّ تنفرج بسهولة اليوم، وحدّثه عن كلّ التفاصيل، فغبطه مجدي ساخرًا، ثمّ هنأه.

***

(١٨)

فيلّا حسن

أقلّ ما يمكن وصفها به بأنها فيلّا رائعة، فالتصميم الداخلي والخارجي أضفيا عليها نوعًا من العراقة، رغمَ بساطة التفاصيل التي يسهل تقليدها إلا أن جَمْعَهُم في عمل واحد يُكسبها تناسقًا وتناغمًا لا مثيل له، تحتوي على حديقة صغيرة لكن اللمسات الخضراء المنتشرة في كلّ مكان بتلك الحديقة تجعلها بكلّ شبر فيها مُلهمة للجمال، ممرّ رخامي يقودك لتلك البرجولا الصغيرة ذات الإضاءة الرائعة التي تُشعرك وكأنّك في وضح نهار ربيعي مزهر.

كان شعورُ رشاد رائعًا وهو يستمتع بالإتقان المتناهي، ثمّ سلك المدخل المُفضي إلى البهو، وبعدما استقرّا، سأله حسن:

- كيف تكون تلك هي زيارتك الأولى لي هنا؟!

- كيف ذلك لقد جئت لك مرّة من قبل.

تنهّد حسن وقال:

- وهل ستُطلق على تلك المرّة الخاطفة لقب زيارة؟!

- ها.. ها.. خاطفة، لقد مكثت معك ما يقربُ من ساعتين، رغم أنّي كان لديّ موعد آخر كما ذكرت لك حينها، على أيّة حال سأمكث كثيرًا اليوم.

ضحكَ حسن ثمّ استأذن رشاد لإحضار مشروب، بينما جلس رشاد ينظر لكل جنبات المكان، وفي أثناء شروده عاد حسن قائلًا:

– صحيح، إلى أيّ حدّ وصلت في روايتك؟

– هي كما هي لم أخُطّ فيها قلمًا غير تلك الأغنية التي كتبتها لابنة خالي، عندي أفكار كثيرة، لكنّها مشوشة ولا أمتلك القدرة على الربط بينها، ثمّ أن سرّ الحبكة التي أجذب بها القارئ ليستثمر وقته وتفكيره في روايتي لم أكتشفها بعد.

– عامل الوقت مهمّ أيضًا.

– عامل الوقت مهمّ في كلّ شيء، والقرار الصائب إن لم يُتخذ في الوقت المناسب أصبحت العواقب وخيمة، تمامًا كما فعل أخوك سلامة بالسفر قبل أن يفتضح أمره. على ذكر أخيك كيف هو حاله الآن؟

– كما هو لم يتغير، لكن ماذا تقصد بقراره الصائب؟

– لا شيء كنت أطالع أحد المواقع، لأجد خبرًا قديمًا، لحظات أقرأه لك، لقد التقطت صورة له:

«انعقدت لجنة ثلاثية مُشكلة من إدارة التشريع بوزارة العدل، والإدارة المركزية لشئون الصيدلة بوزارة الصحة، والإدارة العامة لمكافحة المخدرات بوزارة الداخلية، وتلا انعقادها صدورُ قرار من الدكتور وزير الصحة رقم ١٢٥ لسنة ٢٠١٢ بإضافة عقار الترامادول ونظائره إلى القسم الثاني من الجدول رقم ١ مثل الحشيش والأفيون والهيروين، الملحق بقانون المخدرات رقم ١٨٢ لسنة ١٩٦٠، وتمّ نشر القرار بجريدة (الوقائع المصرية) في ١ مارس الجاري، وبدأ العمل به من اليوم التالي للنشر».

انتهى رشاد من قراءةِ الخبر على هاتفه، ثمّ أردف قائلًا:

– قانون رائع، لأوّل مرة تقع عيني عليه، رغم أنّه منذ أكثر من عام، بالفعل لقد أتى هو أيضًا في وقته ليحدّ من انتشار هذا الوباء.

بعدَ ثلاث ساعات، خرج رشاد من عند حسن، وأوّل ما قام بفعله هو مهاتفة آدم.

– السّلام عليكم يا آدم.

– وعليكم السلام يا بشمهندس.

– خرجت للتّو من عند حسن، لم يظهر عليه شيء حين أخبرته بهذا القانون الصادر، شكوكك في غير محلّها، أحسنِ الظنّ يا آدم.

– عن أيّ قانون تتحدث يا بشمهندس؟

– قانون يُحوّل تجارة الترامادول من جنحة عقوبتها من ستة أشهر إلى ثلاث سنوات إلى جناية تبدأ من السجن ثلاث سنوات وقد تصل إلى خمس عشرة سنة.

– إذًا، هذا هو السبب المنطقي الذي جعل حسن يتوقف عن التجارة.

– لن أجزم بشيء لا أعرفه.

– هذا هو السبب يا بشمهندس، صدقني.

– حتى وإن كان هو، فلقد توقفوا تمامًا. آدم، دعني أسألك سؤالًا.

– تفضّل.

– هل دافعك هو أن تتأكّد من أن سلامة لم يصبه مكروه أم لتعود وتنغمس في هذا المستنقع من جديد؟!

– لم يكنْ مستنقعًا يا بشمهندس، لم نكن نتاجر فيه بطريقة سيئة، كان كلّ ما نقوم به هو بيعه بثمن أغلى، لكن استخداماته كلّها محمودة لعلاج الأمراض، لقد أخبرني سلامة بذلك.

– ها.. ها.. سلامة أخبرك! آدم، أنت بمثابة أخ أصغر بالنسبة لي، اسأل نفسك.. لمَ تمّ نقله من الجدول الثالث إلى الجدول الأول؟ لمَ تم منع الأطباء من صرفه دون تذاكر طبية؟ بالفعل أؤيدك أنّه علاج للعديد من المرضى، وهؤلاء المرضى هم الضحية الحقيقية، فالمريض هو الأكثر احتياجًا له ورغم ذلك فهو أكثر مَن يعاني في العثور عليه.

سكت رشاد للحظات، ثمّ أردف قائلا:

– أتدري يا آدم أنّ هؤلاء المجرمين ينتفعون به كُليةً، وأؤكد لك أن المرضى الحقيقيّين لا يصلهم حبّة واحدة منه عن طريقهم، أتدري كمية الجرائم التي تُرتكب جراء إدمانه؟! أتدري أنّ هذا العلاج لا يمثل خطرًا على المرضى الحقيقيين؟! ففي الحالات المرضية التي يتمّ علاجها تحت إشراف طبي يتمّ وصفه، وتحديد جرعته بمنتهى الدقة من قبل الطبيب المعالج، يقوم الطبيب بوضع خطّة مُحكمة لسحب الدواء من الجسم عند انتهاء فترة العلاج.

مؤخرًا يواجه المريض الحقيقي للترامادول مشكلة كبيرة في العثور عليه، قد تصل إلى تهديد صحته، خاصّة أن جميع البدائل الأخرى لا تؤتي نفس ثماره.

– وماذا عن اختفاء سلامة؟

– لقد رأيته بأمّ عيني عن طريق مكالمة فيديو.

– إذًا هو حي، لكنْ يا بشمهندس، لقد قلت لك إنّ سلامة أكد لي أن حسن مشترك معه، أكّد لي يا بشمهندس، أقسم لك.

– حتى وإن كان ما تقوله صحيح، فليذهبا للجحيم. آدم، اسمعني جيدًا، أتدري ما حجمُ الجُرم الذي يرتكبه هؤلاء؟!

بعد اختفاء الترامادول، هُرع المدمنون إلى علاج مراكز الإدمان، فتأثيره خطير حيث يجمع المتعاطي للترامادول بين الأعراض المتناقضة فيصيبه الإمساك وصعوبة التبرز فور تعاطيه الجرعة، في حين يصاب بالإسهال فورَ انسحاب الجرعة من الجسم. يصيبه أيضًا الشعور بالنّهم الشديد للطعام، أو الشعور بضعف شديد في الشهية يصاحبها نحافة مرضية.

كما لا تخلو الأعراض من الاكتئاب والرغبة في العُزلة في حالة فقدان الجرعة التي يتعاطاها، إضافة إلى شعوره بالعصبية والانفعال وسهولة الاستثارة بانسحاب الجرعة، وعلى النقيض يشعر بالهدوء والاسترخاء الشديد بمجرد تعاطيها.

أتريد أن تكون شريكًا في كلّ ذلك؟! لقد نصحتك بما يكفي وأرجو أن تنتبه لعملك، وأن تكون واجهة مشرفة لأبيك.

على جانب آخر، وبعد مغادرة رشاد لفيلا حسن، أمسك حسن بهاتفه، ثمّ أخبر مَن يحدثه كلمات قليلة:

– لقد أوشكت، سأوافيك بالأخبار لاحقًا، كلمة السر:

«رشاد»

***

أثناء توجه عمر إلى البنك ودخوله من باب الموظفين، إذا به يجد أستاذ شفيق الذي اشترى عمر منه منزله، يسير هائما. صدفةً لمحه عمر ولم يره شفيق، رحّب عمر به، بينما قال له شفيق:

– أهذا هو البنك الذي تعمل فيه؟

– نعم، إنه هو أستاذي.

– تسدي لي جميلًا أن تدلّني فقط على مسئول القروض لديكم، وأن تعطيني رقمًا لمقابلته، فلا طاقة لي اليوم على الانتظار.

– طلب بسيط يا أستاذ شفيق، سأتولّى ذلك وأحدثه ليخدمك إن تسنّى له ذلك.

بعدَ ساعتين تلقّى عمر اتصالًا من شفيق يشكره على معاونته له اليوم، فسأله عمر عن طلبه اليوم وماذا فعل فيه، فأجابه:

– الحمد لله، الطلب تحت الفحص حاليًا، شكرًا لك.

في نهاية اليوم، توجّه مجدي إلى رشاد ومعه تقرير مفصّل عن القروض المعروضة لهذا اليوم.

– تفضّل يا بشمهندس، تقرير عن طلبات اليوم.

يتفحّص رشاد الورق المقدّم له، بينما أفلتت ضحكة من مجدي، عندما وصل رشاد للقرض المطلوب من قِبل شفيق.

– ما الذي يضحكك يا مستر مجدي؟

– آسف يا بشمهندس، دخل هذا الرجل، شعرت فيه بالثقة المفرطة في أن طلبه سيُجاب؛ إلّا أنه عند مناقشته عن الضمانات من عمل أو عقارات أو خلافه لم أجدْ ما يدعم تلك الثقة، لوْلا أنه جاء من طرف عمر لوصفته بالجنون.

– عمر! (قال رشاد مندهشًا).

– لا يا بشمهندس، عمر لم يوصِ عليه أو يطلب استثناءات له، هو فقط قام بتحويل طلبه لي.

تغيّرت ملامح رشاد، استدعى عمر لمكتبه على الفور، ثمّ سأله:

– ما علاقتك بالعميل الذي أرسلته إلى مستر مجدي اليوم؟

تدخل مجدي قائلا:

– قلت لك يا بشمهندس لم يطلب شيئًا.

نهرَه رشاد قائلًا:

– وهل سننتظر حتى يطلب، ما علاقتك به يا بشمهندس عمر؟ العميل لا يمتلك أيّ ضمانات تسمح له بطلب قرض، بل حتى لم يقدّم في طلبه الغرض من التسهيلات الائتمانية المطلوبة، ولا كيفية أو حتى مدّة سدادها، ويتكلم بكلّ ثقة مع زميلك. ما علاقتك بهذا العميل؟

أسرع مجدي لإغلاقِ باب المكتب الذي تسرّب خارجه بعض الحوار، بينما أجاب عمر قائلًا:

– لا شيء يا بشمهندس، فقط رأيته صباحًا، هو قريب لزميل أخي مصطفى، وكان هناك عرضٌ لمنزل اشتريته منه.

– منزل!

– هل طلب منك أن تتوسّط ليأخذ قرضًا؟

– لا، لم يطلب، وحتى إن طلب فلنْ أجاريه، أطلبتُ منك شيئًا يا مستر مجدي؟!

تدخّل مجدي مدافعًا:

– بشمهندس رشاد، مهندس عمر لم يطلبْ أيّ شيء من أجل العميل، أؤكد لك.

قال عمر:

– هذا ما حدث.

هدأ رشاد قليلًا، ثمّ قال:

– لوْلا أنّي أعرف أخلاقك جيدًا، ولوْلا شهادة زميلك لكان لي تصرف آخر، سأكتفي بحجب اسمك من التّدريبات لعامينْ متتاليين.

انصرفَ عمر وقد تعرّض لأسوأ موقف له في حياته، لم يقف هكذا مدافعًا عن نفسه من قبل، جاءه مجدي على الفور، تقدّم بأسفه الشديد قائلًا:

– لم أقصدْ شيئًا على الإطلاق، لا أدري سرّ انفعال بشمهندس رشاد المبالغ فيه!

– لماذا ذكرتَ اسمي عنده؟

– مِن قبيل الصدفة البحتة، الرجل جاء وكلّه ثقة، ظننته مجنونًا، لكن تذكرت مكالمتك.

– رغم الريبة من أمر بيع هذا الرجل لمنزل بهذا السعر؛ إلّا أنه لم يطلب منّي أيّ شيء، لا تلميحًا أو تصريحًا، ولولا لقائي به صدفة اليوم لدخل البنك وخرج دون أن يعرف أنّي أعمل به.

هذا الرجل كما ذكرت لأخي مصطفى به خللٌ ما، تصرفاته غير منطقية، لكنّي لا أظنه أبدًا من هؤلاء المتلاعبين، لكن كلّ ما يشغلني الآن قسوة اللّحظة مع مهندس رشاد، لا أعلم كيف سأعامله مستقبلًا.

– قلت لك، لقد هوّل من شأن أمر تافه، لعلمك مهندس رشاد هذا أخطبوط كبير لكنْ لا أحد يستطيع إدانته!

– ماذا تقصد؟

– لا شيء، فقط أداعبك، هوّن عليك الأمر بسيط. لكن صدقًا ألا يوجد شيء بينك وبين هذا المجنون؟ اضحك يا عمر، الأمرُ سهل وبسيط.

غادر مجدي شاردًا بخياله، وجلس عمر غير مستسيغ لدعابةِ مجدي الأخيرة رغم أنّها للتخفيف عنه.

فكّر مليًّا:

– هل سأخبر سمر بما حدث؟

(١٩)

أبريل، ٢٠١٤

استيقظت سمر من مخدعها المخملي تطالع نسمات الفجر وتسرع لاقتناص أولى النظرات لقرص الشمس، تفقدت كلّ ركن من أركان منزلها الجديد أعطته لمسة أنثوية زادته جمالًا فوق جماله، وقعُ خطواتها كان همسًا، وبراءة وجهها كانت ضوءًا، وأذناها تتوقان لاستيقاظ حبيبها فتنعم بإطرائه على حُسنها في أول أيام زواجهما.

بعدَ حصول عمر على منزله، ومسارعة كلّ من جلال وصفوت لاستكمال كلّ ما ينقصه رغمًا عن عمر نفسه، كان طلب سعاد أن يتمّ الزواج لرغبتها في رؤية حفيدها عريسًا قبل أن تموت بعدما ألمّ بها مرض مفاجئ شُفيت منه، لكنّه ولَّد بداخلها تلك الرغبة، والتي لاقت استحسان الجميع، وعلى رأسهم سمر.

عمر وكأنّه في حلم جميل، كم تخيّل تلك اللحظة التي سيجمعه فيها بيت واحد مع سمر، حبّ الشباب، حبّ الطفولة، حبّ البراءة والرجولة، بل هي حبّ العمر كله؛ أصبحت الآن بين يديه.

أنا مُش بحبك أنا بعشقك

يا ما نفسي قلبي يسمعك

دقاته، وآهاته

يمكن بكده يشجعك

إنك تقولي بعشقك

كلمة ولو سمعتها

حياتي تبقى بعدها

زي شجرة في ضلها

زي وردة في شكلها

ونعيش حياتنا كلها

لا تخدعيني ولا أخدعك

في تمام الرابعة عصرًا، جاءت سها وأبوها جلال، وتبعهم صفوت وفادية ومصطفى ووالده، كما جاءت سعاد رغم عدم تعافيها التام.

انفردت سها بسمر وقالت لها:

- لقد فعلتها.

- فعلتِ ماذا أيتها المجنونة؟!

- نجحتُ في إقناع كلّ من حنان ورشاد بالخطوبة!

شاهدت سها حنان فقط بالأمس في زفاف سمر. كانت سمر قد أكدت على حنان وأبيها حضورَ هذا الحفل. وجدت سها رشاد يختلس النظر إلي

حنان، فسألت سمر عنها، فأخبرتها نبذةً بسيطة عنها، فما كان من سها- وكما هي عادتها- إلّا أن سعت في تدبير لقاء بينهما، لكنّ هذا اللقاء كان تحت إشرافها، فكانت نتيجته كما أرادت.

بفراستها أدركت أنّ هناك بوادر قبول بينهما، تيقّنت من حدسها بعد انتهاء الزفاف، وحدّثت هي أخاها رشاد والذي وجدته غارقًا في التفكير بحنان، فسارعت في جوف الليل وهاتفت حنان في أوّل مكالمة لها وكأنها تعرفها منذ زمن، وتقمصت دور الحماة وطلبت يدها.

***

كيف لها أن تغيب عن عينيه وهي أمامه؟! أنحتاج أحيانًا لَمن يُبصرنا بجمال من يحيط بنا عن كثب، وهو أبعد ما يكون أن يجول بخاطرنا!

هذا ما حدث مع رشاد حرفيًّا، فعلاقته الوطيدة بيسري وجلساتهم المتكررة والتي كان غالب حديث يسري فيها منصبًّا حول ابنته حنان يفتخر ويتباهى بها، حتى رشاد نفسه كان يندهش من حجم التقدير الذي يُوليه لابنته، لكن رشاد كان مُوصدًا لقلبه، ولا سبيل لكسر أقفاله.

لقد زار بيت يسري العديدَ من المرات لكنّ عينيه أبدًا لم تقع عليها ولم ينظر إليها نظرةَ رجل لامرأة، ثمّ جاءت زيارته للمجمع ليرى مدى العشق الذي يُوليه الجميع لحنان، وهذا الثناء الكبير من جلّ مَن قابلهم وكأنهم يوجّهوا له رسالة مستترة «أين أنتَ أيها الأبله من اقتناص تلك الجوهرة».

أخيرًا، سها رسول الغرام بالنسبة له، تتحدّث معه عن حنان بمجرد رؤيتها لم تمكث معها إلّا زهاء الساعة وتستحثّه بكلّ ما أُوتيت من قوة أن

يفصح لها عمّا في قلبه وكأنّها راقبت بعنايةٍ نظراته المُخْتَلسة لها في حفل زفاف عمر وسمر ليلة أمس.

هل فضحته عيناه وهو مَن كان قادمًا للحفل والخوف يسيطر عليه من أن يتلاعب به شيطانه ليندبَ حظّه، ويسترجع مآسيه مع حبّ النظرة الأولى؟ حدثته سها كثيرًا عنها وكأنها أزالت غمامة قابعة أمام عينيه، كأنه ولأوّل مرّة يراها، كيف له أن يترك فتاة مثالية في كلّ شيء؟!

حنان هي الأخرى أعطت لقلبها الحقّ من جديد أن ينبض بعشق مَن تحب، بالطبع رأت رشاد كثيرًا، ورغم أنه كان مثاليًّا في كلّ شيء، إلا أنها لم تره إلّا عَبوسًا، يأتي بصحبة أبيها والحزنُ دائمًا يعتريه.

لكنها عندما رأته في المجمع كان على غير ذلك تمامًا، كان شابًّا مرحًا متألقًا يحوز إعجاب الجميع، يصول ويجول في المكان وكأنه يتردّد عليه يوميًّا، بالطبع لم يكن تصرّفه هذا هو السبب الرئيسي لخطف قلبها، لكن زياراته المتوالية للبيت بعد ذلك والتي شعرت فيها أنه يختار بعناية الوقتَ الذي يزورهم فيه على عكس توقيتات زياراته السابقة، والتي أصبحت وبشكلٍ دائم تصادف تواجدها في البيت، وكذا التغير التامّ في المعاملة، والبهجة التي أصبحت تكتسي بها جلساته مع أبيها من وَقْع تعالي ضحكاتهم؛ هم مَن كان لهم عظيم الأثر في زحزحة الصخرة القابعة على باب قلبها.

ثمّ أخيرًا كان الدور الأكبر لأخته سها، والتي لوْلا تدخلها لظلّ الأمر طيّ الكتمان بجوف قلبين لا يأبَهَا كثيرًا بمسمّى الحب، سها هي مَن وضعت الأمر من رَحِب الخيال والتوقع إلى أرض الواقع.

في تلك المرة، كانت حِنكة رشاد حاضرةً في تعامله مع الأمور، وباغت الجميع بتصرّفاته.

– مرحبًا عمّي يسري، أنا وأمّي سنأتي لكم في زيارة عائلية غدًا، أمي لا تحبّ الحلوى نهائيًّا، أكثروا من المشروبات الدافئة.

هكذا كانت المهاتفة القصيرة التي أجراها رشاد مع يسري، ثمّ كان حواره مع أمّه أيضًا:

– أمّي، لقد شارفت على السادسة والثلاثين من عمري، وأتذكر أنك وعدتني منذ ثلاثة شهور أن تبحثي لي عروس، وهو ما لم يحدث حتى الآن.

لم يمهلها لتجيبه، واحتضنَها وكمّم فاهَا برفق، ثمّ استطرد قائلًا:

– سنذهب غدًا سويًّا لرؤية حنان، فتاة مثالية وقعَ اختياري عليها، وسيكون قرارُك غدًا هو القول الفصل في ذلك.

كانت زيارتهم سريعة جدًّا لبيت يسري، تقريبًا ساعة واحدة، لكنها كانت كافية لتدخل حنان قلب وداد رغم مآخذها الباطنة عن وضعهم الاجتماعي، وكانت أيضًا كافية لنقاش ثريّ بين رشاد وحنان.

ما إن غادر رشاد، حتى لعبت الهواجس برأس آدم، كان لا يزال الشكّ يساوره تجاه حسن، ولم تقنعه مبرّرات رشاد الواهية التي ساقها له، يتساءل ما السرّ بينه وبين حسن، يستشعر أنّ حبّ حسن لحنان لم يكن ليخبو بتلك السرعة، لم يكن آدم سلبيًّا تلك المرّة؛ ذهب إلى أخته، حدّثها ببعض ما يدور في خلده:

– حنان، أعرف أنّ رشاد رجل لا يمكن رفضه، لكن ألا ترين أنك كنت أمامه ولم يتحرّك لخطبتك قبل حسن؟! كما أنّي عندما سألت في البنك، علمت أن صداقتهما زادت أواصرها فقط في الشهور الأخيرة. ألا ترين أنه من غير المنطقي أن يوطّد رشاد صداقته بحسن بارتباطه بخطيبته السابقة؟!

انتقى آدم الكلماتِ بحذر، يعلم مدى ذكاء أخته، لا يريد أن تلتفت لشيء ثمّ تستدرجه لمعرفة ماضيه السيّئ، والذي بات بين ليلة وضحاها يندم على انخراطه فيه، ويريد أن يدفنه ويواريه عن الجميع، بل يريد أن يُنسيه لكلّ مَن قصّه عليهم. كان لوَقْع لوم أبيه ثمّ مكاشفة حنان لحقيقته التي يعلو فيها الطموح وتنخفض بها شحذ الهمم؛ سبيلًا لكشف الغمامة عن تفكيره.

حتى كلمات رشاد نفسه عن مدى الجُرم الذي يرتكبه بذاك العمل، ورُغم تشككه من أمرِ رشاد، إلّا أن حديثه كان منطقيًّا هو الآخر، ثمّ أخيرًا كان عمله الجديد ورؤيته لزملائه في العمل الذين يفوقونه في كلّ شيء لكنّهم يرضون بواقعهم، صحيح أنّ أحلام بعضهم تحلق في الأفق، لكنها أحلام على أُسس، فمنهم مَن يدرس، ومنهم مَن يعمل عملًا إضافيًّا، ومنهم مَن هو مقتنع بتمام رزقه، ودائمًا ما يجري الحمد على لسانه، هذا الحمد الذي يصبّ الخجل والوجل على آدم كلّما التقطته مسامعه. قالت له حنان التي أراحته كلماتها، لكنّها أبقته متشكّكًا بدون سند:

– أتَعْلم يا آدم، كان هذا هو سؤالي الأول لرشاد.

– وماذا كان جوابه؟

– أجابني «بأن كلّ شغله الشاغل هو موافقتي أنا، ومدى نسياني لحسن»، فقلت له «من ناحيتي لم يعدْ حسن في حساباتي، لكن ألن يكون ذلك سببًا في خلق مشاكل بينكما، أو أن يُسبب لك حرجًا في البنك»، فكان جوابه قاطعًا «إنّ كلّ شيء بقدر، وإنّه تحدّث مع حسن في ذلك ولم يشغله كثيرًا ما يخفيه من ناحيتي حيث كانت التهنئة، وتمنّي التوفيق، وثناؤه على اختياره هي الإجابة الحاضرة»

***

كان شرطُ يسري الوحيد الذي اشترطه على رشاد أن يكون والده موجودًا معه في تقدّمه لخطبة حنان.

أحسّ رشاد أن يسري يلوي ذراعه، لم يكترث بما أخبره من أسرار بينه وبين أبيه، عرف أنّه سيواجه عاصفة أخرى من النقد من أمّه؛ أوّلًا من ناحية الوضع الاجتماعي لحنان، والذي قرأه في عينيها حال زيارتهم لهم، وأيضًا هذا الشرط الذي– ورغمَ أنه منطقيّ– لكن أنْ يخرج من يسري بعد كلّ ما قصّه عليه من علاقة متوترة بينه وبين أبيه، فهذا ليس بمنطقيٍ على الإطلاق.

الغريب أنّ أمّه لم تعترض على حنان نهائيًّا، لكنّ الأغرب لدى رشاد حينما خرجت منه الكلمات بصعوبة ليُخبرها بطلب يسري في حضور أبيه، فكانت ومنذُ الوهلة الأولى مؤيّدة لهذا الطلب، حيث قالت:

– في النهاية، هو أبوك، ولا أريد أن ترى زوجتك ولا أهلها ما ينتقدونه عليك، فليحضرْ على الأقل في المواقف التي يتحتم فيها وجوده.

تعجّب رشاد وسالت عليه أودية بحِملها من كيفية المواجهة وكيفية إخبار أبيه، وكيف سيكون لقاؤهما من جديد؛ لكن فريد كان كطوق النجاة بالنسبة لرشاد، حمل عنه كيفية إقناع والده بالحضور، فذهبا سويًّا إلى دمياط لدعوته، وكانت إجابة جلال بتأكيدٍ سأحضر، كان ذلك اللقاء كالجبل الجاثم على صدر رشاد، وما لَبثَ أنِ انْزاح.

***

(٢٠)

كان يوم الخطبة بسيطًا كما اقترحت حنان، العائلتان وقليلٌ من أصدقائه وصديقاتها.

حضرَ حسن وكان كلامه مقتضبًا، بارك لحنان التي انصدمت لرؤيته للمرة الثانية في بيتهم بعد انفصالهما لكنْ تلك المرّة كانت أكثر جرأة ولم تخجل، ورمقته بعينيها في نظرةٍ ظنّ منها أنها تبعث له برسالة أنّها لم تخذل أو تبور لتركها له، وأنها ارتبطت بمَن هو أفضل منه.

انزوى حسن في ركنٍ بعيد، ولحق به يسري، وأخذ يتجاذب معه أطراف الحديث في أمور شتّى بعيدة عن الحدث الجاري، كلّ ذلك من أجل تخفيف وتيرة الأحداث عنه، آخذًا في الاعتبار أنه في بيته، ولم يرَ منه شرًّا قط.

ما هي إلّا دقائق حتى استأذن حسن في المغادرة، وقبل أن يغادر ذهب وألقى التحية على رشاد الذي احتضنه، إن رأيت أنتَ هذا العناق بينهما لظننتهما أخويْن تساميَا عن مغريات الدنيا الفانية، عناقٌ تستشفّ منه حُبًّا حقيقيًّا وتقديرًا من كلا الطرفين للآخر، وأنّ كلًّا منهما له نصيبه في الدنيا الذي لن يفلته.

دقائق دخل جلال ومعه سها وعمر وسمر.

لأوّل مرة يلتقي جلال ووداد وجهًا لوجه منذ أربعة وعشرين عامًا، حيّاها فبادرت بردّ التحية، وتجمّد كلّ منهما أمام الآخر، فأسرع فريد بكسر ذاك اللقاء، واحتضن جلال وأخذ يقدّمه للحضور.

هنّأت سمر حنان، ثمّ تلاقت عيناها برشاد فأومأت برأسها متمتمة بكلمات قليلة غير مسموعة، مع رسم ابتسامة خفيفة، ثمّ ولّت مُدبرة؛ أمّا جلال فكان هو المتأثر الأكبر، ففتور لقائه بسمر والذي أصبح معتادًا عليه منذ رحيلها عن دمياط، ثمّ رؤية وداد وجهًا لوجه مع تقليب الذكريات، ثمّ أخيرًا شعوره القاتل بأنه ضيف أعزل ليس له ونيسٌ من الحاضرين سوى ابنته سها، كلّ تلك الأسباب ألقت بظلالها عليه، لكنه لا يُظهر ذلك كلّه، وكان صامدًا كعادته.

كان فريد وغادة هم مَن لا شائبةَ عليهم في هذا الحفل، كما كان يسري بتلقائيته وطيبتِه الجلية له نفسُ الخصال فتولّوا جميعًا التنقل بين الحاضرين يسامرونهم ويضفون جوًّا أسريًّا هائلًا. قام جلال بتعريف فريد على سمر وسها، وقال لهم فريد إنّه من قرية مجاورة لقرية والدهم في طنطا، وتحدّث عن اشتياقه لتلك الأيام بصفائها وهدوئها.

قال جلال لفريد:

– سمر مازالت عروسًا، لم يمضِ على عرسها سوى عشرة أيام.

قال فريد مبتسمًا:

– مبروك أيتها العروس الجميلة، ومَن هو سعيد الحظ الذي فاز بك؟

أجابت سمر:

– إنّه عمر، يعمل كمهندس في «بنك إلجنادور». (ثمّ أشارت لعمر بالحضور).

قال له فريد:

– مبروك مهندس عمر، أنا فريد سراج؛ كنت أعمل سابقًا في البنك الذي تعمل فيه، وخال العريس.

– تشرّفت بمعرفتك مستر فريد.

– وأنا أيضًا، لا بدّ أن أزوركما حتى أهنئكما بنفسي، أين هو مسكنكم؟

– نحن في التجمع الخامس.

– رائع، أنا أيضًا أقطن بالتجمع، كم طالبت رشاد أن يشتري مسكنًا بجواري، لكنّه يرفض متعلّلًا بضعف الإمكانيات المادية.

– أنا أيضًا لم يكن بوسعي أن أقتني مسكنًا في هذا المكان، لولا أنّي وجدت عرضًا من أحد المسافرين والذي يريد أن يبيع منزله على وجه السرعة.

– من الواضح أنك طيب القلب، وكذا سمر، لذا عثرتما على هذا العرض، لكن هل تأكدتما أنّ المسكن ليس به أية عيوب، أو ما شابه ذلك؟

– لا، المنزل جميل تمامًا، حتى أن كلّ مكوّنات السباكة والنجارة وكذا التوصيلات الكهربائية لا تزال جديدة، ولم يمض على تركيبها قبل استلامنا على ما يبدو إلّا أيام.

– الحمد لله. (أجاب فريد).

آدم مَن كانت عليه كلّ المهام الصعبة في تحويل بيتهم المتواضع لِجنة تفخر بها أخته أمام الحاضرين، آخر من أطلّ عليهم أنهكه التعب، واستغلّ فقط اللحظات الأخيرة قبل مجيئهم ليرتدي بدلة مناسبة، ثمّ جاء وسأل والدته:

– هل جاء حسن؟

أجابته أمّه بأنه جاء بالفعل، لكنه غادر سريعًا؛ فاطمأن قلبه، لم تكن له طاقة على النفاق، أو أن يرسم على وجهه علامات غير ما يبطن.

خرج مزهوًّا مُلقيًا السلام، ومُعرفًا نفسه بطريقة تملؤها الدعابة مع الجميع، وطالبًا منهم تعريف أنفسهم له.

ظلّ على ذلك إلى أن جاء أمام جلال وألقى عليه السلام، بوادر معرفة سابقة بينهما لاحتْ في الأفق، تذكر كلّ منهما الآخر، كانا قد التقيا أثناءَ خروجهم من ميناء دمياط وأثناء انتظارهم لنفس الحاوية القادمة من الهند آنذاك.

صافحه آدم مندهشًا، ثمّ ازدادت دهشته عندما عرف أنّ جلال هو والد رشاد، تسارعت أفكار شيطانية برأسه، وربط أحداثًا وشخوصًا من أماكن شتى فانعقد حاجباه، وانزوى يفكر.

استمرّ الحفل دونما أيّة مفاجآت، تعرّفت غادة على سها، وأمسكت هاتفها وأسمعتها تلك الأغنية التي كتبها لها رشاد، وحوّلها أبوها إلى عمل غنائي مسموع، أصابت الغيرةُ سها عندما سمعت كلمات الأغنية التي تبدأ بـ:

«أختي أختي»

استطردت غادة في مدح رشاد فازدادت حنان حبًّا له، حيث أُضيف إلى رصيد داعميه في نيل قلبها فردٌ آخر. أطلقت أمّ حنان زغرودة كبيرة لتُسدل الستار على تلك الليلة.

(٢١)

بعدَ تناول وجبة الإفطار، قالت حنان لوالدها:

– ألا ترى يا أبي أنّه من الضروري أن أقوم بزيارة سمر؟ فلقد جاءت إلى بيتنا مرّتين دون أن نقوم نحن بزيارتهم.

– أرى ذلك يا حنان، حدّدي معها موعدًا وأنا سأذهب معك.

***

– أمّي، ماذا بك؟

– لا شيء يا رشاد، أشعر فقط ببعض الآلام البسيطة.

– بسيطة! أمّي أتمزحين؟! سأُحضر الطبيب حالًا.

– لا داعي يا رشاد، ألمٌ بسيط سيذهب سريعًا.

يهبّ رشاد ممسكًا هاتفه ومستدعيًا الطبيب المتابع لحالة أمّه وداد.

***

– هيّا يا سمر أسرعي، لقد أشرفوا على الوصول.

– كلّ شيء أصبح جاهزًا يا عمر، ثمّ ألم تقلْ لي إنّ أستاذ فريد قال لك إنّه سيأتي في السابعة، والساعة الآن أشرفت على الثامنة ولم يأت بعد!

– ها.. ها، لقد قال إنّه سيأتي في الثامنة، ولقد خدعتك حتى تُسرعي في تأهّبك، أعرفكم معشر النساء.

بعدما تلقى عمر ضربةً على صدره، أسرع بفتح الباب ورحّب بفريد وزوجته دولت وابنته غادة.

***

عاد آدم من البنك وأوصدَ بابَ غرفته، وأخذ يهمس قائلًا:

- الخيوط تتشابك في رأسي، ربطُها بعضها البعض لم يكن صعبًا بالنسبة لي، بل أكاد أُجزم أنّي ما بذلت جهدًا سوى في الربط الأول، ثمّ توالى الربط بين الأحداث، الأفكار تكاد تقتلني.

جلال والد رشاد حين قابلته في الميناء أثناء استقبالنا لتلك الحاوية والتي كانت تحوي تلك المرّة ألواح الأبلكاش وكما فهمت من سلامة، سـلا...

سكتَ لحظات ثمّ ردّد اسم سلامة مع نعته بالساذج، وأطلق ضحكات يملؤها الحزن، ثمّ تابع استنتاجاته:

- سلامة، كم هو طيب، أفهموه أنّ هؤلاء التجار الذين نتشارك معهم في نفس الحاويات لا يعرفون ما تمتلئ به شحنات الخشب الخاصة بهم من مواد مخدّرة، واتضح أننا الدّمية التي يتلاعب بها الجميع، والتي لا تعلم من الحقيقة شيئًا.

حظّ أبيك العاثر يا رشاد قاده إلى أن يَكْشف نفسَه اليوم، عرفت الآن سرّ دفاعك عن حسن، أنت وأبوك لكما الدورُ الأعظم في تلك التجارة، وحسن شريك أساسي معكما.

حسن! كم هو مجرم هو الآخر. ها.. ها، لكن يا حسن تمتلك صديقًا مخلصًا هو «رشاد»، ما هو دافعه للدفاع عنك بعد كلّ ما سقت له من أدلة عن ضلوعك في إلحاق الأذى بأخيك إلّا أن يكون صديقًا مخلصًا؟

الآن أيضًا اتّضحت لي الصورة كاملة، حسن ينفّذ تعليمات رشاد الذي يريد هو وأبوه أن يظلّ اسمهما طاهرًا، فبتحويل عقوبة تلك التجارة من جُنحة إلى جناية، سيُشدّد من الرقابة عليها، فآثروا عدم المخاطرة، وهو ما استجاب له حسن الذي لم يستطع أن يُقنع سلامة صاحب الطموح الجامح بالإقلاع عن تلك المهنة، فتخلّصوا جميعًا منه.

يسكت فجأة مطلقًا ضحكاته من جديد، ثمّ يعود ويتابع:

– حنان، هل هي مِن ضمن الصفقة؟ هل صداقتهما المستمرة رغم الحبّ الجارف الذي كان يُوليه حسن لحنان ضمن اتفاقهما؟! هل رشاد هدّد حسن؟ مسكينة حنان، تخرج من مجرمٍ عتى لآخر أشدّ إجرامًا.

***

– قلت لك يا رشاد إنّه ألم بسيط، أهكذا أخبرك الطبيب؟! (قالت وداد)

– نعم يا أمّي، لقد أخبرني بذلك، فقط نحتاج إلى الراحة التامة. (أجابها رشاد متجهّمًا).

– إذًا، لماذا حزنك هذا؟

– لا.. لا، لا يوجد شيء، طلبت منّي حنان صباحًا أن أذهب معها لزيارة عمر وسمر لكنّي رفضت.

– أصبت يا رشاد، يكفيهم ذهابك يوم الزفاف، لم أكن لأطيق أن أذهب إلى هناك، وكنت أيضًا لا أودّ حضورك، من ناحية تلك السمر، وأيضًا من ناحية هذه العجوز المتلوّنة سعاد التي لم تراعِ مشاعري حينما جاءت تدعوني لهذا الحفل، متناسيةً مَن تكون تلك العروس!

كان رشاد منشغلا عن تعقيب أمّه، فلم يكن ذلك هو السبب في تجهمه، بل كان السبب الحقيقي ما أخبره به الطبيب.

***

في اليوم التالي، كانت حنان قد أخذت موعدًا من سمر من أجل زيارتها، قالت سمر لعمر:

– أرأيت عروسًا مثلي تُعدّ الطعام يومين متتاليين في شهر العسل!

– أعدك أن نسافرَ في عطلة هذا الأسبوع، ثمّ إنّ زيارة الأمس حملت لك هدية باهظة.

– لا أدري ما سبب أن يُعطيني أستاذ فريد هدية باهظة كتلك؟!

جاءت حنان بصحبة أخيها آدم، شعر والدها ببعض الدّوار فطلب من آدم أن يحلّ مكانه. جلست حنان مع سمر وجلس عمر مع آدم.

***

بعدَ مغادرة فريد وأسرته للعروسين، كان فريد في قمّة سعادته ويدندن مع تلك الأغاني التي يسمعها بالسيارة، بينما أثنت كثيرًا دولت على سمر ولم تُعقب على ذاك العِّقد باهظ الثمن الذي أهداه فريد لها، بينما كانت غادة

تترقب في صمت لتطلب من أبيها الذهابَ إلى الساحل لقضاء شمّ النسيم هناك برفقة صديقاتها أواخر أبريل الجاري، وتنتظر مساعدة أمّها في إقناعه بالسماح لها بالذهاب دون اصطحاب السائق، حيث أنّ أخت إحدى زميلاتهم ستكون معهم.

حينما طلبت دولت من فريد تلبية رغبة غادة بالذهاب وحدَها رفقة زميلاتها، قال لهم فريد:

– ما رأيك أن نذهبَ معك أنا وأمّك إلى الساحل؟ وهناك سنتركك وشأنك مع زميلاتك ونستمتع نحنُ بيوم نستردّ فيها شبابنا بعيدًا عنك؟!

***

كانت تلك هي المرّة الثانية التي يتقابل فيها عمر وآدم خارج البنك، كان الكلام تائهًا، يبحث كلّ منهما في رأسه عن أيّ نقطة نقاش، بادر آدم بالسؤال:

– ما درجة قرابتك بمهندس رشاد؟

– مهندس رشاد يعتبر بمثابة خالي، والده ابن عمّ جدّتي لأمّي.

– لكنّي أعرف أنكم من طنطا، ولقد رأيت والده في دمياط!

– لا، لقد انتقل جدّي الباشا إلى دمياط منذ فترة بعيدة.

– أريد مساعدتك أو مشورتك في أمر ما، أشعر بأن جميع من حولي يضللوني، لكنّ القدر قادني لهذا اللقاء، سأحكى لك كلّ شيء، لكن في

البداية أقسم لك أنّي أقلعت تمامًا عن أي شيء حرام، وكنت قد عقدت النية أن أدفن رأسي في الرمال وألّا أتحدث في هذا الأمر مجددًا، لكن التقائي بجدّك جلال والد مهندس رشاد هو مَن دفعني لتغيير قراري.

***

كانت سمر هي الأخرى تتحدّث مع حنان، وفي وسط حديثهما، هاتفها جلال. أمسكت هاتفها لتجيبه، وما أنِ انتهت المحادثة حتى عادت وبوادرُ الغضب على مُحيّاها، ثمّ قالت:

– عذرًا يا حنان، كان هذا عمّي جلال.

– والد رشاد!

– نعم، إنه هو.

– حدّثيني عنه يا سمر.

– إنّه والدي الذي لم أرَ غيره، غمرني بحنانه منذ نعومة أظافري، لكن...

توقّفت سمر عن الكلام ثمّ أجهشت بالبكاء، احتضنتها حنان وهدأت من روْعها، فما كان من سمر إلّا وشاركتها أوجاعها وظنونها.

بعد أن غادر كلّ من آدم وحنان، قصّ عمر لسمر بعضًا ممّا رواه له آدم عن جلال، وعن احتمالية ضلوعه في تجارة الأدوية الممنوعة، فوغر صدرها أكثر من ناحية جلال.

(٢٢)

أبريل، ٢٠١٤

– لماذا فعلتَ ذلك يا حسن؟

– لا.. لا، لم أفعل.

– تأكّدت يا حسن تمامًا، لا داعي للإنكار، أكّد لي وجيه البواب كلّ شيء.

– لم يكن ذاك مقصدي، حدث بالخطأ بعد إصراره على أن يُكمل فيما بدأ وأن يكون هذا الشيء السامّ هو مصدر دخلنا، بل إنّه من الممكن أن يكون سببًا في افتضاح أمرنا.

– تقتله! تقتل أخاك يا حسن.

– لا تجعل من نفسك بريئًا يا رشاد، أنت أيضًا شيطان، انظر إلى علاقتك بأبيك، والأدهى من ذلك، ألم تكن تلك الدورة التدريبية من تدبيرك أنت حتى تلفتَ نظري لما اقترفناه سويًّا؟!

– لوْلا وقوع آدم في طريقي، ولفتَ نظري للحقيقة، لَمَا كان موقفي قويًّا مثل الآن، عمر الساذج اقتنع بما رسمته له بعدَ اكتشافه لغبائك، تستحقّ وحدك أن تدفع ضريبة ذلك؛ لكنّي أقنعته أن يسكت عنك.

– أنتَ لم تقنعه يا رشاد، أنت هدّدته بما حكته له من خطّة مدبّرة للرشوة حتى يكون تحت سيطرتك.

- أيًّا كان ما فعلت، فلن يزنَ شيئًا لقتلك لأخيك، أنصت إليَّ جيدا: واقعة التلاعب والمعاملات الليلية مُثبتة عليك أنت، اشتراكي فيها لن يردّده غيرك، وستكون ما هي إلّا تُرّهات لن تستطيع إثباتها؛ أمّا واقعة القتل التي من الممكن أن أنساها وأنْسي آدمَ إيّاها، وأتغافل عن روايتك غير المحكمة، فيوجد لديّ شرطان..

- يا لصفاقتك ووقاحتك، تشترط أيضًا!

- ها.. ها، شرطي الأول: سترُدّ ما سرقته من مال، يذهب إلى أيّ مؤسسة خيرية لإقناع عمر بالسكوت أكثر.

- ها.. ها، والثاني؟!

- سأعوضك عمّا ستردّه، ستكون لي ولك الغلبة والجائزة الكبرى التي أُعد لها الآن، وسننعم بالعيش سويًّا بأموالٍ لا طائل لها، وسأقول لك آنفًا ما دورك فيما أخطط له.

- ما تلك الجائزة؟

- سنتعاون سويًّا لكن بأسلوب احترافي عن المرة السابقة.

- ماذا تقصد؟

- سأُعلمك كلّ شيء في حينه.

- دعني أسألك سؤالًا واحدًا يا رشاد.. هل أنتَ من يدير كلّ ما نحن فيه؟

– ها.. ها، هل مازلت تسأل؟!

– ولماذا توقّفت عن تلك التجارة المضمونة؟

– قلت لك القانون، وأظنّك فهمت حينها.

– إذًا، أنت يا رشاد لك عندي مفاجأة أيضًا ستعرفها بعد قليل.

هذا كلّ ما دار بيني وبين رشاد.

بعد أن تُنفّذ الآن ما سأطلبه منك حرفيًّا، سأقابلك لأطلعك على المزيد.

(أنهى حسن كلامه مع محدثه، ثمّ ختم المكالمة بقوله):

– كُن حذرًا في تنفيذ ما أخبرتك به.

***

توطّدت علاقة يسري برشاد كثيرًا عن ذي قبل، ووضع يسري لحنان خارطة الطريق في كسب قلبِ رشاد، أبصرها بعيوبه وحذّرها من أن تخبره بمعرفتها، قال لها إنّ نقطة ضعفه والتي تجعل منه أحيانًا شخصًا مكتئبًا هي علاقته بأبيه، وأنها لو نجحت في تقريبه منه لأصبح رشاد شخصًا مثاليًّا في كلّ شيء.

كانت حنان تتعمّد البساطة مع رشاد، فكانت تنتقي الكلام بحذر قبل أن تُصدره، خاصّة بعد الذي عرفته من أبيها، ربطت بين حالته وحالة الطفل ياسين الذي تمثل طفولته لها تجسيدًا عمليًّا لطفولة رشاد، كانت تحاول أن تستخلص من كلامه خيطًا يربطه بلحظات سعيدة في طفولته، والتي شعرت بطبيعة عملها أنها كانت بائسة.

وجدته منغلقًا على نفسه ولم تكسب بعدُ ثقته التي تجعله يشاركها أسراره، بدأت بالاهتمام بتفاصيل حياته ثمّ أشركته في مشاكلها الحياتية دونما إزعاج، من هنا بدأ يشاركها هواجسه الدائمة، وتلك الكوابيس المزعجة والتي لازمته منذ الطفولة.

دائمًا ما يتخيل نفسه في مكانٍ مُوحش يبتلعه الظلام، وأبوه يراقب في صمت، شعرتْ داخله بنبلِ المشاعر المدفونة، والتي إن خرجت لأغدقت عليها ولغمرتها حتى الجنونَ.

كثيرًا ما كان يتلاقى تفكيرُهما في نفس اللحظة، وينطقا بنفس الكلام، إلى أن نطقها ذاتَ مرة «أنت أجملُ ما رأت عيني». كانت على وشك أن تنطقَ بالمثل، وفي نفس اللحظة، لكنّ حياءها منعها. خرجت كلماته بعَفَوِيَّة تامة، وبراءة عاشق يتحسس خطاه في درب الهَوَى، فكانت فرحتها عظيمةَ في تخلّيه عن جمود مشاعره، وأعطاها ذلك دافعًا للتمسك به أكثر، وأن تحارب من أجل سعادته.

***

– الحمدُ لله يا ياسين؛ أصبحنا متفوقين في تلك اللعبة.

– ليست لعبة يا مس حنان، إنّما هي برنامج حساب ذهني، أبي وأمّي كلّ منهما ساعدني كثيرًا حتى أتفوق فيها، وعدني أبي أنه سيُقدّم لي في المسابقة العالمية للحساب الذهني، لكن عليَّ أوّلًا أن أحلّ مسائل معقدة ومائتي مسألة حسابية في ثمانية دقائق فقط بسرعة فائقة ودقة متناهية وتركيز عال، حتى أستطيع أن أنافس بتلك المسابقة.

فرحتْ حنان بالتغيير الملحوظ في حالة ياسين، حيث أنها كانت قد نجحت في التقريب بين وجهات نظر أبوي ياسين، جلست معهما سويًّا، كانت تستقي بعضًا من المستقبل المظلم لولدهما إنِ استمرّا في عنادهما من بعض الحزن الذي رأته في عيني رشاد.

– لا حلّ لكما سوى التفاهم، وأن تكون مصلحة ابنكما فوق كلّ شيء، أما وأن الانفصال قد حدث، ولا سبيل لعودتكما، فأرى أن تتّفقا على الاستضافة عوضًا عن التأثير النفسي الذي يعاني منه ابنكم الصغير بذاك اللقاء الأسبوعي.

ثمّ خاطبت الزوجة أن تأخذَ من الضمانات ما شاءت من أجل طمأنتها، وقالت لها:

– هل من المعقول أن يكون نصيبُ الولد من أبيه ثلاث ساعات أسبوعيًّا في مركز الشباب! ناهيكِ أنك تتعلّلين أحيانًا بأن الولد يذاكر أو مريض أو ما شابه ذلك.

ثمّ خاطبت الزوج:

– ليس معنى الطلاق أن ننسى الفضلَ بيننا، ابنك أنت مسئول عنه، احتضنه حتى يكبر ويكون رجلا سويًّا. ثمّ أنّه باتفاقكما على الاستضافة سترفع من روح الطفل المعنوية، لكنْ عليك ألّا تعذب أمّه كما كنت تفعل أحيانًا بعدم ذهابك إلى مركز الشباب وتركها تتحمل وعثاء السفر، لا تترك الأمور تسير هكذا، وتبرر أنه في سنّ الخامسة عشرة ستسترد ابنك، نعم ستسرده، لكن جسدًا بلا روح.

كلامي موجّه لكما سويًّا، لا تجعلَا من ابنكما وسيلة تلاسن بينكما، ولا أن يستغلّه أحدكما في الإساءة للآخر، التواصل الإيجابي والأحضانً والكلام الطيب له عاملٌ نفسي كبير على صحة ياسين، هذا التحسن الملحوظ في حالة ياسين يرجع إلى التحسن التدريجي في علاقتكما معه، وأرجو أن تستمرَّا في ذلك.

اختتمت حنان كلامها قائلة:

– الفضل بينكما سيضمن لكما طفلًا سويًّا، ينمو في كنفكما، حتى وإن تباعدت أراضيكما.

***

– حياة الموظف داخل البنك ليست كما يتخيّلها الكثيرون حياة هانئة سعيدة مستقرّة، لكنّها حياة مليئة بالأرقام والحسابات، الزي الرسمي وهو البَدْلة يلازمنا طيلة مكوثنا في البنك، وأحيانًا خارجه، التكرار في أي شيء يصيب بالرتابة.

هكذا كان حديث عمر مع سمر واصفًا يومه..

فجأة، استرجعت سمر كلامَ حنان وشكواها من رشاد وجمود مشاعره، لتجد نفسها تقاطع عمر وتحتضنه وتطبقُ عليه بين ذراعيها.

استمرّ عمر في تسامره معها، فحكى لها تفصيليًّا ما أخبره به آدم، مُخلفًا وعده معه بأنّه لن يُخبر أحدًا، كما قال لها عن اندهاشه من تصرفات رشاد ودفاعه عن حسن، وكم أنه نفسه لاحظ اختلاف حسن عن ذي قبل، وأنه متيقن من أنّ سرًّا ما يجمعهما، ثمّ حكى لها واقعة البنك التي حدثت مع شفيق، والعقوبة التي فرضها رشاد عليه بدون وجه حق، وأنّه مازالت تلك الواقعة تُلقي بظلالها على تفكيره.

تردّدت سمر كثيرًا قبل أن تخبر عمر بمحاولة رشاد للارتباط بها، وأنها ما كانت لتخبره لوْلا إحساسها بأنه يربط بين رفضها إيّاه والمشاكل التي أصبحت تحيط بعمر من قِبل رشاد.

أصابت عمر الصدمة، ثمّ ربط كلّ ما حدث بينه وبين رشاد في الآونة الأخيرة وعلاقته بما ذكرته سمر، تذكَر عندما أخبرَ رشاد عن تقدمه لخطبة سمر وتظاهره بأنّه لا يعرفها، ولامَ نفسه أنه حينها كان يختار كلماته بعناية حتى لا يجرحه.

لامَها عمر بعدم إخبارها إيّاه، كان سيربط بين ما يلاقيه من صعوبات في معاملة رشاد، وكذلك حجم العمل الذي يوليه إيّاه، ولا يرى ثمرةَ تعبه حتى الآن، وبين ما يُضمره له في قلبه، ثمّ قال لها:

– يعدُك رشاد دائمًا بالأفضل، يعدك بأنه سيغير حياتك رأسًا على عقب، لكنّي أكتشف يوميًّا أنّ كلّ ذلك ما هو إلّا محاولة منه لجعلك درجة يرتقها ليصل إلى مراده. لكنّ جدّي الباشا، لم أكن أتوقع أنّه على شاكلته، لقد انخدعت فيهما.

ثمّ همس في نفسه قائلًا:

– تعتقد أنك الأذكى، وأنك لن تترك خيطًا يقودنا إليك، اعتقدت أنك من الزمرة الطيبة، تضمّ أفضل الناس تحت جناحيك بألاعيبك القذرة لتحميك من الشك، الشكّ مفتاحي من الآن، سأشكّ فيك إلى أن يثبت العكس، من يكذب لا يؤتمن، تمنيت لو أنّ بحوزتي مشروبًا سحريًّا لأختفي وأتعلم فقط كيف تتقن اللعب على كلّ الخيوط المتشابكة وتُسيَّرها أينما تشاء، أنت بارع، لكن ليس معي بعد الآن.

(٢٣)

كالمُحقّق الذي باتت الأدلةُ بين يديه لكنّها مبعثرة وليست بدامغة، كان لزامًا على عمر أن يعيد ترتيبها إنْ أراد أن يصل إلى مرادِه، وأن يتخلّى عن قناعاته السابقة تجاهَ جدّه وخاله، ويتَّبع ما يُمليه عليه ضميرُه، وتفرضه عليه الظروف، تلك الظّروف التي فرضتْ عليه التدخل، فلا هو سعى لمعرفة مال زوجته المنهوب، ولا سعى لكشف غموض سلسلة الجرائم التي تدور من حوله، ولم تطفُ بعدُ على السطح.

ذهبَ عمر إلى صفوت، وأخبره بأنه على دراية بشكوكه حول سرقة جده الباشا لمالِ والد سمر، وأنّه نحَّى كلّ صلات القرابة جانبًا، وسيسعى جاهدا لإبراز الحقِيقة أيًّا كانت. رغم أنّ صفوت لم يرقْه ما فعلته سمر، إلّا أنه وجد عمر مندفعًا متحمسًا لكشف الغموض، لا يدري كيف سيفعل ذلك بعد مرور أكثر من عشرين عامًا على تلك الواقعة، لكنه قصّ عليه وأجابه عن كلّ تساؤلاته.

أخذ عمر يضع كلّ الاحتمالات، ويستبعدُ منها ما لا يستطيع إثباته، لكن في النهاية فتكَ اليأس بكلّ آماله في كشف الحقيقة الغائبة.

***

منذُ أن أخبرها أبوها بِسرّ تلك العلاقة بين رشاد وأبيه وهي ترى أنّ دورها الأكبر في التقريب بينهما، ما سمعته أخيرًا عن والد رشاد من سمر أثار الفضول في نفسها لتتعرّف على تلك الشخصية الجامعة، فرغم إحساس

سمر الصارخ بظلمه لها، إلا أنّها لم تذكر موقفًا واحدًا سيئًا جمعها به، فجعلت دراسة شخصية جلال ضمن أولوياتها، لكن عليها أولًا أن تستخرج مكنونات شخصية رشاد.

عرِفَتْ عن رشاد كم هو ناجح في عمله، لكنها لم تقفْ على سبب رئيسي للمسةِ الحزن التي أخبرها أبوها بها سوى في علاقته بأبيه، تأكدت من استنتاجات بسيطة من حديثها مع أمّه وداد، أو أخته سها، أو حتى غادة، أنّ شخصية رشاد من النوع المتقلّب الذي لا يُفهم بسهولة.

شخصية رشاد الجليّة الواضحة في العمل التي تتعدد معارفها هي نفس الشخصية التي تنزوي بمشاكلها بعيدًا في ركن سحيق عن الجميع، فمع انقضاء وقت العمل الرّسمي تتحول شخصيته إلى ما يألفه الجميع حوله من غموض وحيرة وشعور بالذنب، يكره الاجتماعات الأسريّة وبشدّة، يشعر بالحرمان البيئي والمجتمعي، وأحيانًا الاكتئاب.

كما فعلت حنان مع ياسين ستفعل مع رشاد، وبعدما استقتْ ما استطاعت جمعه من معلومات، استغلت كلّ لقاء يجمعهما بالغوص أكثر في خبايا شخصيته.

فى زيارته لها، جلست حنان مع رشاد واسترجعت معه ذكريات الطفولة، حكت عن نفسها قاصدةً أن تستحثّه هو الآخر على استرجاعه ذكرياته:

– لا أعرف الكثير عن عائلتك، لا أريد أن أعرف منك شيئًا، لي طرقي الخاصّة في الحصول على ما أريد.

– ها.. ها، طرقك، وماذا عرفتِ حتى الآن؟

– أريدك أن تخبرني أنت أولًا عمّا تودّ مشاركتي به عنك، ولنبدأ منذ الطفولة، تفضّل معك الميكرفون.

– ها.. ها، طريقتك جيدة، من الواضح أنك طبيبة نفسية ماهرة.

– بكلّ تأكيد، أرجوك لا تضيع وقتَ الجلسة هناك مرضى غيرك، وقتي ثمين، تفضّل. لأقترح عليك، احكِ لي مواقفك السعيدة في الطفولة مع أبيك وأمّك.

– تخيّلي، أنّي أعرف قيمة تلك الذكريات إلّا أنّي أبدًا لم أجلس وأسترجعها، فذاكرتي نضبت، لكنْ فجأة لا أدري لماذا أريد أن أقصّ عليك موقفًا طريفًا تذكّرته للتوّ أدْخَل في قلبي السرور.

– أنت أيها المريض تجلس مع واحدةٍ من علامات مُصدّري الطاقة الإيجابية، تفضّل... اسردْ لي قصتك.

– بمناسبة الميكرفون، تذكَّرت حفلًا من حفلات الزفاف التي كانت تبدأ في قريتنا منذ الصباح الباكر وتنتهي مع دخول الليل، يجلس شخص ومعه مذياع ومكبّر صوت.

منذُ الصباح وحتى دخول وقت العصاري وهو يُصدر لمكبر الصوت كلّ أغاني الزفاف والفرح، وفي الفواصل بين تلك الأغاني وبعضها كانت فقرة التهاني حيث يقوم الحضور بمنحه خمسة وعشرين قرشًا دفعة واحدة من أجل تهنئة العروسين. وفي أثناء أحد الفواصل إذا بي فجأة أسمع اسمي يُنادى عنْ طريق هذا الرجل عبر مكبر الصوت «مهندس رشاد جلال يهنئ

العروسين ويتمنّى لهما حياة سعيدة، تحية كبيرة لمهندس رشاد» كان أبي هو مَن أوصاه بذلك، أتدرين يا حنان، كان ذلك هو أسعد أيام طفولتي.

تأثّرت حنان بكلمات رشاد التي خرجتْ منه مصحوبة بزفرات خافتة، فسارعت بإلقاء سؤالها الثاني:

– إذا انتقلنا للموقف الأسوأ في الطفولة، فما هو؟ والسؤال هنا اختياري يمكنك الاعتذار عن إجابته.

– لا، سأجيبك، من حقّك أن تعرفي، طفولتي لا يعرف عنها الكثيرون، لكن لا أدري لماذا أريد أن أحكي، من الواضح أنك ماهرة حقًّا. أمّي وأبى منفصلان وأنا في الحادي عشر من عمري، كان انفصالهما هذا تتويجًا لمشاكل أسرية دائمة، ورغم تلك المشاكل إلّا أنّ شعور التواجد بين أبيك وأمّك في بيت واحد أفضل بكثير من الانفصال، بالمناسبة ستجدين جفاءً بيني وبين أبي، لا أكرهه ولكنّي أكره بُعدَه عنّي، كثيرًا ما شعرت بالغيرة من هؤلاء الأطفال الذين يعيشون في كنف آبائهم.

– ولماذا لمْ تحاول أن تقترب أنت منه؟!

– أبي شخص سلبي تجاهي، حتى وإن كانت أمّي لها دور في إبعاده عنّي، لمَ لمْ يسعَ لاحتضاني؟!

أنا مَن طلبت من أمّي أن تسمح لي بالمكوث معه في بيته ولو لليلة شهريًّا؛ عوضًا عن تلك الزيارات الأسبوعية الحقيرة، أو تلك المقابلات في بيت أعمامي على مرأى ومسمع من الجميع.

لكنّ أمّي نهرتني، ثمّ عادت لتُحَذّرني من مرارة التعامل مع زوجة الأب، وأنّ تلك المعاملة ستترك أثرًا سلبيًّا في نفسي.

وجدت أبي لا يستحقّ أن أعرض عليه تلك الفكرة، طالما أنه لم يطلبها من تلقاء نفسه؛ رغم أنّي كنت في أمَسّ الحاجة لوجود أبي في حياتي، كما أنّي لاحظت أنّ ظهور اسم أبي في حياتنا يمثل مصدرَ تعاسة بالغ لأمي، هي لم تتّهمه بسوء خلق أو أيّ شيء أُنكره عليه، إلّا أنّها دائمًا ما تتّهمه بالإهمال والخيانة، لقد وأدتْ حبّ أبي في صدري.

سكتَ رشاد ولم يعطِ لحنان الفرصة في طرح المزيد، فاستطرد قائلًا:

– بالطبع كَرهت زوجته، أنتِ تعرفين ابنتها، هي أمّ سمر، مَن قمت أنت بزيارتها أمس، أمّ سمر كانت كالنسر الجامح الذي حطّ رحاله على عشّنا فهدمَه، ورغم أنّه كان ليس بالعشّ الهادئ إلا أنه تَهدَّم وعلى يديها.

شعرتْ حنان بالمرارة في ذكريات رشاد، والتي اجترتها عليه بسؤالها، لن تكون مهمّتها سهلة كمهمّتها مع ياسين وأبويه. ياسين أيضًا كان يحتاج أباه، لكنه كان لا يزال صغيرًا لم يفقد الثقة فيه بعْد، ولم يُحمّله تبعات ما لحق به، محظوظ هو والد ياسين أن رُدّ إليه صوابه قبل أن ينْمو نبتة، ويشتدّ عوده ويصرّح بوأد حبّه في صدره.

في اليوم التالي، وبعد أن أخبرت حنان أمّها وأبيها عن الوعكة الصحية التي ألَّمت بوداد، ذهبوا جميعًا لزيارتها، وأثناء مغادرتهم طلبت وداد أن تنفرد بحنان لأمر خاص.

***

كان عمر وسمر في طريقهما لزيارة خالها صفوت.

طيلة الطريق وعمر يشعرُ بالضيق؛ كان يحْدوه الأمل في أن يصل للحقيقة، أو أن يقتربَ منها ويبشّر بها خالها، خاصّة بعدما كشف له معرفته بحقيقة جدّه الباشا.

ما إنْ دلفوا إلى الفيلا وتأكّدت سمر جيدًا من أن الكلب بولمان مُقيد بسلسلته كشرط عمر الدائم حين زيارة بيت خالها، حتى رحّبت بهم زوجة خالها التي استردت كثيرًا من صحّتها بانتقالها للقاهرة.

كعادةِ أسرتهم في أول زيارةٍ للبنت لبيت أبيها بعدَ الزواج أن تتلقى هدية قيمة، بالفعل قدّم صفوت لسمر هديةً أولى زياراتها له، لاحظت زوجة خالها هذا العقد المتدلّي من رقبتها فلا هو مِن الشبكة التي أشرفت على إحضارها، ولا هو من مُقتنيات سمر السابقة، فسألتها عنه، فكان جوابُ سمر أنّه هدية من قريبٍ لرشاد ابن عمّها جلال، والذي يُدعى فريد سراج.

سمعَ صفوت اسمَ فريد سراج، فانتبه من فوْره، وأخبر عمر بأنّ فريد هو مَن أخبره منذ أكثر من عشرين عامًا بأنّ والد سمر قد سحب أمواله المودَعة جميعًا، معلومة جديدة أضيفت لعمر لا يعرف إنْ كانت ستفيد أم لا في بحثه الذي فقد فيه الأمل سريعًا.

***

استعان عمر بمجدي الذي يعتبر بمثابة آخرِ آماله في الوصول للحقيقة، وكما فعل عمر حين استقى المعلومات من صفَوت، فعلَ مجدي معه المثل وسأله تفصيليًّا عمّا حدث، وكان يقوم بالتحليل الفوري وتهميش بعض الأسئلة التي لا يعرف عمر إجابتها، ثمّ طلب مجدي منه أربعة أيام وسيبلغه بعدها إن كان باستطاعته المساعدة أم لا.

(٢٤)

شمّ النسيم، ٢١ أبريل، ٢٠١٤

خيوط متشابكة، تُحاك مخطّطاتهم في الظلام، أو من وراء حجاب، يدخل المفعم بحبّ الحياة، يصرخ في صمته.. وجدتُ ضالتي، هؤلاء مَن هم على شاكلتي، فلأنتقي منهم أجملَ ما فيهم، ولأغرس بكفّي نبتًا من بنات أفكارهم، أتأمله حتى تضربَ جذوره في الأعماق. مثاليتي الحمقاء أخيرًا ستجد مَن يئدُ صراعاتها في مهدِها وانتكاساتها المتكررة. آهٍ.. دخلتُ العُشّ ومعسولَ الكلام، لن أعاني من تبعاته إلا إذا خرجت عن الدرب، قنواتُ الاتصال في ظاهرها واحدةٌ جلية، لكنه لا يدري أنّ الهمهمات وتعالي صخب الضحكات، يجري في قنوات موازية. من ذاك الذي أفشي له بعضًا من حقيقتهم بعدما تأكّد من صعوبة قابليته للانخراط في مستنقع أفكارهم؟ هو مثله أيضًا، شغل يومه فانشغلت عنه الوساوسُ وباتَ له درجَةً عاليةً مِن درجات الرّضا تتوق لها النفس، لن أضحّي بهم، فهُم منّي وأنا منهم. فقط سأرمي لك بين ثنايا كلامي كلامًا، ولك مطلق الاختيار في الفهم السريع، أو أن تظلّ قابعًا مكانك، يُرمى إليك الفتاتُ، فتقتات.

صباحَ يوم الاثنين الحادي والعشرين من إبريل لعام ٢٠١٤، الموافق للاحتفال السنوي للمصريين بأعياد شم النسيم، كانت حنان وعائلتها على موعد مع رشاد وأمّه وداد لقضاء هذا اليوم داخلَ أحد المتنزهات العامة،

أصرت حنان أن تتكفل بالتجهيز الكامل لهذا اليوم وأن تقضيه على طريقتها، كلّ ما على رشاد فعله هو أن يُقلَّهم بسيارته في الصباح الباكر.

في اليوم ذاته، اتّخذ آدم قرارًا صعبًا، سيُصارح أخته حنان بما تجلّى له، لن يسمح لها بأنْ تدخل عشّ الدبابير. استيقظ مبكرًا على غير عادته فهو حينما تأتيه الفرصة للنّوم لا يفلتها، لكنْ لربما عمله الجديد أثّر على أفعاله، ذهب إلى أخته ثمّ قال لها:

– حنان، وبدون مقدمات، أريدك في أمر هام.

– هل من الممكن يا آدم أن تؤجّل هذا الأمر للمساء؟ لم يتبق سوى نصف ساعة ويأتي رشاد، نريد أن نستمتع باليوم قبل اشتداد الحر.

– الأمر يا حنان بخصوص رشاد، رشاد يا حنان وأبوه، على ما يبدو أنهما يشتركان في الاتّجار بالمواد المخدرة.

سقطَ السكين الذي بحوزتها، ثمّ تجمّدت مكانها، وقالت:

– آدم! ماذا تقول؟!

– سأصارحك أنت الأخرى بكلّ شيء، لقد أخبرتهم جميعًا ولن أبخل عليك بنظرةٍ دونية تُوليها إياي، لكنّها ستكون عِوضًا عن انخراطك في هذا المستنقع. لقد اشتركت مع سلامة في هذه التجارة ولم أكنْ أعرف من يشترك معنا، وبمرور الأيام يظهر جليًّا تورّط حسن، وجلال والد رشاد، ورشاد نفسه.

الصّدمات تتوالى على رأس حنان، وآدم مستمرّ في تفسيره لا يريد ردًّا فلسفيًّا أو نقاشًا يتطلب أدلة مادية على ادّعاءاته، هو واثق تمام الثقة من أقاوله ويريد من أخته أن تكون مثله، استمرّ قائلًا:

– أعلم أن ما أقوله الآن سيكون وقعُه عليك عظيمًا، لم يخطر لي على بال أن يشترك حسن هذا الشخص المنطوي على نفسه في مثل تلك التجارة، ولا أن يشترك رشاد بتلك الهيبة العظيمة التي يتحلى بها في التستر عليه، لمصلحةٍ ما بينهما لم أضعْ يدي عليها حتى الآن.

تمالكت حنان نفسها، وأعْمَلَت عقلها، ثمّ سألت آدم:

– سأصدّقك في ادّعائك بالنسبة لعملك مع سلامة فقد كنت أتشكك في طبيعته، لكن مَن أدراك أنّ رشاد وأباه مشتركين معكما؟!

– لقد كان أبوه طرفًا في تسليم البضاعة لي في إحدى المرات، ثمّ تعرفت عليه في حفل خطوبتك. أمّا رشاد فلا أستطيع حتى الآن أن أُثبت عليه شيئًا، لقد استعنت به لكشف العديد من الملابسات فوجدته يُضللني السبيل، كلّ ما يُحيط به يُدينه، صديقه المقرب وأبوه وخداعه لي.

تنهّدت حنان، التقطت أنفاسها التائهة، ثمّ قالت:

– وأين أنت مِن تلك التجارة حاليًا؟

– لقد عزمت عزمًا أكيدًا على ألّا أعود إليها مجددًا.

– جميل يا آدم، اقتنعت بالكثير من كلامك، فحسن وكما عهدته ضعيفُ الشخصية، يُسلم نفسَه طواعيةً لأخيه ولا يملك معه رفضًا ولا جدالًا، فلا أستبعد عنه ذلك، ووالد رشاد لم تجمعنا الكثير من اللقاءات لأنفي عنه أو

أؤكد ما قلته، أمّا رشاد ومِن واقع حديثك فلا يوجد لا دليل مادي أو لفظي واحدٌ عن انخراطه في تلك التجارة سوى تخميناتك.

اشتعلَ الغضب برأس آدم، ولأوّل مرة يصرخ في أخته قائلًا:

– لا داعي لإلغاء عقلك يا حنان، رشاد هذا هو الأكثرُ إجرامًا. أتدرين أن سلامة مختفٍ منذ أكثر من أربعة أشهر كاملة، لقد قتلوه.. قتلوه، قتله حسن ورشاد.

تصيب الدهشة حنان وتهمّ بالكلام، لكنها وجدت هاتفها الجوال يصدر رنينًا منبهًا باستقبال مكالمة من رشاد، استقبلت المكالمة على الفور لتجد رشاد يصرخ قائلًا:

– حنان، أنا في المستشفى، أمّي تموت!

حاولت حنان أن تُهدّئ من روْع رشاد، ثمّ سألته عن اسم المستشفى، وسارعت بتبديل ملابسها، ثمّ قالت لآدم وهي تَهُمّ بالمغادرة:

– والدة رشاد بحالة خطيرة في المستشفى، سأذهب أنا وأبوك الآن إليهما، إن كانت ظنونك تجاه رشاد مبنيّة على قتله لسلامة صاحبك هذا، فسلامة حيّ يرزق لم يمت، وسأثبت لك بنفسي بعدما أعود من المستشفى. سأخبرك أيضًا بشيء آخر، رشاد مِن أطهر مَن تعاملت معهم.

وصلتْ حنان مع أبيها إلى المستشفى، وبعد مرور ما يقرب من ساعتين، طمأن الطبيب المعالج رشاد فقد استقرّ الوضع الصحي لوالدته نسبيًّا، ويمكنهم بعد ساعتين اتّخاذ القرار المناسب بشأن ميعاد إجراء عملية تركيب دعامة للقلب.

جلسَ ثلاثتهم ينتظرون انقضاء الساعتين. كان رشاد قد استعاد ثباته من جديد بعد طمأنة الطبيب له بأنّ عملية تركيب دعامة للقلب لم تعدْ صعبة، وأنها فقط لتوسيع الشّرايين، ومنع تضيقها مرّة أخرى، وتقليل فرص حدوث السكتة الدماغية.

أمّا حنان والتي كنت تنتظر هذا اليوم وكانت تحسبه يومَ فرح وسعادة، فقد تزاحمت الأفكار في رأسها، وانتهزت أقربَ فرصة لتتحدث مع رشاد بما تشعر به منذ شهر كامل، وتحديدًا منذ حفلة معاش أبيها، قال لها رشاد:

– حمدًا لله يا حنان، لقد تجمّد تفكيري كله، كنت أنتِ أوّل من خطر ببالي ليساعدني في تلك المحنة.

– الحمد لله، بإذن الله تستردّ طنط عافيتها وتعود لمنزلها بكلّ خير، كنت...

سكتتْ حنان قبل أن يستحثّها رشاد على الحديث قائلًا:

– كنتِ ماذا يا حنان؟ تكلمي، الحمد لله أنا بخير الآن.

– الوقت غير مناسب، سأُخبرك لاحقًا.

– لا يا حنان، أرجوكِ تكلمي.

– حدّثني آدم اليوم عن شكوكه تجاهَ حسن وأخيه، وتكلّم عن قضية قتل أو ما شابه ذلك، وقال لي بأنّك أكدت له أنّ هذا لم يحدث، وهو ما أكّدته له أنا الأخرى.

– نعم، لقد أكّدت له هذا، من الواضح أنه لم يقتنع بعد.

ارتبكتْ حنان ثمّ قالت:

– أتعرف يا رشاد أنّ مَن جاء حفل معاش أبي وحفل خطوبتنا كان هو سلامة وليس حسن!

(٢٥)

٢٠ يناير، ٢٠١٤

لكلّ مدى نهاية، ولكلّ خطة أجل، القرار في وضع نقطة النهاية لكلّ خطة يمكن أن يجانبه الصواب، أو يحالفه التوفيق، لكنّه في النهاية قرار سيُتخذ أيًّا كانت عواقبه.

غادرَ حسن إلى مكانٍ مهجور، فتح الباب برفق، دخل ليجدَ الشخص الذي يُوليه ظهرَه يشاهد التلفاز ويضحك كثيرًا، ثمّ توقف عن الضحك قائلًا:

– حضرت يا تَوْأمي، يا ابن أمّي وأبي.

– أرجوك يا حسن سأوضّح لك كلّ شيء.

– أتعرف يا سلامة، آخر ما خطر لي ببال أن يأتيني الأذى عن طريقك.

– مِن الواضح يا حسن أنك تريد أن تكرّر ما تحدثنا به هاتفيًّا.

سكت سلامة قليلًا ثمّ قال:

– حسن، تصرّفي منطقي للغاية، كنت أعلم ردّة فعلك مسبقًا، بالطبع لم تكن لتوافقني الرأي، أيرضيك أن نكون لُقمةً سائغة في يد هؤلاء!!

ندخل في التجارة ونغامر بسمعتنا وأنفسنا، ووقتما يحلو لهم يُنهونها من جانبهم حتى دون أن نعرف مَن هم، أو حتى دون أن يتركوا لنا ما يُعوض لنا هذا الانقطاع المفاجئ! مِن أين لنا أن نحصل على باقي أقساط تلك الفيلا؟

أو مِن أين لنا أن نُوفّي بالالتزامات التي طرأت علينا؟ كان من الطبيعي أن أثور، ومن الطبيعي أن أحكمَ عليك، وكنت لن تتقبل منّي كلامًا دون دليل، وها أنا حينما امتلكت دليلًا جئت إليك.

يتنهّد حسن، وينطلق في بكاء مرير، ثمّ يقول:

– سلامة، تعرفني كما لا أعرف أنا نفسي، أنت أخي، صدمة اختطافك لي واللّحظة التي تركتني فيها هنا معَ إحكام إغلاقك للمكان، وقعت منّي موقعًا عظيمًا. أتدرى أنه كان بإمكاني محاولة الهرب أو الخلاص، وكان بمقدوري ذلك، لكنّي لم أحاول لأنّي حينها لم أكن أدري ردّة فعلي تجاهك، ولأنك لي في قلبي مكانة خاصّة تركت لك الفرصة التي تعود فيها وتبرر لي، لماذا فعلت هذا؟

احتضنَ سلامة توأمه حسن الغارق في دموعه قائلًا:

– كان لزامًا عليَّ أن أكون مكانك يا حسن، لقد وصلتني تهديدات بقتلك، كانت آخرُ رسالة أرسلتها للخطّ المجهول، عن نيتك بفضح أمرهم والتي لاقت تصديقهم، بعدَ تهديدك السابق دافعًا لهم بالردّ برسالة أخرى كما رأيتها أنت، وعرضت عليك حينها أن تتوارى عن الأنظار وسأكون أنا مكانك في كلّ شيء حتى أكتشف خباياهم. كانت نيتي إن كان تهديدنا لهم يُخيفهم بمثل تلك الدرجة، فليكن لعبي معهم هو التهديد المستمر حتى أنال كلّ أريد، ولكن أيضًا حتى لا أُعرّضك للخطر فضّلت أن أكون مكانك. ها.. ها، تخيل يا حسن يُقدّمون لي عرضًا بإسكاتك بأيّ طريقة، يُلمّحون لي أن أقتلك.

يضحك حسن ويقول:

– لقد نفّذت لهم طلبهم يا سلامة.

– لا يا حسن لم أفعل، لقد لعبت معهم كما لعبوا معنا، أفهمتهم أنك تحتاج لمبلغ مِن المال لتسكت فأرسلوه، وفي نفس الوقت كنت أنا مكانك إن هيأت لهم أنفسهم إصابتك بأيّ مكروه، لقد ضحيت بنفسي مكانك يا حسن.

– ها.. ها، وانتحلت شخصيتي، وعشت مكاني.

– نعم، انتحلت شخصيتك وعشت مكانك وظهرتْ لي العديد من الخبايا.

توقّف سلامة عن الكلام، ثمّ عاد ليقول:

– لكنّي لن أقول شيئًا إلّا بعد أن تسامحني على أخطائي، وإن كنت قد بررتها لك مرتين.

– سامحتك يا سلامة؛ لأنّك أغلى ما أملك.

احتضنَه سلامة ثمّ سأله:

– هل قلت شيئًا لرشاد عنّي أو عن عملنا المشترك؟

– لا، لم أقل شيئًا، تعرف أنه لا يوجد مجال للتحدث مع أحد داخل البنك في أموري الشخصية.

– كنت متأكدًا من ذلك.

– لكن انتظر، تقريبًا مرة واحدة قبل أن أقرّر أن أشترك معك واستجدائي لك بأنْ تترك هذا العمل، ذهبت للبنك في هذا اليوم وكانت علامات الحزن تكسو وجهي، فاقترب منّي رشاد، ومن الممكن أن أكون قد أخبرته بشيء.

– لا، إنه بالفعل كان يعرف بشأن تجارتنا.

– لقد تذكرت الموقف جيدًا يا سلامة، كنت أُوقع منه بعض الأوراق، وإذا به يُهنئني على انتقالي للفيلا الجديدة، طريقته في التهنئة كانت وكأنّها سؤال «مِن أين لك هذا؟» فأجبته قبل أن يسأل بأنّها فيلا أخي، فسألني عن مجال عملك فأجبته بأنك تعملُ في مجال الأدوية، فوجدته يُثني على زيادة تركيزي، وأن تركيزي في الفترة الأخيرة لم يكن على ما يُرام، ثمّ سألني عن وجود أيّ مشاكل معي، فكان كلّ ما قلته له مشاكل بسيطة مع أخي ستُحلّ قريبًا، فقال لي «هداه الله». بعدَ يومين حدث عُطل في محرك سيارتي فكان كريمًا معي حيث أقلّني حتى الفيلا، ثمّ استضفته واحتسينا القهوة سويًّا.

– إذًا، لقد استدرجني. (قالها سلامة مغتاظًا) لكنّي أيضًا استدرجته في أشياء كثيرة، فرشاد أبوه على قيد الحياة، والعلاقة بينهما على ما تبدو منقطعة أو سيئة تمامًا، ويعيش مع أمّه وحدها، وعندما ذكرت اسم أبيه وجدته قد أصابه شيء ما لا أعرفه، لكن تلك الشخصية غير سوية، وتُخبّئ وراءها العديد من الأسرار التي سأكتشفها.

– مهندس رشاد شخصية غير سويّة!! (قالها حسن مندهشًا).

٢١ أبريل، ٢٠١٤

في المستشفى، مازال الجميع ينتظر انقضاءَ الساعتين، ومن ثمّ نقل وداد إلى بيتها، وبينما كانت حنان تُخبر رشاد عن كيفية معرفتها لحقيقة سلامة والذي تنكر في شخصية أخيه، وأنّ تلك النظارة الطبية المستحدثة في وجهه لم تكن لتُثنيها عن معرفته. بعدما تفرّست ملامحه في ثوان معدودة.

حنان وفي تفسيرها الخاص، ظنّت أنّ أخاه هو مَن طلب منه ذلك؛ حتى يُجامل رشاد، ويعفي نفسه من حرجِ اللقاء في بيت خطيبته السابقة. لم تشارك حنان استنتاجاتها مع رشاد واكتفتَ بإخباره أنّ الأمر لا يهمها، وأن الصدفة هي من جعلتها تتأكّد من شخصية سلامة، وأنها لم تعطِ الأمر أهمية إلّا اليوم حينما شاركها آدم ظنونه.

تفاجأ رشاد بما أخبرته به حنان، تحدّثت حنان كثيرًا بينما هو غارق في تفكيره، لا يدري من أين يلتقط خيطَ الكلام الذي تاه منه، وبينما هو كذلك إذا به يتلقى صدمتين متتاليتين أردوه أرضًا.

***

بينما كانت سمر تستعدّ للخروج والاحتفال بشمّ النسيم في بيت خالها، إذا بعمر الذي باتَ يفكر ليل نهار في قضية سمر، يمسك بهاتفه ويتصل بمجدي:

– السلام عليكم، آسف يا مستر مجدي على إزعاجك في يوم كهذا.

– لا عليك يا عمر.

– هل وصلت لشيء فيما تناقشنا فيه سويًّا؟

– لا، ليس بعد.

– كنت أريد أن أشاركك بعضَ ما فكرت به من واقع حديثنا سابقًا، ماذا لو كان كلا الطرفين صادقين؟! خال زوجتي فيما ادّعاه بأن الأموال قد سُحبت قبل وفاة والدها بشهر واحد، وما يسوقه جدّي الباشا وأمّ زوجتي، رحمها الله، بأنهم لا يعرفون شيئًا عن هذا المال.

– كنت أعرف أنّ تفكيرك لن يقف عند حدود تفكير الآخرين.

***

٦ يناير، ٢٠١٤

عندما حلّ سلامة محلّ حسن، ورُغم ترتيبه السابق عن كيفية الانخراط في عمله الجديد، وأنه يملك الكثيرَ من الذكاء والقليل من المعلومات التي تسمح له بممارسة مهامّ أخيه، فهو أولًا دراسته ورغم عدم التزامه فيها ليست ببعيد عن مجال المحاسبات، كما أن جُلّ كلامه في الفترة الأخيرة مع أخيه انحصر في هذا الصدد.

لكنْ وبكلّ تأكيد الأمرُ ليس بتلك السهولة، كان لا يمتلك كلمة السرّ الخاصة بحساب أخيه، ولا يمتلك بالطبع خبرته، أو على الأقل خبرة المكان، لكنه تغلب على كلّ ذلك تدريجيًّا، غير أنّ رشاد ومع بدايات سلامة في البنك جاءه ذات مرة قائلًا:

– لست أنتَ بحسن الذي أعرفه، أداؤك متذبذبٌ في الفترة الأخيرة.

شعرَ سلامة حينها بأنه قد اكتُشف أمره، وأنّ هذه الجملة تلميحٌ لذلك، بالطبع تَقَبّل النقد اللاذع الذي وجّهه له رشاد، وتمنّى أن لو ينتهي الأمر عند ذلك أو حتى ولو بالخصم عوضًا عن افتضاح أمره.

بعدَ انتهاء وقت العمل الرسمي، وجد سلامة رشاد ينتظره ودعاه إلى التجوّل قليلا سيرًا على الأقدام، ثمّ قال له:

– أعرف أنّي قد قسوتُ عليك اليوم مستر حسن، لكنّي أرى أن أمر انفصالك عن حنان قد أثر عليك كثيرًا، أو أن تلك المشاكل السابقة بينك وبين أخيك هداه الله قد ظهرت مُجددًا، بالمناسبة أين هو الآن؟!

ازدادت دهشة سلامة، وقال في قرارة نفسه:

– هذا الرجل يتلاعب بي، إنّه يعرف كلّ شيء ويريد أن يقتلني ببطء!

لم يشعرْ سلامة إلّا وهو يجاريه ويقول له:

– لقد سافر بعدما حامتْ حوله الشكوك، ثمّ بدأ في سرد قصة مختلقة من وحي خياله مُطعّمة بقليل من الحقائق، غير أنّه لم يلمح في عيني رشاد بأن كلّ تلك المعلومات تُلقى على مسامعه للمرة الأولى، حسب أن أخاه حسن حكى له بعضًا منها من قبل.

***

٢١ أبريل، ٢٠١٤

– سمر، أرجوك أن تكلمي خالك حالًا.

– ما خطبك يا عمر! سنكون في منزله بعد أقل من ساعة.

– بعض الأسئلة ستقودني لمعرفة أموال أبيك، وأريد إجاباتها حالًا.

تمسك سمر هاتفها، وبعد أن يُجيب صفوت، يخطفُ عمر السماعة من يدها قائلًا:

– عمّي صفوت، هل كنت أنت أو طنط ميرفت تعرفان بأنّ عمّي طاهر لديه حسابات بنكية؟

– بالنسبة لي فكنت لا أعلم، وأعتقد أنّ ميرفت أيضًا لا تعلم، فقد كان طاهر حريصًا معها، ولا يُطلع أحدًا على أموره المادية.

– إذًا يا عمّي صفوت كما خمنت، فإنّ الحساب بعد موت عمّي طاهر تحول للحسابات الراكدة.

– وما الحسابات الراكدة؟

– حساب العميل يُعدّ راكدًا بعد مرور اثني عشر شهرًا كاملة على عدم إيداع مبالغ مالية بالحساب أو السّحب منه، وتختلف تلك المدة من بنك لآخر، كما أنّ المعاملة التي نتكلم عنها منذ أكثر من أربعة وعشرين عامًا.

– وما توقعاتك يا عمر؟

– لقد قلت لي سابقًا إنّ أستاذ فريد هو مَن أبلغكم بسحب الأموال من قِبل عمّي طاهر!

– نعم، إنه هو.

– إذًا، سأذهب إليه ليُطلعني على مزيدٍ من المعلومات.

***

لا يزال حسن ينتظرُ أن تعود الأمور لنصابها، ويعود ثانيةً إلى مكانه، فقد أعطى سلامة منذ زيارته له في الشهر الماضي فرصة أخيرة حتى نهاية شهر أبريل ٢٠١٤، واليوم من المفترض أن يأتي له سلامة ليُطلعه على آخر التطورات. ما إن جاء سلامة حتى بادره حسن بالسؤال:

– ألمْ يحنِ الوقتُ بعد لإنهاء هذا السخف؟! أظنّ أن ما قد عُوضت به من مال كافٍ تمامًا لأن تُقلع عن هذا الوباء، والحمد لله لم يعرف أحد ولم نُضر، أمّا بالنسبة لباقي أقساط الفيلا فيُمكنني أخذ قرض وتسديدهم، وهكذا ينتهي الأمر.

– حسن، أنت طيب للغاية، تعمل في البنك وتريد أن تحصل على قرض بينما أصدقاؤك يتلاعبون بالأموال، ويجنونها من لا شيء دون أي مخاطرة.

– ماذا تقصد يا سلامة؟

– أقلّ من خمسة أشهر هي فترة تواجدي داخل البنك عرفت خلالها الكثير، لكن لا بدّ أولا أن أطلعك سرًّا قبل أن أفجر مفاجآتي.

– من الواضح أن تلك الليلة ستكون مختلفة.

– بالفعل إنها كذلك، منذ أيامى الأولى في البنك ورشاد قد اكتشف أني لست أنت، وبعدما تلاعب بي كثيرًا سألني "ماذا فعلتَ بأخيك يا سلامة" ثمّ طلب أن يتأكّد أنك على قيد الحياة، وهو ما أكدته له مكالمة بالصوت والصورة بيني وبينك كما تعلم، لكنّي حينها أفهمتك عكسَ الحقيقة، وقلت لك إنّه يظنني كحسن، قتلت سلامة، في حين أنه كان يعرف أنّي سلامة ويريد أن يتأكد أنّي لم أقتلك.

– ولماذا تكذب علي في أمر كهذا؟ في النهاية لم يحدث لا هذا ولا ذاك.

– رشاد مَن ساعدني في البنك، وقام بإرشادي عن كيفية تغيير كلمة السر مع قسم تكنولوجيا المعلومات بعدما أخبرني بأن أقول لهم إنّي نسيتها، وكلّ ما كنت أقابله من عثرات أو مشاكل، كان يتدخل لحلّها حتى لا ينفضح أمري.

– ولماذا كلّ هذا؟

– هذا ما سألته لنفسي، في البداية أرجعت الأمر كما أخبرتك سابقًا أن له دورًا كبيرًا، إنْ لم يكن هو الرجل الأول في تجارة الترامادول، ثمّ اكتشفت بعد ذلك ما هو أخطر من الترامادول ولا يحتاج لمخاطرة، كلّ ما يحتاجه هو التعامل مع نظام البنك وقتَ الصيانة واستغلال تعطّل النظام المصرفي بالبنك وإرسال رصيد البنك كلّه لأحد البنوك الكندية فيما يُسمّى بالمعاملات الليلية، وبعدَ ساعات قليلة يعود أصل المبلغ عليه قيمةُ الفوائد التي يتمّ أخذها، ثمّ يتمّ إعادة أصل مال البنك كما كان.

– نعم، هذا ما كنت تقصده عن المعاملات الليلية، لم أكن أتوقع أن رشاد بهذا الإجرام!

– ها.. ها، ماذا إن عرفت أنّه قام بخطبة حنان يسري خطيبتك السابقة!

كان هذا الخبر وقعُه أكبر على حسن من كلّ الأخبار السابقة، فيما استمرّ سلامة في كلامه:

– لا تنصدم يا حسن أنت طيّب جدًّا، رشاد هذا أخطبوط كبير، له علاقات كثيرة بمَن يمسكون زمام الأمور، كلّ من يصادقهم يتمتعون بسيرة حسنة ليضفي على شخصيته نوعًا من الاحترام، يلفظ بسرعة مَن لا يُمثلون مصلحة بالنسبة له، يختار أعداءه كما يختار أصدقاءه، إرضاء مديريه بدون مبالغة ودون فقد لمكانته، ناهيك عن انتقائه لملابسه التي تجذب الأنظار، نقده له حدود مع رؤسائه، يعرف كيف يُسقط ما يريد دون الإفصاح عنه مباشرة، يستخدم كلّ مَن حوله ليصعد ويرتقي، وبالتأكيد يعرف كيف يقدم كبش الفداء.

– كلّ ذلك عرفته عنه في تلك الفترة الوجيزة، وأنا مَن ظننته يومًا من أفضل مَن تعاملت معهم!

– قبلَ أن يُصرح لي عن شخصيته، وجدتُ نفسي مرشحًا لتدريب يتحدث وبشكلٍ غير مباشر عن أمثلة لبعض الاختراقات داخل البنوك وكان من بينها تلك المعاملات الليلية، قادني أنا لأطلبها منه فكان له ما أراد، بل لقد زاد في ذلك فتظاهر بالتردّد في قبول الأمر، وظللت أنا كالأبْلَه أُقنعه، وقام هو بتنفيذها، ولكن باستخدام حسابك أنتَ الشخصي الذي أعطيته أنا كلمة المرور الجديدة الخاصة به.

– الحقير، لكنّك أنت أيضًا لست بمنأى عن تلك الجرائم والسرقات.

– لقد رتّب رشاد لكلّ شيء بدقة متناهية ولم أكن سوى طالب يتعلم في مدرسته. ثمّ إنّ البنك يا حسن لم يخسر شيئًا، ولم يكتشف أحد أمرنا سوى عمر، وقام رشاد بتدبير واقعة رشوة له وهدّده بفضح أمره، وأنّ التهمة ثابتة عليه، وقال له إنّ تلك المعاملات الليلية لن تضرّ أحدًا سواي أنا، وأن عقابي موجود؛ وهو ردّ كلّ المبلغ ليدخل في عمليات خيرية فوافق عمر. لو أنّي كنت قد اكتفيت بهذا المبلغ لنفّذنا ما اتفقنا عليه سابقًا، لكنه الطمع.

– إذًا، ماذا تريد الآن؟

– آخر أمريْن سأقوم بتنفيذيهما قبل أن تعود الأمور لنصابها؛ أوّلًا: في دمياط ستكون آخر عملية لاستقبال شحنة ترامادول بعدَ أربعة أيام من الآن، ثانيًا: في البنك سنقوم وفي الليلة التالية لاستلام الترامادول، بتنفيذ تلك المعاملات الليلية لآخر مرّة، وحتى لا يكتشف عمر من جديد أمر تلك المعاملات، فكان رشاد يحتاج منك بطاقةَ الدخول الخاصة بك؛ لدخول الغرفة الرئيسية للسيرفرات، ثمّ يتحكم في بعض الأشياء التي مِن شأنها إبقاء العملية آمنة تمامًا.

– ها.. ها، أو لا يمتلك بطاقة هو الآخر؟

– مِن الواضح أنك نسيت كلّ شيء يا حسن، نظام بنككم الخاص ألّا تُفتح تلك الغرفة مثلها مثل بعض الأشياء المهمّة إلّا عن طريق Double Authentication أو التأكيد المزدوج إن كان المصطلح قد غاب عنك كليةً.

– ومتى ستتمّ تلك العملية؟

– في الأيام القليلة القادمة، وبعد انتهاء إجازة عيد تحرير سيناء، غالبًا بعد ثمانية أيام من الآن.

– وبالنسبة لحنان!

– ما دخلها؟

– لي أنا شرط واحد.

– ما هو؟

– أن يبتعد هو الآخر عن حنان، فكلانا لا يستحقها.

***

تفاجئ رشاد بما أخبرته به حنان، تحدّثت حنان كثيرًا بينما هو غارق في تفكيره، لا يدري مِن أين يلتقط خيطَ الكلام الذي تاه منه، وبينما هو كذلك إذا به يتلقّى صدمتين متتاليتين أردوه أرضًا.

كانت مكالمة فريد أولاهما:

– رشاد، حدث تصادمٌ مروع لي أنا وغادة ودولت، غادة تموت يا رشاد، حالتها سيئة للغاية، وأنا أيضًا أتحامل على نفسي حتى أكلمك.. رشاد اعتنِ بغادة إن أصابني مكروه، غادة أختك يا رشاد.

– هدّئ من روْعك يا خالي، سأحضر لكم حالًا.

– رشاد عسى ألّا تلحق بي، وصيتي الأخيرة يا رشاد هي غادة إن قُدر لها الحياة، هي كلّ حياتي وهي أختك بنت أمّك وداد التي أنا زوجها، صدّقني

فيما أقول، آسف يا رشاد لكنْ هذه هي الحقيقة التي لا تعرفها، تأكد من وداد، أرجوك أن تعتني بها ولا تتركها ولا تخبر دولت شيئًا عن هذا.

انقطع الاتصال، وتجمّد رشاد في مكانه، سألته حنان عمّا حدث فقال لها إنّ حادثًا مروّعًا حدث لخاله فريد وزوجته وابنته غادة التي يوصيه عليها ويقول إنّها أخته من أمّه، وأنّه هو زوج أمّه!

كان الكلام يخرج بصعوبة من رشاد، وكانت حنان تحاول تهدئته، فإذا بالطبيب المعالج يخرج وعلاماتُ الحزن ترمي بظلالها على وجهه، ثمّ اقترب من رشاد قائلًا:

– البقاء لله مهندس رشاد، ماتت السيدة وداد!

***

(٢٦)

وداد وفريد

في عام ١٩٩٠، كان انفصال وداد عن جلال، والذي عقدت وداد بعده النية على ألّا ترتبط بأحد مجدّدًا؛ لكنه لم يمضِ سوى عامين حتى حنثت بوعدها وارتبطت بفريد الذي لم يمضِ على زواجه من دولت سوى عام واحد.

كان كتمانُ خبر زواجهما يصبّ في مصلحتهما سويًّا، وكانت اللقاءات بينهما خاطفة وسريّة في طنطا أثناء تردّده بين الفينة والأخرى لبلدته نجريج المجاورة لكتامة.

كانت دولت تُعامل وداد بدون حذر أو قلق، فوداد لا تنادي على فريد إلّا ولقب خالي يسبق اسمه؛ ممّا بثّ الطمأنينة في عقل دولت، وهي التي لم يساورها أبدًا الشك تجاه فريد.

أمّا وداد فإعلانها عن زواجها سيُفقدها حبّ ابنها الذي تعرف مدى ارتباطه بها، ومن الممكن أن يكون سببًا في انتقاله للعيش مع أبيه، الذي كانت الحضانة باتت من حقه.

كان عام ٢٠٠٠ هو عامَ تخرّج رشاد من كلية الهندسة، وفي نفس العام حدث مع وداد ما كانت تحذره تمامًا، فقد حملت أحشاؤها جنينًا من فريد.

فريد الذي كان لم يمضِ على استقالته من البنك سوى أيام معدودة حتى يتفرغ للعمل الحرّ، فقد كان يُمثل له هذا الخبر- وبالرغم من عدم انتظاره له- أسعد لحظات حياته، فهو متزوّج من دولت منذ تسع سنوات كاملة ولم يُرزقَا خلالها بأي طفل، كلّ المحاولات الممكنة للحصول على طفل من دولت بائت جميعها بالفشل، وكانت تجارته الجديدة ونهمُه الشديد للمال يُلهيه عمّا سواهما، لكنه عندما سمع خبر حَمْل وداد وكأنّ غمامة أُزيحت من فوقِ عينيه، ليرى بهما النصفَ الآخر من زينة الحياة الدنيا.

أصرّت وداد على أنها ستتخلص من هذا الجنين، وكان همّها الأكبر هو رشاد، إلّا أنّ فريد- وبحيلة بارعة- نجح في إقناعها بالإبقاء على الجنين، ورسم الطريق لذلك دون أن يعلم أحد.

منحة دراسية لرشاد في فرنسا، ولا يعود حتى تضع وداد مولودها، مع انتقال وداد للقاهرة، وإشاعة خبر سفرها مع رشاد بالاتفاق مع رشاد نفسه، مقنعةً إياه بأن هذه الحيلة ما هي إلّا للتخلص من زيارات أقارب وداد، ومكوثهم معها في البيت.

ثمّ مفاجأته لدولت عن اتّفاقه مع سيدة أجنبية بعمل التلقيح الصناعي بعقد عرفي بينهما، ثمّ تتقاضى تلك السيدة بعدَ وضعها للجنين مبلغًا ماليًّا ضخمًا، ومن ثمّ يئول هذا الطفل لدولت بعدَ ولادته، ورُغم أنّ دولت ثارت أيّما ثورة عندما أبلغها بذلك؛ إلّا أن فريد نجح في إقناعها، مضيفًا أنه لن يمسّ تلك السيدة الأجنبية، وأنّ هذا هو السبيل الوحيد لامتلاك طفلٍ مِن صلبه، وسيكون أمام الجميع هي من أنجبته.

اتّفق مع دولت على خداع عائلتها بالسفر للخارج في أول شهر لإجراء تلك العملية التي تشهد نسبة نجاح منقطعة النظير، وبالفعل عادت دولت وتظاهرت طيلة تسعة أشهر بحملها، ثمّ كانت شرم الشيخ هي المكان المُقترح للسفر إليه حتى تكون بعيدة عن أنظار الجميع لحظة الولادة.

بالفعل كانت أيامًا صعبة على فريد، باشر فيها كلّ شيء بنفسه ولم يُشرك أحدًا، أشْرفَ على ولادة وداد في عيادة خاصّة بالقاهرة، ثمّ أودع غادة في أحد الحضانات الخاصّة، قبل أن يستدعي دولت للعودة للقاهرة، وأن تحتضن ابنتها بين يديها.

كانت من أصعب اللحظات على وداد تخليها عن ابنتها.

وداد التي كانت تريد أن تتخلّص من غادة في بداية حملها بها، إلّا أن الحال اختلف تمامًا عند رؤيتها لها فتشبّثت بها، وكانت هناك مناقشة حادّة مع فريد حول استكمال اتفاقهما:

– ابنتي لن أتركها يا فريد، افعلْ ما شئت، الحمد لله أني تمكنت أخيرًا من رؤيتها، أرجوك يا فريد لا تُفرق بيننا تفريقًا يعزّ معه احتضاني لها، ويعزّ الصبر فأُبْتلى في نفسي، لن تجد مَن سيحنو عليها مثلي، أرجوك يا فريد ارحمْ قلبي فلنْ أجسر على التفريط فيها، الطير يا فريد تنتفض وتفرش بجناحيها إذا فقدت صغيرَها، والناقة ترزُم إذا حِيل بينها وبين فَصِيلها، فما بالك بي؟!

نجحَ فريد في نهاية الأمر بإقناعها أنّ ابنتها لن تُربى بعيدًا عنها، سيكون بيته مفتوحًا لها كعادته، وسيخلق قنوات اتصال جديدة بينها وبين زوجته تُبرر هذا التواجد سواء في البيت أو النادي، ثمّ ذَكَّرها في النهاية برشاد، وماذا ستكون ردة فعله إن علم بذلك؟!

٢١ أبريل، ٢٠١٤

دخل رشاد في غيبوبة، فيما قام يسري بالاتصال بكلّ مِن حسن وعمر، وأخيرًا آدم، ليُطلعهم على موت أمّ رشاد الذي فقد الوعي لحزنه عليها، وأنّه يريد مساعدتهم في دفنها.

قامت حنان بالاتصال بجلال، وأخبرته بكلّ المستجدات، فجاء من دمياط على الفور، وكانت سها معه، والتي أصرّت على مرافقة رشاد في المستشفى وإراحة يسري الذي لازم رشاد منذ تلقّيه خبر وفاة أمّه.

انتهت مراسمُ دفن جثمان وداد، وفي طريق العودة من المقابر، أبدى مجدي أسفه لعمر قبل أن يصطحبه معه في سيارته هو وجدّته سعاد وأمّه فادية وأخوه مصطفى حتى منزلهم في شبرا. قال مجدي لهم أثناء طريقهم للمنزل:

– كم هو صعب أن تُدفن أمّك ويحضر الجميع ولا تحضر أنت، كان الله في عون مهندس رشاد.

مِن ناحية أخرى، فإنّ المصائب لا تأتي فُرادى على رأس فريد، فكان خبر وفاة وداد مؤلمًا جدًّا بالنسبة له فقد كان حبُّه لها كبيرًا، لقد تَخلَّت معه عن كلّ السلبيات التي كانت تحيط بحياتها مع جلال، ناهيك عن أنّها لم تسبب له مشكلة واحدة قطّ، وحافظت معه على سرّهما، فضلًا على أنّها أهدته غادة ابنته، وكلّ حياته.

ما إنْ تماسك فريد قليلًا حتى جيء له بكرسي متحرّك ليذهب ويطمئنّ على ابنته وزوجته.

كانت دولت قد تحسّنت حالتها قليلًا، ورافقت غادة في غرفتها، وقامت باحتضان فريد باكيةً حين رأتها على هذا الكرسي المتحرك، ثمّ طمأنته على غادة حيث يقول الأطباء إنّ حالتها في تحسن. أخبر فريد دولت عن موت وداد فزادَ حزنها، لكن فريد طلبَ منها أن تكتم هذا الخبر عن غادة تمامًا.

***

(٢٧)

التوأم

التوأم غير المدلّل الناقم على أخيه، طيلة عمر سلامة يرى أنه غير مرغوب فيه من أبويه، أفعاله الصبيانية التي يرتكبها منذُ نعومة أظافره يتلقّى عقوبتها بشكل فورى، حتى تلك الأفعال المُشينة التي يفعلها أخوه حسن يكون هو السببَ الرئيسي فيها من وجهةِ نظر أبيه وأمّه فيفلت حسن من العقاب، ويتناول هو الجُرعة كاملة من ضربٍ وإهانات.

تَمكَّن منه الحقدُ على أخيه فشعر أنّه فاقدٌ للعدل العاطفي والمادي لصالح أخيه، افتقد أبواهما في الكثير من الأحيان الفطنةَ في التربية والتحكم في المشاعر التي هي أمرٌ صعْب، لكنّ إخفاءه والعدل التّام ليس بصعب، من الممكن أخذ رأي مَن نثق فيه من أبنائنا، أو أن نتقرّب إلى مَن نحب، لكنّ الحذر كلّ الحذر أن يشعر أحدهم بذلك.

تربّى لدى سلامة شعورٌ غريب، فأصبح يمْقت أخاه حسن ولا يتمنّى له الخير، لكنه يستطيع أن يتحكّم في إظهار ذلك أمامه، بل استطاع أن يربط حياة حسن كلها بتواجدِه هو فيها، فأصبح سلامة عنصرًا مهمًّا في حياة أخيه إن لم يكن كلّ حياته.

كان سلامة يتفوّق على حسن أثناءَ فترة الدراسة وعليه فكان اهتمام أبويه به أقل من حسن الذي كان يتلقّى تشجيعًا دائمًا من أجل أن يجدّ ويجتهد، كان

سلامة أيضًا يلقى تشجيعًا، ولكنه ليس بمقدار ما يتمتع به حسن من اهتمام، ففسّر ذلك على هواه، وضمّ تفسيره هذا إلى سلسلةِ التفرقة التي نسجها بعقله، ولم تعُد موجودة سوى في خياله، فأبوه وأمّه فطنوا إلى طريقتهم الخاطئة، لكنْ بعد فوات الأوان.

في الثانوية العامة، حصل حسن وسلامة على نفس المجموع تقريبًا، فارتضى حسن بكلية التجارة، لكنّ سلامة الذي كان يطمح في أن يكون مهندسًا قرّر أنه لن يستكمل تعليمَه الجامعي وسيلتحق بمعهدٍ فني تجاري مدّة الدراسة به صغيرة، ولا يحتاج إلى جهدٍ من مذاكرة وخلافه، ولم يجدْ مَن يعارضه في ذلك، فكان أبوه وأمّه قد ماتَا إثر حادثِ سيْر.

سلامة، وأثناء دراسته، كان يعمل كمندوب مبيعات، وبعد سنتين من الدراسة تفرغ بشكلٍ كامل لتلك المهنة، وبعد عامين آخرين تخرّج حسن والتحق للعمل بالبنك، كان حديثُ سلامة الدائم الذي يهمس به شيطانه لنفسه.. بأنّ أخاه في وظيفة مرموقة، وأنّه هو كالباعة الجائلين يتحسّس رضاء المستهلكين من أطباء، وخلافه، حتى يقبلوا بضاعته.

همسات يدفنُها ضميره حينما يستفيق، ويضخّمها شيطانه حينما يتملكه.

كانت أحقادُه تختفي تجاه أخيه طيلةَ عمله كمندوب، فقد كان أخوه لا يزال طالبًا وهو صاحبُ اليد العليا في النفقات، لكنْ تلك الأحقاد عادت من جديد بعد عمل أخيه بالبنك.

يقف أمامَ مرآته، ويحدّث صورته على أنّها أخوه، قائلًا:

– لا أتمنّى لك الخير.

فتبدو الدهشة على صورته بالمرآة والتي تتمثل في صورة أخيه، فتتساءل:

– ولِمَ؟

– لأنّ الخير الذي سيُصيبك سيُبعدك عن مرمى عيني، ألا ترى أنّ الدنيا تَصُبّ من وعاء حظّها عليك صبًّا، كلّ يوم يمرّ تُخرج نقاءك، تبذره في أرضي القحلة المليئة بالحقد، آملًا أن تُنبت شفتي ابتسامة، وأن تصغي أُذنك لطيب الكلام، آسف أنْ أُبلغك أنّي لم أتغلب بعْد على النكتة السوداء بداخلي.

***

في عام ٢٠١٠، اقترح سلامة على حسن فتحَ مخزن أدوية، سيبدأ صغيرًا، ويتولّى سلامة أمر الاشراف عليه، انهالت عليهم الديون، وانتشلهم هاتفٌ مجهول بأن يكون سلامة هو المتصدّر في ميناء دمياط؛ لاستخراج شحنات الترامادول المُهربة ضمن شحناتِ أخشاب، أصحاب تلك الشحنات لا يعرفون أنّ شحناتهم تحتوي على تلك الممنوعات.

لم يكنْ حسن مقتنعًا بتلك التجارة؛ إلّا أنّ سلامة نجح في إقناعه تدريجيًّا، ففي البداية أقنعه بترك منزلهم القديم والانتقال إلى منزلٍ جديد، ثمّ الاشتراك في نادي اجتماعي فوق المتوسط، مع التغييرات الجديدة والتي بدأ حسن يتأقلم على طقوسها، وبعد أن تأكّد سلامة من انغماسه في النعيم قام بإطْلاعه على المديونيات التي يجب سدادها ليستمرّوا في هذا الرغد من الحياة.

وافقَ حسن على طبيعة عمل أخيه دونما تأنيبٍ مستمرّ، لكنّه لم يشترك ولو لمرة واحدةٍ مع سلامة في تلك العمليات، إلا أنّ سلامة كان يكفيه هذا القدر من المشاركة، حيث أنّ انتهاء التأنيب والنصائحَ المستمرّة من قِبل حسن؛ وَلَّد لديه الشعورُ الذي يريده بأنه ليس هو الفاسد الوحيد.

كان دورُ سلامة هو المتابعة مع أحدِ موظفي الميناء حتى يتسلم البضاعة من أحد التجّار، والذي يتغير في كلّ عملية، وبعد أن يتسلم البضاعة، يخرج سلامة مخاطرًا بسيارته متجهًا إلى مكان هو الآخر يتغير في كلّ عملية، حيث يتلقى رسالة من مجهولٍ بوصف هذا المكان؛ ليتركَ السيارة وبها المفاتيح؛ ليأتي شخص ملثّم يأخذ السيارة، وبعد أقلّ من عشر دقائق، يتلقّى رسالة أخرى بمكان سيارته الجديد، ونصيبه من نجاح العملية.

كانت الأمورُ بين التوأمين تسيرُ على ما يُرام، فطالما سلامة له اليدُ العليا فلا حقد ولا ضغينة، إلى أن تمّت خطبة حسن من حنان، والتي أوقعت الضغينة من جديد في صدرِ سلامة على أخيه بعدما رأى مميزات حنان، وما أحدثته من تغيير على أخيه.

كان تأثيرُ حنان على حسن عظيمًا، حيث أنه بعدَ أقلّ من أسبوع، قرّر حسن تصفية الحسابات مع سلامة، بل وقام بإرسال ردّ في إحدى المرّات لمن يُراسلوا سلامة بالتوقف، وإلّا فُضح أمرهم، علم سلامة بذلك فكان عليه احتواءُ أخيه الثائر في وجهه على غير عادته.

لكن حسن كان شيئًا آخر تلك المرّة، وكان سلامة موقفه ضعيفٌ، ولم يستطع إقناعه بما يريد، فكان أوّل ما فكّر به سلامة هو إفساد تلك الزيجة التي أفسدت عليه أخاه.

ضحّى بأن تكشف أوراقُه أمام آدم الذي لمسَ فيه حبّه للمال فأشركه معه في عمله، وحذّره من الخوض في تفاصيل العمل بينهما، ومن ناحية أخرى أقنع حسن بأنه أقلع عمّا يُغضبه وباتَ له عملٌ جديد من الحلال. ولا يمُتّ لعمله السابق بصلة.

على صعيدٍ آخر زرع الفتنة في صدر آدم، حيث أخبره- كذبًا- بطبيعة عمل حسن الذي يشترك معهم، بل إنّه هو القائد لهذا العمل حتى ينقل هذا الكلام لحنان، ثمّ أخيرًا حاصر حسن من جديدٍ بمديونيات المخزن القديم، والتي كان حسن قد نسيَ أمرها.

حسن الذي كان في طريقه لتعديل وضعه الاجتماعي والتخلي عن كلّ الأموال الحرام التي اكتسبها، وبدأ حياة نظيفة جديدة؛ بات عليه أوّلًا أن يُسدّد ديونه فحاصرته المشاكل في وقت قصير.

كانت عندما تسأله حنان عن خُططه لحياتهم المستقبلية تزداد عليه الضغوطُ النفسية والحياتية فيزداد تجهّمًا ونفورًا، إلى أنْ وصل إلى تلك المكالمة التي أنهت العلاقة بينهما بعد أسلوبه الفجّ معها.

بعدَ محاولات دؤوب للعودةِ لحنان من جديد، والتي رفضت رفضًا قاطعًا أيّ محاولة للعودة، وانخرطت في عملها كعادتها، حلّ اليأس بحسن الغارق في ديونه، فكان من السّهل على سلامة تشكيله من جديد.

في فترةٍ وجيزة تكسَّرت كلّ آمال سلامة بتلك الرسالة التي أعقبت آخر عملية تهريبٍ قام بها، وأنّ تلك العملية هي الأخيرة لخطورة التجارة في المستقبل.

لم يرضَ سلامة عن مضمون تلك الرسالة ففكّر في التهديد السابق الذي قام به حسن لهذا الرقم المجهول، والذي أوحى إليه بإمكانية استغلال هؤلاء المُصيَّرين، فحدّد مبلغًا ماليًّا ضخمًا يُرسلونه له حتى لا يُفضح أمرهم، ويقوم هو بسداد ديونه، والبدء في تجارةٍ جديدة بما يفيضُ من هذا المال الذي طلبه على لسان حسن.

كان يتوقّع سلامة أنّ هؤلاء المجرمين العُتاة لن يرسلوا قرشًا واحدًا، لكنه وجد رسالة تهديدٍ ووعيد لحسن بالقتل، وفضحه داخل سيارته أمام البنك، ومرفق بها مبلغ بسيط ممّا طلبه، فما كان من سلامة إلّا أن أطلعَ حسن على تلك الرسالة، وقال له سأنتحلُ شخصيتك تلك الفترة وأنا قادرٌ على ابتزازهم، لكن حسن رفضَ وبشدّة، وقال له يكفي ما قد حدث، وأنّ المبلغ الذي أرسلوه يمكنهم من خلاله سداد مديونياتهم، ثمّ يمكنه أخذُ قرض لسداد أقساط الفيلا.

بعدَ الرفض الشديد الذي وجده سلامة لاقتراحه من أخيه، قرّر أن يفعله رُغمًا عنه، لكنْ في البداية عليه أوّلًا تجميل صورة حسن من جديدٍ لدى آدم وقطع كلّ الخيوط التي تربطه بأيّ صديق خاص به، وأن يتقمّص دور أخيه، ثمّ يبدأ في ابتزاز هذا المجهول. ومن ناحية أخرى إذا فشل في ابتزازهم، فسيلجأ إلى أحقر ما في نفسه، سيتخلص من أخيه ويعيش بشخصيته وحياته، همس شيطان نفسه قائلًا:

– لمَ لا يختفي حسن، وأحلّ مكانه في كلّ شيء؟ سأُجمل صورته، سأجعل منه شخصًا عظيمًا، ثمّ أترحّم على أيامي، وأدفن شخصي في بدنه، وأحرق كليْهما، أتخلّص منه، أذيبه، وأذيب ذكرياتي السيئة وطموحي الجامح.

(٢٨)

فريد

في عام ١٩٨٠، كانت بداية عمل فريد بأحد البنوك بمدينة طنطا التي انتقل للعيش بها، ظلّ يعمل في طنطا لمَدّة تجاوزت العشرة أعوام، إلى أن انتقل للقاهرة في عام ١٩٩٠ وكان هذا هو حُلم حياته.

في آخر عام له في طنطا، كان فريد هو المسئول عن إعداد كشف الحسابات الراكدة؛ وهيً تلك الحسابات التي لا يوجد عليها عملياتُ سحبٍ أو إيداع لمدة تجاوزت الستة أشهر.

كان أبرز اسم لاحظه فريد هو اسمَ طاهر البيلي، فهو يعرفه؛ ابن قريته نجريج، والذي تُوفّي منذُ ما يقارب العام. اندهش فريد من هذا الأمر، وأخذ يتقصى المعلومات عنه، فعلم أنّ لديه زوجة وبنت صغيرة لم تتجاوز عامها الثاني بعد، المعلومة الأكثر أهمية بالنسبة لفريد كانت هي حرص طاهر وبخله الشديد أثناء حياته، فاستنتجَ بالتبعية أنّ هذا المال المُودَع في البنك والذي سيندرج ضمن الحسابات الراكدة لا أحد يعلم عنه شيئًا؛ فانحصر تفكيره في الاستيلاء على هذا المبلغ الضخم.

بمُوجب مستندات مزوّرة، وبعد الاطّلاع على توقيع العميل المُعتمد داخل البنك، والذي كان يستخدم ختمًا خاصًّا به، توجّه فريد لشارع محمد علي بالعتبة، وبثمن بخْسٍ مع أحد الحرفيّين الموجودين على الأرصفة استطاع

محاكاة نفس الختم المُستخدَم من قِبل طاهر، ثمّ قام بسحب تلك الأموال بموجب تاريخ قديم قبلَ وفاة طاهر بشهر واحد.

كادَ قلبه يُجتث من مكانه عندما جاءه صفوت من طرفِ صديقٍ له يستفسر عن الوضع المالي لطاهر، لكنّه تحلى بالثبات الانفعالي المطلوب، والتقط أنفاسه عندما تمّ تصديق روايته دونما بحثٍ زائد. اقتنع أنّ الحظّ يخدمه فعندما توجه صفوت للسّؤال عن المال كان هو المقصد وليس شخصًا آخر.

سعى بعدها للانتقال إلى القاهرة وهو ما قدْ كان، وهناك بالقاهرة استطاع بما لديه من أموال أظهرها تدريجيًّا بشراء مسكن مناسب، ثمّ تزوّج من دولت بنت رجل الأعمال، والذي عمل في توريد موديلات الأثاث التي يجلبها من دمياط عن طريق حنفي.

في بداية الألفية الجديدة، وتحديدًا في عام ٢٠٠٠ الذي كان عامًا مليئًا بالأحداث بالنسبة لفريد، فبعيدًا عن حمل وداد المفاجئ بغادة وتخطيطه لاستقبال المولود الجديد، فقد كان والد زوجته دولت يمرّ بوعكة صحية، وكان عليه أن يحلّ محله في التجارة التي لم يكن يحبّها، ولكنها كانت لتنهار لوْلا تدخله.

كان أكثر مَن يتعامل معهم فريد هو حنفي، وكانت تجارتهم قد أخذت مُنعطفًا جديدًا، فكان هناك حيتان بسوقِ الأخشاب تُسيطر على استيراد الخشب البياض والأبلكاش ممّا قلّل من الأرباح.

هنا، عرض حنفي على فريد التجارة في الترامادول، واستغلال استيراد أي منتجات خشبية لتكون هي الصورةَ الظاهرة، وبعد نجاح الأمر قام فريد بتقديم استقالته ثمّ نوَّع تجارته في مجالات شتى كالعقارات وغيرها.

كان اعتماد حنفي وفريد دائمًا على شركات أدوية صغيرة، تقوم بترتيب استيراد شحناتها مع استيرادهم للأخشاب.

كان الموت المفاجئ لمندوب الأدوية الذي كان يتعامل معهم دافعًا للبحث عن مندوب جديد، فكان ترشيح أحد موظفي الميناء لسلامة ليحلّ محلّ هذا المندوب بشركته الصغيرة. تقصّى حنفي عن سلامة فعرف أنّه لا يمتلك سوى أخ في البنك الذي كان يعمل به فريد، وأنّ هذيْن التوأميْن تجارتُهم على المحك، أبلغ حنفي ما لديه من معلومات لفريد الذي قام بمهاتفة للبنك ليتأكد من طبيعة العميل الجديد «سلامة وأخيه».

– لديكم موظف اسمه حسن عبد القادر!

– نعم، ماذا فعل؟

– لا دخل لك، أريد تقريرًا تفصيليًّا عنه وعن أخيه سلامة في خلال يومين.

بعدما تلقّى فريد التقرير عن سلامة، تمّ الاستعانة به ولكن بحذر تام، ولم يتسنّ لسلامة معرفة فريد أو حنفي.

كان لقاء سلامة وآدم الوحيد بجلال الذي كان متواجدًا مع حنفي في دمياط بحكم صداقتهما، ولم يكن جمعهما العمل من جديد؛ لكن في هذا اليوم تحديدًا، فقد أصاب الشخص المنوط به مقابلة سلامة في الميناء وعكةٌ صحية مفاجئة، فقام حنفي باستغلال وجود جلال، وطلب منه أن يُشرفَ على استلام شحنة الخشب مكانه؛ تفاديًا لظهوره هو بأيّ شكل من الأشكال.

وافق جلال الذي لم يكنْ لديه أيّ دراية بنية حنفي، وبالطبع لم يكن له أي دراية بتجارة حنفي في الممنوعات.

بعدَ تغليظ عقوبة الترامادول، وبالتالي التّشديد المتوقع على تلك التجارة، والذي لامسوه في أوّل عام من تغليظ العقوبة وتشديد الإجراءات؛ قرّر فريد التوقف التام عن تلك المخاطرة.

لاقى معارضة شديدة من حنفي في هذا الصدد، إلا أنه استطاع أن يقنعه بوجهة نظره في التخلي عن تلك التجارة، وأنهم سيستبدلونها بتطوير التجارة في مجال الأثاث عن طريق الاستيراد من رومانيا بسعر أقلّ من الحقيقي لتقليل الضرائب، وتلاعب في قياسات المتر من الخشب الزّان ليُباع بأقل من قياساته الحقيقية، وكذلك التحكّم في تصنيع الخامات بالمواصفات التي يحددونها في المصانع برومانيا عن طريق استئجار الغابات والمصانع لمدّة طويلة بشروط جزائية صعبة، حتى لا يوجد منافس لهم في مصر.

لم يُفلح فريد في تنفيذ ما رمى إليه بشكلٍ كبير لوجود منافسة شديدة من الأثاث الصيني الذي يسعى لسحبِ البسَاط من الأثاث الدمياطي نظرًا لرخص ثمنه، لكنه في الوقت ذاته لمَ يوافقْ على العرض الذي قدّمه حنفي للعودة من جديد للإتجار في الأدوية الممنوعة، خاصّة بعد إحساسه المؤقت بالنقاء؛ فَرَدُّه لجزء من المال لسمر عوضًا عمّا سرقه من مال أبيها سابقًا، ثمّ زيارته للمجمع، والتي شعر فيها بشعور مُختلف عن زياراته السابقة، وما لاحظه من تطوّر في العيادات بما تشمله من جزء مخصّص للتعافي من الإدمان، والذى كان لا بدّ أن يصحبه أثر ملموس على أفعاله.

لكنّ حنفي قرر أن تكون ضربته الكُبرى والأخيرة في غضون أيام، ولم يخبر فريد شيئًا عنها. زار حنفي فريد في المستشفى في اليوم التالي للحادثة، استقبله فريد بهذا الكرسي المتحرك وذكَّره بأنّه الآن بات نادمًا على أيّ خطأ ارتكبه في حياته وكلّ أمله أن تتماثل غادة للشفاء، فبموتها سينقطع دابرُه، وتنتفي فرحته، ويفقد من كان يروي لأجلها زهرة عمره.

بعد يومين من المكوث في المستشفى، حمل أحدُ الأطباء البشرى العظمى لفريد بتحسّن حالة غادة، وأنّ بإمكانهم الآن نقلها للقاهرة لتلقّي العلاج بصورة أفضل، فكانت فرحة فريد عظيمة.

عندما استفاق فريد قليلًا، وبعد إذن الطبيب، دخل عليه أحدُ الضباط ووجّه له سؤالًا:

– هل تعتقد وجودُ شُبهة جنائية خلف الحادث، أو أنه مُدبر؟!

***

(٢٩)

رشاد

قُدراته الخارقة لن تجسرَ على تحمل تبعات الضربات المتتالية ذات التوقيتات المتقاربة، سيُسلم نفسه للوساوس تنهش وتنخر فيها أنّى شاءت، الحُطام المتراكم الذي ستُخلفه تلك الوساوس، أوصى بتشتيته في بقاع متفرقة. مَن منكم يريد أن يراه عاريًا؟ لا تكسوه تلك الهيبة المصطنعة، أو ذاك الوقار الزائف، أو تلك الطيبة المُخزية.

لليوم الثالث على التوالي، ورشاد لم يفقْ بعدُ من غيبوبته، نسيت حنان كلّ ما تعلمته ودرسته من فنون العلاج أمامَ حالة حبيبها رشاد المُعقدة، فحالته النفسية وما لاقى من صدمات متتالية جعلتها تخشى عليه من الانخراط في انعدام الحياة، باتت تحاول بشتّى الطرق أن تُدرك لحظات الأمان الموجودة في حياته وتجنّبه هذا الموت النفسي البطيء.

أمسكت حنان الوصية التي منحتها وداد إيّاها، وأخبرتها ألّا تقوم بفتحها إلّا بعد موتها، فتحت الوصية لترى فيها ما أكّده فريد لرشاد قبلَ فقده للوعي، وأنّ غادة هي أخته وابنتها، وتوصيه عليها خيرًا، ويتذيل الوصية كلمات وجهتها وداد لرشاد.

أمّا رشاد الغارق في أحلامه، فقد كان شريط حياته يمرّ أمام عينيه:

- مهندس رشاد جلال يهنّئ العروسين ويتمنى لهما حياة سعيدة، تحية كبيرة لمهندس رشاد.

– ابنك سيدة وداد لا يعاني من أيّ أمراض جسدية، كلّ التحاليل تثبت ذلك.

– لا تُوجّه لي أيّ لوم، وجِّه لومك لأبيك الذي تخلّى عنّا.

– رشاد، أحبك وأحميك وأفديك بنفسي وتتكدر حياتي في بُعدي عنك، ابني وفلذة كبدي وسندي وصديقي.

– «أبيه» رشاد، لقد اتفق أبي مع أحد المطربين لغناء الأغنية التي أهديتني إيّاها، سيُرسلها لي مساء.

– يتوقع آدم أنك قتلت أخاك، وجيه البواب أكّد لي أنه لا يعرف من منكما قد حملَ الآخر وهو في شدّة إعيائه، ثمّ وضعه في السيارة قبل انطلاقها، ومنذ ذلك الحين وأنت فقط الموجود في الفيلا على حد روايته.

– ثمّ مَن دفع الأقساط التي تشتكي منها؟! آخر ما كنت أتوقّعه أن تقتل يا حسن!

– سلامة! إذًا حسن صادق ولا يكذب! لِمَ تُعرّض أخاك لأسوأ أيام حياته؟ لن يُجديه نفعًا، الحسنة الوحيدة التي خلفتها في الرفع عن كاهله بتدبيرك لهذا القسط من المال الحرام.

– سلامة هو حسن.. لا، لا.. لا، غادة أختي بنت أمّي تُصارع الموت، أمّي تزوّجت خالي فريد، أمّي ماتت.

أمّي.. أمّي.. أمي.

تفزع حنان الجالسة على صرخةٍ من رشاد، تفرح لصرخاته ثمّ تبدأ في مخاطبته بصوتٍ مرتفع معَ تحفيز قويّ عن طريق الهزّ المتكرر، لكنه يعود مجددًا ليهدأ ويهذى بكلمات غير مفهومة، ثمّ ينام.

– رشاد، سأفتقدك، راحتي تكمن في راحتك، لا تفرط في سعادتك فهي أقصى ما أتمنى، بين يديك دُرَّة غالية، وأنت بينَ يديها أطمئنّ عليك، رشاد سامحني إنْ قصرت يومًا في حقك.

هكذا قرأت حنان الأسطرَ الأخيرة من وصية وداد لرشاد.

رشاد يغطّ في نوم عميق، يشعر كأنه يجذب من جميع الاتجاهات. تهدأ سريرته، أمه تناديه فيُولّي ظهره لها، ثمّ تستجديه فيئنّ بالبكاء ويلتفت ليحتضنها، ثمّ يمسك بوجهها بين كفّيه قائلًا «كيف لي أن أعيش من دونك؟!». يرى الطيف قادمًا من بعيد، ملامحه تلك المرّة واضحة، بل لم تكن الملامح واضحة فحسب، كان الصوت أيضًا واضحًا، الصوت الذي لطالما اشتاق لسماعه:

– هل تتذكّرني وأنت طفلٌ صغير نائم على صدري؟ أقصّ عليك حكاياتي، لم أتخلّ عنك أبدًا، ولكنّي لم أشأ أن أتسوّل أيضًا منك الحنان، أتَذَكر طيلة الوقت أنّي كنت فخورًا بك، كانت الحياة مستحيلة بيني وبين وداد لاختلاف طباعنا، لكنّي أبدًا لم أنسَك، ولم أشأ أن أكون سببًا في تكديرك، فأنا لست بهذا الضيف الثقيل.

قد أكون تعاملتُ بشكل خاطئ في إبداء حبي لك، لكن صدقًا كانت نيتي حسنة، وكان هدفي ألّا أكون عبئًا عليك. كنت أتمنّى حدوث تلك المواقف

البسيطة التي كان لزامًا عليَّ أن أكون بجانبك، أتذكّر حينما استخرجت أوراقَ إعفائك من الخدمة العسكرية، ألم تلحظ الشوقَ في عيني لأحتضنك؟!

حينما سافرت إلى فرنسا، سافرت روحي معك، كنت أكفل مَن يطمئنني عليك، ها.. ها، الآن يمكنني قولها، كنت أنا مَن يرسل إليك الأموال باسم الجامعة.

أنا مَن فتح قناةً للاتصال بينك وبين أختك سها حتى أطمئنّ منها عليك بشكل غير مباشر، لن أبرّئ نفسي تمامًا من التقصير، نعم أنا أيضًا مقصر، لكن صدّقني.. حاولت أن أحتويك من جديدٍ ولو على حساب سعادتي. رشاد، أرجوك لا تتركني، أنت ابني، فلذة كبدي.

تثاقل لسانُ جلال عن الكلام، وانهارت الدموعُ من عينيه.

يستفيق رشاد قليلًا، يستعيد تنفّسه الطبيعي شيئًا فشيئًا، يحتضنه جلال وينطلق رشاد في بكاءٍ غزير، يهدأ رشاد ويُمسك بيدِ أبيه يقبّلها فيحتضنه جلال من جديد ويمسده حتّى يطمئن، ثمّ ينظر رشاد إلى حنان ناطقًا بكلمات تتعثّر على لسانه، وتغالبه الدموعُ في صياغتها:

– حنان، أحبّك، أحبّك بكلّ ما تحمل الكلمة من معنى، لن أكون بخيلًا في نطقها بعد الآن، سأصلّي الفجر وأذهب لزيارة أمّي في قبرها؛ هي تنتظرني.

بذلتْ حنان مجهودًا مضنيًا طيلة الثلاث أيام الفائتة، جلست مع جلال كثيرًا، واستحثّته على تذكّر كلّ المواقف السعيدة التي تربطه بابنه، وسردها عليه. زاد قلق حنان عندما سألت جلال عن مدى فرحتهم حين علموا

بحمل وداد برشاد، حيث أخبرها أنّ وداد لم تكنْ ترغب في هذا الحمل في أولى أيام ارتباطهم، ممّا جعل حنان تخاف أن يكون ما يتعرّض له رشاد حاليًا هو مرض الكتاتونيا «الاضطراب الانشقاقي والذهان التخشّبي»؛ وهو انعدام الحياة لانعدام لحظة أمانٍ واحدة فيها، وقرار بوقف الوجود من شدة الألم والخوف.

استجمعت مع جلال جميع الصور والذكريات القديمة التي تجمعه مع رشاد، وحاولت بشتّى الطرق أن تعطيه دافعًا جديدًا للحياة، وأن تسترجع ذكريات الطفولة السّعيدة وتحاول إحياءها.

***

عودة الكتب حرامية

(٣٠)

النّهاية

الجمعة، ٢٥ أبريل، ٢٠١٤

صباح يوم الجمعة، الخامس والعشرين من أبريل لعام ٢٠١٤، أصرّ رشاد على الذهاب لقبر أمّه وحده، وبعد أن قرأ ما تيسّر له من القرآن الكريم، جثا على ركبتيه أمامَ قبرها، وأغمض عينيه وقال:

– هل حقًّا رحلتِ عنّي؟! هل حقًّا سأستيقظ في الفجر ولن أجدك في انتظاري؟!

هل حقًّا أنّه لم يكنْ أنا من دفن جثمانك وباشرَ على طبع القبلة الأخيرة على جبينك؟!

أمّي، قُلت بالأمس إنّك بحاجة لتسمعي لومي لك؛ هل كنت ألومُك وأنت بين يديّ لأفعلها الآن؟!

كلّ ما أستطيع أن أقوله لك يا أمّي أنّي سأتغير، بالتأكيد سأتغير، ولتعْلمي يا أمّي أنّي أيضًا لستُ بملاك يمشي مُنزّهًا عن الأخطاء، بلى إني غارق في الذّنوب مثلي كباقي البشر، أُصيب وأُخطأ، أكره وأحب، أفرح وأحزن، لي فلسفتي في الحياة كما لك أنت أيضًا فلسفتُك الخاصة، والتي وضعتنى فيها على رأس أولوياتك.

تتساءلين الآنَ عن توجيه لومي لك، نعم يا أمّي.. ستظلّين في قلبي وقلب الجميع كما أنت، الملكة المتوّجة على عرش قلوبنا جميعًا، ولن تُشوه صورتك قيد أُنملة.

رحمك الله يا أمّي وطيّب ثراك.

***

ذهب رشاد إلى غادة في المستشفى، كانت لا تزال تعاني من آثار الحادث، قال له الطبيب المعالج إنّها نائمة حاليًا، ولا يمكن مقابلتها، استأذنه في أنّه لن يطيل المكوث بجوارها، وسيخرج سريعًا، فوافق له الطبيب بعدما أخبره أنه أخوها.

دخلَ رشاد على غادة الطفلة النائمة، آلَمه ما هي فيه، اقترب منها رويدًا رويدًا، قَبّلَ كلتا يديها، همسَ بصوت واهن:

– كُتب عليّ يا غادة أن يكون لي أختان وأعيش محرومًا منهما، لم تكتف الدنيا بما عانيته في طفولتي من وحدةٍ وحرمان من عاطفة الأخوة، والتي كانت ستكسبني كثيرًا في مواجهة أوجاعي، بل باعدت بيني وبين سها، وألقت على وجهي الغمامة في تقريب بُعد المسافات بيننا.

أمّا أنت يا مَن تربّيتِ أمام عيني، ورغم أنّي بالفعل كنت أعتبرك أختي؛ إلّا أنّ الأمر كان سيختلف كثيرًا إن كانت الحقيقة بين يدي.

كان من الجائز أن أهدمَ هيبتي بين أحضانك، وبكفوفك الصغيرة تمسّدين شعري فيعود قلبي ليحيى من جديد.

دخلَ رشاد في نوبةٍ من البكاء الشديد، أصبح البكاء ملازمًا له، وهو مَن كانت الدموع تتحجّر في مُقلتيه.

أخرجه الطبيب وأخبره بأنّها تحسّنت كثيرًا، ومن المتوقع أن تتماثل للشفاء لتستكمل علاجها في المنزل إن أرادوا في خلال يومين.

انصرف رشاد في وجوم، وقال في قرارة نفسه:

– أخبروني بأنّ حالة أمّي أيضًا مستقرة، ولم تمض ساعة واحدة إلّا وقد ماتت.

***

دودة الكتب حرامية

الأحد، ٢٧ أبريل، ٢٠١٤

انتهى أولُ يوم عمل بعد أسبوع مليء بالإجازات الرسمية.

– سأتواجد في البنك اليوم لمدّة ساعتين، أُنهي فيهما الكثير من الأشياء المتأخرة.

بالطبع كان الطلب منطقيًّا، ولا غبار عليه، لم يخطر ببال المدير أنّ هذا هو آخر طلب سيطلبه منه، وأنّ الهدف من المكوث في البنك هو لتنفيذ «عملية مستقبلية».

قامَ باستغلال صلاحيات وظيفته، وكلمة المرور الخاصّة به، وتلك الأخرى الخاصّة بحسن، بالإضافة إلى البطاقتين اللتين أصبحتا في حوزته، والتي بامتلاكه لهما سيكون لديه تأكيد مزدوج «Double Authentication» على السماح بالدخول على الجهاز الرئيسي للبنك الذي صُمّم باب غرفته بطريقة خاصّة؛ وهي عدم فتحه إلّا بتأكيد مزدوج من بطاقتين مختلفتين.

استندَ في تنفيذ خطته التي أعدّها مُسبقًا للسرقة على دخول الفترة المسائية لعمل البنك، وعقب إغلاق النظام الإلكتروني الخاص بالمعاملات البنكية، سيقوم بإجراء تحويلات مالية من رصيد البنك إلى حسابات خارج الدولة بمبلغ تتعدى قيمته الـ ٣٠٠ مليون جنيه.

بالطّبع قام ببرمجة العمليات بحيث لا تكتمل إلّا صباحًا عند إعادة فتح النظام في الوقت الذي يكون فيه قد غادر الدولة؛ من هنا جاء مُسمّى

العمليات المستقبلية وهي العمليات التي يتمّ برمجتها في وقتٍ ما، وتظلّ قيد التنفيذ، ثمّ يتمّ تنفيذها في وقت لاحقٍ بشكل آليّ دون أي تدخل.

استعانَ بآخرين لتنفيذ خطته، فقام باستغلال أسماء شركات مملوكة لهم لإجراء عملياتِ شراء وهميّة بأسمائهم، وتحويل الأموال للخارج، رتّب كلّ شيء فهو لم يعدْ لديه أحدٌ ليعيش من أجله في هذا المجتمع الذي لطالما رآه ظالمًا له ومصنفًا إيّاه مهْما امتلك من قدرات.

راجع خطته على مدار ثلاثة أشهر كاملة، لم يكتفِ بالسرقة السابقة التي كان يقوم بها عبر العمليات الليلية، فالفوائد التي تعود إليه بعد تلك العمليات الليلية ما هي إلّا مبالغ بسيطة من وجهة نظره، ثمّ إن العاقبة واحدة، فخطّط ودبر لضربته الكبرى والتي تلاعب بالجميع من أجل تنفيذها، وبالطبع لم يفُتْه الانتقام على طريقته من الجميع؛ إمّا بدافع الكره، أو دافع تطهير المجتمع من الفاسدين الذي يكيلون بميزانين، أو حتى هؤلاء الذين ظنّوا أن ما يملكونه من علم أو ما يبذلونه من عمل هو مَن ساهم في تقليدهم المناصب، لو كان الأمر كذلك لكانَ هو على رأسهم جميعًا فهو الأجدر والأحق بأيّ منصب على حسب تفكيره.

خطّط لذلك، وكان يراجع خطته للتأكد من دقتها، وعدم إمكانية كشفها مع كلّ برنامج إلكتروني جديد، حدّد كلّ المطلوب في سبيل تنفيذ خطته ولعبت معه الظروف، فكان له ما أراد.

فرحَ وتملّكه السرورُ وانتشى بنجاحه حين غادرَ البنك، كلّ ما يتبقى له هو انتظار انقضاء تلك الليلة، والسفر على أوّل طائرة غدًا، حتى دون أن

يعرف إلى أين ستتّجه، كان يتمنى أن يكون إقلاع الطائرة فورَ انتهائه من تنفيذ خطته مباشرة؛ لكنه لم يجدْ أيّ رحلات متاحة إلّا في صباح الغد، كلّ هدفه هو مغادرة البلاد، ومن ثمّ السّفر إلى تلك الدولة التي تنتهج عدمَ تسليم المجرمين.

***

سأتلاعب بكم جميعًا، سأستغلّ انقطاع أواصر الودّ بينكم وأزرع الفتنة، كلّ ما أتلوه على مسامعكم ليس كذبًا مطلقًا، سأكسوه بغلاف الصدق، أعرفُ كيف أدسّ بعضَ الحقائق المعروفة لديكم في سياق أكاذيبي، فينطلي عليكم خداعي. سأتأمل نظراتِكم بعضِكم البعض، وأعرفُ نسبة نجاحي في تنفيذ ما رميت إليه. أتدرون! أتدرون أن كلّ ما عليكم فعلُه هو أن تتحدّثوا بما أوغرته في صدوركم، حينها، وحينها فقط، سأنطفئ. لكنْ هيهات، تحتاجون دهرًا لكشف طبيعتي، وحينما تكتشفون ستكونون بلا أيّ نفع لدي، سأنتقل للّعب في مسرح أكبر، أبطاله ورغم أنّهم يفوقونكم فيما خوّل إليهم من سلطات، وفيما اكتسبوه من خبرات في كشف أمثالي؛ إلّا أن اللعبَ معهم سريعًا ما يؤتي أكله. أرجوكم ألّا تنسوا أن ترفعوا لي قبعاتكم لأوليكم حينها بعضًا من نظراتي.

استقلّ مجدي سيارته، وقام بتشغيل موسيقى صاخبة، بينما تتعالى ضحكاته المجنونة وهو يتباهى بنجاح كلّ ما رمى إليه.

***

مجدي

نعم، إنّه مجدي، تلاعب بالجميع ولم يعدْ لديه دافع للبقاء.

مجدي ووالدُه حجاج، عملَا في خدمة حمْو فريد في الفيلا الخاصة به.

كان مجدي يتنقل بين مقرّ إقامته في ذلك البيت المتواضع ببني سويف إلى الفيلا التي يعمل بها والده في القاهرة.

معظمُ وقت الإجازة الصيفية وهو يساعد والدَه الشيخ الكبير، لا تروقه طريقة المعاملة التي يلقاها من فريد، ولا حتى حنفي، الذي كان يتردّد على فيلا والد دولت كثيرًا، ويعامل مجدي كخادم هو وأبيه.

رغم كلّ ذلك، فمجدي كان متفوقًا في دراسته التي تفرغ لها بعد موت أمّه، وكان توسّل أبيه إلى فريد دافعًا للتوسط له للعمل في البنك قبل شهور بسيطة من التحاق رشاد نفسه بالبنك.

تحسّنت معاملة فريد لمجدي قليلًا؛ لكنّ حنفي، ورغم عدد المرات القليلة التي تصادف اجتماعهما سويًّا في فيلا حَمْو فريد، فكان يُولي لمجدي نفس النظرة الدّونية مهْما علا شأنه. لم يكنْ يعرف مجدي أيّ شيء بشأن التجارة التي تجمع بين فريد وحنفي في الأدوية الممنوعة، وإلّا كان أوّل مَن تكفّل بهدمها فوق رؤوسهم.

حتّى في تلك المكالمة التي حدّثه فيها فريد بصوت أجشّ مستفسرًا عن حسن وتوأمه سلامة، ورغبته في جمْع معلومات عنهما، لم يكنْ يخطر بباله أنّ هذا هو دافع فريد مِن وراء هذا التقرير، لكن الآن كلّ الخيوط أصبحت بين يديه، لم يسْعَ كثيرًا لجمعها ولكنّها أتته راغمة.

ضحكَ كثيرًا حين تذكّر سلامة، وتخيّل مصيره الآن وهو في طريقه إلى السجن ومعه حنفي بتهمة الإتجار في المواد المخدرة.

***

سلامة

اكتشف مجدي أمرَ سلامة، وانتحاله لشخصية أخيه منذُ أيامه الأولى بالبنك، كان ذلك عقب تلقّيه مكالمة من فريد يطلبُ منه فيها توصيلَ تحذير مستترٍ لحسن مع مبلغ مالي.

فحْوى تلك الرسالة هي أنْ يرضى بالأمر الواقع كما ارتضاه أخوه سلامة، لم يفهم مجدي شيئًا من تلك الرسالة، وبالطبع تلقّى توبيخًا من فريد حينما أراد أن يستوضح معناها، فنفّذ ما طلبه منه فريد، وألقى تلك الرسالة- بالإضافة للمبلغ المالي- داخل سيارة حسن بدون علمه.

بعدَ فترة، لاحظ مجدي أخطاءً غير منطقية من حسن في العمل، وبعد قليل من الحوارات البينية بينهما، والتي استقى فيها بعضًا من الأمور الخاصة بطبيعة العمل داخل البنك، أو بعضًا من المواقف السابقة بينهما؛ تبيّن له بأن هذا الشخص ليس حسن، وأنّه أخوه التوأم.

ساعدَ مجدي سلامة دونَ أن يخبره بما استنتجه عن حقيقة شخصيته بإرشاده عن بعض الأشياء التي تُمكّنه من تقمص دور أخيه دونَ أن يلاحظ ذلك أحد غيره، ثمّ قال لفريد كذبًا:

- حسن يريد أن يلتحق بدورة تدريبية، وأظنّ أنها ستنتشله من الحزن الذي به الآن، وتخلقُ له دوافع جديدة في الترقي داخل البنك.

كان بالفعل هناك دورة تدريبية صغيرة عن حماية قواعد البيانات، والتي لا دخل لحسن بها نهائيًّا.

بالطبع لم يكن صعبًا على فريد بعلاقاته المتشعبة أن يُدرج اسمَ حسن داخل تلك الدّورة، فيما تواصل مجدي مع المحاضر، والذي كان صديقًا له بأن يقوم بشرح بعض من الاختراقات التي تحدُث في البنوك بشكل سريع، ومن ضمنها المعاملات الليلية؛ لأنّ المُرشح من قِبل البنك صديق له، وسيُطلب منه تقرير عن الاختراقات وتأثيرها على البنوك بعدَ انتهائه من تلك الدورة مباشرةً كنوع من اختبار استيعابه لتلك الدورة، كما أكّد مجدي على صديقه المحاضر أن يُبقي الأمر سرًّا، ولا يُلمح لهذا الموظف عن أيّ شيء دار بينهما.

بعدَ انتهاء الدورة التدريبية التي حضرها سلامة، والتي أكسبته معلومات بسيطة عن المعاملات الليلية، استدرجه مجدي للحديث عن تلك الدورة، وأخذ يرمي له بين ثنايا كلامه بعضًا من أهدافه، وكثّف الحديث عن تلك المعاملات في كلّ لقاءاتهم، ممّا جعل سلامة هو مَن يتجرأ ويطلب منه تنفيذَ تلك المعاملات داخل البنك.

بالطبع أبدَى مجدي رفضه في البداية، ثمّ وافق على مضضٍ متعلّلًا بأن ما دفعه للموافقة هو انتشاله من ديونه فقط.

حامتِ الشكوك حول سلامة المُنتحل لشخصية أخيه من رشاد وآدم، هذا الأخير الذي طلبَ النصيحة من الجميع، وكان مجدي من ضمن مَن طلب منهم النصيحة.

باتت الآن كلّ خيوط سلامة بين يديه، فتلاعب به كما يريد.

في البداية، أقنعَه أوّلًا بأن ينفي تهمة قتل أخيه عن نفسه أمامَ رشاد، وأنه لا يوجد أهمية لتبرئة ساحته أمامَ أحد غير رشاد لأنّ رشاد هو الوحيد الذي سيمثل ضغطًا عليه.

أمّا آدم فليتكفّل رشاد بنفي كلّ التّهم والاستنتاجات التي تدور بخُلده، وليتكفل مجدي بزرع الفتنة عندَ آدم تجاه رشاد، ومدّه باستنتاجات مغلوطة ومقصودة عن مدى انتفاع رشاد من حجب الحقيقة.

ثمّ كان ما يرمي إليه وهو المخاطرة بالمعاملات الليلية، فما كان له أن يخاطر وينفّذها من خلال حسابه الشخصي، بل كانت من حساب حسن الموجود مع أخيه سلامة بعدَ إعادة تهيئة الحساب من قِبل قسم تكنولوجيا المعلومات بناءً على طلبه.

تمّت عملية السرقة الليلية وتحويل الفوائد بنجاح تامّ لتمَكُّن مجدي من كلّ أدواته فهو البارع في كلّ أقسام البنوك، صحيح أنّه لم يعمل سوى في قسمين اثنين، إلّا أنه كان يستغلّ وقته كله في المذاكرة والاطلاع في كلّ شيء خاص بالبنوك سواء في تخصّصه أو خارجه.

نجحَ في إبطال كلّ المُستجدات التي أدرجها عمر كسُبل للحماية، وكان يستقي كلّ ذلك منه في تلك الجلسات الودية التي بينهما بأسلوب احترافي.

ورغمَ نجاح العملية وعدم اكتشافها، إلّا أنها لم تُرضِ طموحه؛ فهو يمْقت الجميع ويعيش بينهم بنظراتهم الدّونية التي يراها فِي أعينهم، حتى وإن حجبوها، تلك النّظرة التي تلازمه «ابن البواب» الذي لن ينالَ المناصب العليا وسيظلّ قابعًا مكانه، وخيرُ مثال على ذلك هو رشاد نفسه، فكان دائمًا ما يُحدث نفسه عن الظلم الذي يتعرّض له، وأنّه كيف لرشاد أن يرتقي في السّلم الوظيفي في حين أنه استلمَ وظيفته قبلَ رشاد وحصل على الماجستير والدكتوراه، وقدّم العديد من الاقتراحات التي ساهمتْ في طفرات تقدّم البنك ولم يحصل على شيء.

كانت إذًا تلك المعاملات المستقبلية هي خطتَه النهائية لتحويل أموال البنك كلها، ثمّ الهرب للخارج، وهناك يبدأ حياةً جديدة خالية من أي منغصات.

في البداية، كان لزامًا عليه أن يحصل على بطاقة حسن، بالإضافة لكلمة المرور الخاصّة به، والتي هي بالفعل بحوزته؛ فأقنع سلامة بأن تكون الحقيقة مجزّأة حين يسردها على أخيه؛ هكذا اعتاد دائمًا.

كان تساؤل سلامة الدّائم لمجدي:

– لماذا لا نخبر حسن بأنّه أنت مَن يدبر كلّ هذا وليس رشاد؟ فمن الجائز عندما يعلم حسن بخبر خطبةِ حنان لرشاد أن يقلب الطاولة ويرفض التعاون.

كان جواب مجدي الذي درسَ شخصيات جميع مَن حوله، بأنّ حسن عندما يعلم أن رشاد هذا المهندس الخلوق الملتزم هو الآخر قد سقطَ في الهاوية، فستنهار لديه القيم، على خلاف أنْ يُزجّ باسمه هو؛ حيث أن حسن لا يستسيغه، ناهيك عن توقّعه لطلب حسن بفسخ الخطوبة بين رشاد وحنان كشرط للتعاون.

هل كلّ ألاعيب مجدي سينالها حسن فقط؟!

أوهمَ سلامة أخاه بأنّ السرقة التي تمت، والتي سيكرّرونها مجددًا، لكن باحتياطات أكبر؛ ما هي إلّا تلك المعاملات الليلية، والتي تعتمد بشكل رئيسي على التربح من الفائدة دون وقوع ضرر على البنك في ذلك، وأنّ الغرض من استعارة بطاقته ما هو إلّا لمحْو السجلّ الذي اكتُشف المرّة السابقة عن طريق عمر، وهو بالطبع ما لم يحدث.

بينما الحقيقة هي سرقة البنك كلّه عن طريق المعاملات المستقبلية، ثمّ الهرب رفقة مجدي للخارج، وأنّ حسن سيصحو من غفلته والسلاسلُ في يديه بتهمة التعاون في سرقة مال البنك كله، ويتحمّل وحده كلّ التبعات مهما ساق من مبررات، وسينجو مجدي وسلامة بفعلتهما.

لكنّ ذلك لم يكن ليُرضي مجدي، فكانت مساواته في الظلم بين الأخوين!

استطاع مجدي إقناع سلامة الذي جاء إليه، وأخبره بتلقيه رسالة لإتمام آخر عملية تهريب للترامادول، وأنّه لا ينوي المخاطرة فيها، ويكفيه ما سوف يجنياه من أموال من البنك؛ إلّا أنّ مجدي شعر أنّ الفرصة جاءته أيضًا للانتقام من فريد وحنفي دفعة واحدة، فهو بات الآن يعرف نوعَ التعاون بينهما وبين سلامة.

أخبرَ مجدي سلامة بأنّ عملية سرقة البنك ستتمّ في اليوم التالي لعملية التهريب والتي كانت عصر اليوم «الأحد ٢٧ أبريل ٢٠١٤»، وأنه فورَ أن يُنهي عملية استلام وتسليم الأدوية الممنوعة سيقومون بتنفيذ عملية البنك غدًا الاثنين «٢٨ أبريل» مباشرةً بعد انتهاء أوقات العمل الرسمية، ومن ثمّ مغادرة البلاد صباح الثلاثاء ٢٩ أبريل.

بينما هو في مخطّطه أن ينتهي من تنفيذ العمليات المستقبلية لسرقة البنك اليوم الأحد، وقبلَ الميعاد المتفق به مع سلامة بيوم واحد، ثمّ قام مجدي بالإبلاغ عن عملية تهريب الترامادول بتفاصيلها، بعدما طلب من سلامة إرسال أي رسالة تصل إليه إلى رقم جديدٍ قد اشتراه مؤخّرًا حتى يتابعه ويطمئنّ عليه، وكانت كلّ تلك الرّسائل تصل إلى الشرطة في بثّ مباشر للعملية.

كان مجدي يعرف أنّ الحادث الذي حدث لفريد أبعده عن الوقوع في شباكه والانضمام لليلة السقوط الكبيرة لحنفي وسلامة وآخرين، كان يتمنّى في قرارة نفسه أن يكون هذا الحادث مدبّرًا، وأن يكون هو مَن أشرف على تدبيره حتى يطفئ نار الغلّ التي بداخله ناحية فريد، لكن فريد لم يهرب من عقابه كُليةً، فكان بحوزة مجدي مَن يُقلب عليه ذكرياتِ الماضي، ويهدم صورته الجميلة الشريفة.

قال مجدي وقد انتابته حالةٌ من الجنون، وبصوت يشوبه ألم وغصة:

– فريد الذي سرق وتاجر في الأدوية الممنوعة، وحاول احتكار تجارة الأخشاب، يأتي الآن ليُكفر عن سيئاته، ويحسب أنه سيُنقى من دنسه!

ضحكَ كثيرًا حين تخيّل موقف فريد المشلول الآن، وهو تُتلى على مسامعه تفاصيل سرقته الأولى بدقّة متناهية، يُسمعه ماضيه وهو سجينُ جسده، فقد فهمها مجدي وأفهمَها لعمر في الوقت المناسب ليواجه فريد بها.

***

عمر

رغم أنّه هو الآخر ممّن يكرههم مجدي؛ فقط لصلة القرابة بينه وبين رشاد، الذي يعتبره قد سرق حقّه، إلا أنه استغله وتقرّب إليه رغم الفارق العمري بينهما ليكون قريبًا من كلّ خطط الدفاع التي تتوارد إلى ذهنه، ثمّ كان إمدادُه بالمعلومات التي تُقرّبه من مواجهة فريد، وكشف ألاعيبه أمام الجميع.

اندهشَ مجدي من طلب فريد بتقديم كلّ ما ينقص عمر من متطلبات في سبيل إتمام زواجه من سمر، وفي الوقت ذاته يقوم بإحراج عمر أمام رشاد، ولكن بطريقة لا تحتوي على أيّ ضرر جسيم لعمر.

خُيَّل لمجدي في البداية أنّ أوامر فريد تلك ما هي إلّا لإحكام سيطرة رشاد على كلّ الموظفين، لكنه كان مخطئًا في تفسيره هذا، فقد كان هذا طلبًا من وداد التي آلمها شكوى رشاد المستترة من عمر عقب خطوبة سمر له، فطلبت من فريد أن يضع عمر في حجمه الحقيقي أمام رشاد.

استغلّ فريد تلبيته لطلب وداد لردّ جزء ممّا سرقه من أموال سمر، عندما علم أن مَن تريد وداد تأديبه هو الزوجُ المُنتظر للبنت التي أكل مالَ أبيها وهي يتيمة صغيرة.

تولّى مجدي أمرَ تأليف وإخراج القصة التي ستضمن لعمر الحصول على مُراده، وفي نفس الوقت وضعَ عمر في وضعٍ محرج أمام رشاد، حدث كلّ هذا دون أن يُذكر اسمه نهائيًّا.

لم يكن صعبًا عليه استئجار خدمات شفيق، الذي أتقن تمثيل دوره على أكمل وجه دون أن يعرف شيئًا عن الأهداف الباطنة، وكذا تسريب خبر

عرض الشقة لعمر عن طريق أخيه مصطفى الذي سمعه بصدفةٍ مقصودة، ومُعدّ لها جيدًا.

بالطبع وضحت الرؤية كاملة لمجدي لكنْ في وقت لاحق، حدث هذا عندما سأله عمر عن مال والد زوجته، والذي خمّن مجدي أن يكون قد أُهدر أو سُرق من خلال الحسابات الراكدة، فسأله عدّة أسئلة، كان أبرزها اسمَ البنك الذي كان مُودعًا فيه هذا المال، ومدى إطلاع والد سمر لزوجته وأهله عن معاملاته المالية.

أخبره عمر أنّ البنك في طنطا، وأنّ والد زوجته لم يُطلع أحدًا على ما لديه من مال.

ربطَ مجدي كلّ تلك المعلومات بالمعلومة التي استطاع الحصول عليها، وهي أن عملية السرقة تلك تزامنت مع آخر سنةِ عمل لفريد في هذا البنك، فبنى كلّ استنتاجاته بصورةٍ أقرب ما تكون للحقيقة، وكأنه رآها رأي العين.

استنتج أنّ تلك الشقة التي أمره فريد أن يُعطيها لعمر، وأن تُستكمل أي تشطيبات بها؛ ما هي إلّا تعويضًا عمّا اقترفته يداه في الماضي.

أعطى مجدي هذا السيناريو لعمر في الوقت الذي سيُنفذ فيه هو عمليته في البنك، فيكون عمر في مواجهة مع فريد الذي عرف أنّه شُلت قدمه، ويكون رشاد في المستشفى هو الآخر يُصارع أحزان فقْد أمّه، بينما هو في البنك يُنفّذ مخطّطه بأريحية كاملة.

عادت حالة الجنون لتنتابه من جديد، حيث قال:

– تشييع جنازة أمّ رشاد النائم في المستشفى يحضرها الجميع، وجنازة أبي يختلقون أعذارَ تغيبهم عنها، كلهم منافقون.

***

الاثنين، ٢٨ أبريل، ٢٠١٤

أعدَّ مجدي حقائب سفره البسيطة، وغادر منزله قبلَ موعد إقلاع الطائرة بثلاث ساعات، وأثناء نزوله من منزله ليتوجّه إلى المطار، وفي أوْج شعوره بنجاح خطته وانتقامه من كلّ أعدائه، فُوجئ بشخص ما يكبله من الخلف، ويكمّم فاه، ويزجّ به في سيارة مغلقة قبل أن ينطلق لمكان مجهول.

***

بينما كان رشاد وحنان وأبواهما ينهيَا إجراءات خروج رشاد من المستشفى عقب تماثله للشفاء، إذا برسائل على فتراتٍ متقاربة تصل إلى هاتف رشاد.

لم يعرف أحدٌ بأمر المعاملات الليلية التي كان ينفّذها مجدي ببراعة بالغة، ودون ترك أيّ أثر، وكيف أنه كان يدخل على أنظمة التشغيل ويمسح جميع السجلات ذات الصّلة بالعمليات التي يقوم بها، إلّا أنه لم يكنْ في حسبان مجدي أن يقوم البنك الكندي بتوجيه رسالةِ شكرٍ للبنك على المعاملة التي أجراها ليلًا دون أيّ تفاصيل.

وَرَدَتْ تلك الرسالة للبريد الإلكتروني الخاصّ بمدير البنك، والذي اطلعَ رشاد عليها، فقاموا بمراجعة كلّ المعاملات التي تمّت في الفترة الأخيرة فلم يجدوا أيّ معاملة مع البنك الكندي.

كان مدير البنك بصددِ مخاطبة البنك، وإبلاغهم بخطأ الرسالة؛ إلّا أنّ رشاد نبّهه أن تلك المعاملة قد تكون قد تمّت بالفعل.

كان الحلّ المُقترح من جانب رشاد هو تخصيص بريده الإلكتروني والبريد الخاص بالمدير في استقبال جميع الإشعارات الخاصّة بمعاملات البنك

الخارجية، والعمل على إيجاد الأسباب الممكنة التي تسبّبت في هذا الخطأ إن كان مقصودًا، خاصّة أن حسابات البنك سليمة تمامًا.

قام رشاد بالاتّصال بالمدير من المستشفى حيث رصد وجود سحوبات كبيرة من احتياطي البنك بمجرّد فتح النظام صباحًا، وسأله عمّا إذا كان النظام يعطي إنذارًا بسحب هذه الأموال؟! فأجابه المدير أنه لم يلحظ شيئًا.

على الفور توجّه رشاد إلى البنك في التاسعة صباحًا، وبعد المراجعة، وجد أنه تمّ ضخّ مبلغ من الاحتياطي يتمّ سحبه من البنك، ومع كلّ حركة يُصدر النظام التنبيه مجدّدًا.

وجدَ رشاد أنّ هذه السحوبات غير منطقية، وأخبر المدير بذلك، والذي بدوره تبيّن عدمَ وجود عمليات لديه بهذه المبالغ الكبيرة.

فُتح بابُ التحقيق من قِبل الإدارات المعنية، التي قامت بمراجعة كافّة الملفات بحثًا عن الخلل الذي حدث وتسبّب في سحب أكثر من عشرين مليون جنيه قبل إيقاف تلك العمليات، ولم يستغرق الأمر أكثرَ من ساعة حتى تبين أنّ عمليات التحويل تمت ليلًا بينما كان النظام الإلكتروني مغلقًا، وما إن تمّ تشغيل النظام حتى قام إلكترونيًّا بتنفيذ أوامر السحب الليلية.

نجحَ رشاد والمسئولون في البنك في تحديدِ الفاعل، والذي تبيّن أنهما مجدي وحسن، واللذيْن تمّ إبلاغ الشرطة عنهما.

تمّت محاصرة منزليهما، لكنّه لم يُعثر على أيّ منهما.

دقائق ويُرمى بمجدي على أبواب البنك أمامَ الجميع، ويسقط حسن مغشيًّا عليه.

***

عقبَ إلقاء القبض على سلامة بالأمس، وإحساسه بأن كلّ خُطوة يخطوها كانت مُراقَبة، وهو الذي كان قد أرجع ذلك في البداية لبعض الوساوس التي قد تكون علقتْ بذهنه بعد تغليظ العقوبة؛ إلّا أنّه بعد القبض عليه والزجّ به في السجن مع أشخاص ولأوّل مرة يلتقي بهم مثلَ حنفي وآخرين، والذين أبدوا اندهاشهم البالغ أيضًا بتتبع الشرطة لكلّ خطواتهم والإبلاغ عن بعضهم تحديدًا مثل حنفي.

هنا، فهمَ سلامة أنّ مجدي هو مَن أوقعه في هذا الشّرك، وبعد أن كان قد عقد النية أن يستنجد به في ورطته تلك، والتي تأكد أنها حيكت بعناية ولن يفلت من عقابها، حاول أن يُصحّح بعضًا مما اقترفه في حقّ أخيه.

في جوف الليل ووسط غياهب السجن، وبمجرّد أن استطاع سلامة أن يتَحصّل على هاتف، قامَ بالاتصال بأخيه وقال له كلمات مقتضبة:

– حسن، لا يوجد لديك الكثيرُ من الوقت، لقد خدعتك في كلّ ما أخبرتك به، أنْقِذ نفسك يا أخي، حاول أن تلحق بمجدي، رشاد بريء يا حسن، مجدي هو مَن دبّر وخطّط لكلّ هذا، وهو في طريقه لسرقة البنك بالكامل ثمّ الهروب للخارج، امنعْه يا حسن بأيّ طريقة مِن تنفيذ مُخططه إن لم يكن قد نفّذه بالفعل. حسن، سامحني، لقد ظلمتك كثيرًا.

كانت كلمات سلامة كسياطٍ تلفح ظهرَ حسن، تسحبه على وجهه، كلّ حرف منها كصفعةٍ مميتة، تُلقي به في جوف الأرض وتعاود إخراجَه من جديد ليتلقى صفعةً أخرى. تمنّى لو كان قد لقيَ حتفه قبل أن يكتشف غدرَ أخيه وخيانته.

تعافى مؤقتًا من آلام الغدر التي طُعن إياها، نهض من فوره ثمّ ذهب إلى منزل مجدي الذي كان يهمّ بمغادرته في الخامسة فجرًا، وما إن رأى حسن

مجدي ينزل مهرولًا حتى أخذه داخل سيارته، وما إنْ أصبحوا في هذا المكان المهجور قال له مجدي:

– سلامة، لمَ تفعل ذلك؟! ميعاد خطّتنا اليوم وأنت بذلك تُفشلها، هاتفي كان مغلقًا بالأمس ولم أستطع متابعتك بعدَ آخر رسالة وصلتني منك، كنت على وشكِ الاتصال والاطمئنان عليك، لا وقتَ للمزاح الآن يا سلامة، أريد تفسيرًا لما تفعله، الخطط كلّها ستنهار.

لم يشعرْ حسن بنفسه إلا وهو يكيل اللكماتِ والصفعات لوجه مجدي قائلًا:

– الحمد لله أنّ توقعي لشخصك باتَ في محله، كنت سأحزن كثيرًا إن كان حدسي خاطئًا، أظنّ أنّي أظهرت لك عدمَ ارتياحي في تعاملي معك، ولم يكن ليثنيني عن قناعاتي زيفُ كلامك، وتقرّبك المصطنع، وإطراؤك المستمرّ على دماثة أخلاقي.

هنا، علم مجدي أنّ حسن مَن يخاطبه، فخارت قواه.

أظهرتِ التحقيقات الأولية اعترافَ مجدي بجريمته عقب إلقاء القبض عليه، كما أدلى مجدي خلال التحقيقات بمعلومات تفصيلية عن شركائه الذين ساعدوه على إتمام عملية النصب والاحتيال واختلاس أموال البنك، فيما نجح البنك بالتعاونَ مع الجهاتِ ذات الصلة بإعادة معظم الأموال التي كان قد حوّلها مجدي على أساس أنها ثمنُ بضائع.

حسن الذي كُبّلت يداه وزُجّ به في سيارة الشرطة، ذهب إليه رشاد مسرعًا.

نظرَ إليه حسن، ثمّ نكّس رأسه وقال:

– سامحني مهندس رشاد، بالفعل أنتَ أفضل مَن تعاملت معهم.

– مستر حسن، أنت...

– مستر حسن، ها.. ها، بل قل السّاذج حسن، التابع حسن، المجرم حسن.

– سأزورك يا حسن، ولن أتركك.

– بالمناسبة، مبارك خُطوبتك لدكتورة حنان، بالفعل الطيّبون للطيبات.

***

كان جلال ومعه حنان قد ذهبَا رفقةَ رشاد إلى البنك من المستشفى عقب اكتشافه لأمرِ سرقة البنك، تقدّم عمر ناحية جلال معتذرًا:

– آسف جدّي الباشا.

– ولِمَ أسفك يا عمر؟

– ظلمناك كثيرًا يا جدي.

– ما خطبك يا عمر؟!

– ذهبت أنا وعمّي صفوت لزيارة أستاذ فريد؛ فقد اكتشفنا أنه هو من سرق أموال والد سمر زورًا، وبدون وجه حقّ.

أمسك عمّي صفوت بتلابيبه رغم أنّه مشلول الآن، وقال له:

– «لقد جعلتني أظلم أختي، وأظلم رجلًا لم أرَ منه شرًّا قطّ طيلة عمري».

– الحمد لله أنْ أظهر الحقيقة، هل لهذا السبب حدّثتني سمر أمس باكية؟

– سمر تحبّك يا جدي، ولوْلا وجودك بالمستشفى أمس لجاءت إليك مُقبلةً ليديك.

كان رشاد قد عرف مقدارَ الظلم الذي وقع على أبيه، وأنّ براءته من تلك التهمة لم تظهرْ فقط إلّا بالأمس حينما استمع للتّو لرواية عمر.

عقدَ النية أن يكون فريد هو أوّلَ مَن يشعر بالتغيير الطارئ على شخصيته، وأنه سينال كثيرًا من سهام نقده إن تسنّى له مقابلته، ولم يُدرج اسمه للعقاب فيما ارتكبه من جرائم، سيحفظ له جميلَه، وينفّذ رغبته في رعاية أخته غادة ويُبقي هذا سرًّا، ومِن الجائز أيضًا أن يسامحه فيما اقترفه في حقّه، لكنه لن يسامحه في حقوق الآخرين.

لو علم رشاد أنّ مكالمة فريد لوداد ليُبلغها بما حدث لغادة كانت سببًا في موتها وهي مَن كانت تتماثل للشفاء، لَما سامحه نهائيًّا.

نظرَ رشاد إلى أبيه، ورأى حفاوة الجميع به، أدرك أنّ كلّ أفعال أبيه طيلة حياته كان يُغلب فيها مصالح الآخرين على مصالحه الشخصية التي يدفنها، يتعامل بعقلٍ ناضج، وسريرةٍ خالية من الشوائب.

غالبت رشاد الدّموع، ثمّ احتضنَ أباه أمام الجميع، وقال:

- هذا أبي، فليُرِني امرُؤ أباه.

[تمت بحمد الله]

BANKERS
بانكرز

رواية

أحمد فوزي طاحون

سأتلاعب بكم جميعاً، سأستغلُ انقطاع أواصر الود بينكم وأزرعُ الفتنة، كلُ ما أتلوه على مسامعكم ليس كذباً مطلق، سأكسوه بغُلافِ الصدق، أعرف كيف أدسُ بعضَ الحقائق المعروفة لديكم في سياق أكاذيبي، فينطلي عليكم خداعي. سأتأمل نظراتِكم بعضُكم البعض، وأعرفُ نسبة نجاحي في تنفيذ ما رميت إليه. أتدرون! أتدرون أن كل ما عليكم فعله هو أن تتحدثون بما أوغرته في صدوركم، حينها.. وحينها فقط، سأنطفئ؛ لكن هيهات، تحتاجون دهرا لكشف طبيعتي، وحينما تكتشفون؛ ستكونون بلا أي نفع لدي، سأنتقلُ للعبٍ في مسرحٍ أكبر، أبطالُه ورُغم أنهم يفوقونكم فيما خُول إليهم من سلطات وفيما اكتسبوه من خبرات في كشف أمثالي، إلا أن اللعبَ معهم سريعا ما يُؤتي أُكله. أرجوكم ألا تنسوا أن ترفعوا لي قُبعاتكم؛ لأُوليكم حينها بعضا من نظراتي.

أحمد فوزي طاحون

شاعر ومهندس مصري، (من مواليد محافظة الشرقية، عام 1983)، تخرّج عام 2005 من كلية الهندسة جامعة الزقازيق قبل أن يلتحق بالعمل بمجال صناعة البترول عام 2007.

للكاتب ديوان بعنوان "أحفاد أفكاري" صادر عن دار نون للثقافة والترجمة عام 2017، كما أنّ له كتابًا آخر منشورًا إلكترونيًا عبرَ مكتبة الكتب بعنوان "كتاب لشرح البراميفيرا بطريقة مبسّطة لصناعة البترول"، والعديد من الأغاني المسموعة والمقروءة الأخرى.

تصميم الغلاف : أحمد الصباغ

ISBN 978-977-278-840-8

01012355714 - 01152806533
elbasheernashr@gmail.com
elbasheer.marketing@gmail.com
www.darelbasheer.net

دار البشير